ويلسون المُغفّل

مارك توين

ترجمة: نهى الشاذلي

ويلسون المغفل

الكتاب: ويلسون المغفّل

المؤلف: مارك توين

ترجمة: نهى الشاذلي

تصميم الغلاف: إسراء النجار

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

عدد الصفحات: 254

الترقيم الدولي: 978-1-998800-04-9

الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حيـــــاة

الموقع الإلكتروني Hayatph.com

بريد إلكتروني info@hayatph.com

مارك توين

ويلسون المغفل

رواية

ترجمة

نُهى الشاذلي

مُقدمة

كتب مارك توين هذه الرواية -والتي تُتَرجَم إلى العربية للمرة الأولى- بعد أربعين عامًا تقريبًا مِن انتهاء الحرب الأهلية التي كادت أن تمزق أوصال أمريكا. وقتها كانت التفرقة العنصرية وقضايا العِرق لا تزال أمورًا مُلحَّة وشائكة. أنواع متعددة مِن العُنف وأفكار متطرفة شتى، تعرض لها كل مَن اختلف لون بشرته عن الأبيض.

كشف توين كثيرًا من الحقائق المتعلقة بهذه القضية -التي أزعجته وأرَقته- في روايته (ويلسون المغفل). كانت العبودية -وقتها- جائزة قانونًا، ويمكن للرجال والنساء أن يُباعوا ويشتروا كعبيد.

لم تكُن الفترة -التي كُتِبَت فيها الرواية- هي الأفضل في حياة المؤلف؛ فقد كان مُفلسًا متشائمًا، يحاول كسب المال ليعيش. بدأ كتابتها في إيطاليا عام 1892، واستلهم قصتها من إعلان سنتكلم عنه لاحقًا، وقبل نشرها في كتاب، باعها لمجلة century مقابل ستة آلاف وخمسمائة دولار، تُدفَع له على سبعة أشهر.

لم تكُن القصة في بدايتها كما هي الآن بين يدَي القارئ. في البداية، قرر توين أن يكتب رواية ساخرة عن توأم استثنائي وهما لوجي وأنجلو في الرواية. وبينما يكتب، وجد أن شخصيات مثل ويلسون وتوم وروكسي فرضت نفسها على النص بقوة، لدرجة أنها أخذت مساحة أكبر من التوأم في الرواية. وجد المؤلف نفسه أمام

قصتين تشابكت أحداثهما معًا؛ الأولى كوميدية ساخرة عن توأم استثنائي، والثانية قصة مأساوية تفضح مُعضلة العبودية والتمييز العنصري في أمريكا! وهذا ما جعله يدمج القصتين معًا، ويعدّلهما، وينقحهما ويخضعهما لـ(عملية قيصرية أدبية) كما يقول بنفسه! فخرج لنا العمل بشكله الأخير تحفةً فنيةً عبقريةً، بل تُعدُّ أهم ما كتب توين في حياته.

نُشِرت هذه الرواية لأول مرة في أمريكا، في الثامن والعشرين من نوفمبر، عام 1894، تحت عنوان:

"The Tragedy of Pudd'nhead Wilson and the Comedy of Those Extraordinary Twins".

أما قصة التوأم؛ فاستلهمها توين من صورة رآها في إعلان، عن التوأم توتشي؛ اللذين وُلدا بعيب خُلُقي يجبرهما على العيش في جسد واحد. كما أن توين كان مفتونًا من البداية بتيمة التوأم، وكتب غير (ويلسون المغفل) نوفيلا تحت عنوان "THOSE EXTRAORDINARY TWINS".

حصل توين على نسخة من كتاب عن بصمات الأصابع كتبه العالم البريطاني فرانسيس جالتون (1822 - 1911)، وهو ابن عم تشارلز داروين، وكان اهتمامه كله مُنصبًّا في علم الوراثة. عندما قرأه توين سَحَره محتوى الكتاب، فقرر استخدام هذه المعلومات الخاصة ببصمات الأصابع في روايته -وليس ذلك فقط- بل جعل هذه البصمات سببًا أساسيًّا في الرواية لتحديد الهوية والعِرق. حولت هذه الإضافة نص (ويلسون المغفل) إلى رواية ذات طابع بوليسي.

تُترجم هذه الرواية إلى اللغة العربية للمرة الأولى، نظرًا لأهميتها وضرورة نقلها للقارئ العربي. وقد كُتب الحوار في الرواية بلهجة إنجليزية محلية، وهي اللهجة التي استخدمها العبيد وقتها. فقد كانوا ينطقون الكلمات بشكل خاطئ، دون أي اهتمام بقواعد الإنجليزية الصحيحة، فحرص توين أن يكتب الحوار بين العبيد في الرواية بالطريقة ذاتها؛ جاءت حروف الكلمات منقوصة، لدرجة لا يفهمها سوى المتخصصين، كما تم استخدام قواعد خاطئة في بناء الجملة؛ لكننا اجتهدنا أن نترجم الحوار بطريقة مألوفة للقارئ العربي، مُحافظين على المعنى نفسه الذي قصده المؤلف، بدون زيادة ولا نقصان.

نهى الشاذلي

همسة للقارئ

"لا توجَد شخصيَّة - مهما كانت قويَّة ورائعة- لا يُمكن تدميرها والحطّ من قَدْرِها بالسُّخرية. مهما كانت هذه السخرية تافهة أو في غير موضعها. تأمَّل الحمار، على سبيل المثال: شخصيته تُمثِّل الكمال. هو الروح المُختارة والمميزة عن أرواحِ جميع الحيوانات الأخرى، لكن انظر ماذا فعلت فيه السخرية! فبدلًا من الشعور بالفَخر والثناء إذا أُطلِق علينا لقب (الحمار)، نشعر بالذُّلِّ والمهانة".

مِن مذكرات ويلسون المغفل.

مِن الممكن للشخص الجاهل بالأمور القانونية أن يرتكب أخطاءً عندما يحاول كتابة مشهد يدور في قاعة المحكمة بقلمه؛ لذلك لم أكن مستعدًّا أبدًا للوقوع في مثل هذا الخطأ، أو السماح بطباعة هذا الكتاب -بما فيه من فصول مُتعلِّقة بالقانون- دون أن أعرِضها على خبير ليصححها ويراجعها مراجعة دقيقة وصارمة، وقد عرضتها على محام -له خبرة كبيرة- مُتمرِّس كما يقولون. هذه الفصول الآن صحيحةً بكل تفاصيلها؛ لأنني أعدت كتابتها تحت إشراف مباشر مِن المُحامي المخضرم ويليام هيكس، الذي درس القانون قبل خمسة وثلاثين عامًا جنوب غرب ميسوري، ثم جاء هُنا إلى فلورنسا؛ لأسباب صحيَّة. ولا يزال يساعد في مؤسسة (ماكروني فيرميشلي (لتدريب وتغذية الخيول، الواقعة عند الممر الخلفي

من Piazza del Duomo[1]، حيث يوجد حَجَرٌ اعتاد دانتي أن يجلس عليه قبل ستمائة عام.

هذا الحجر صار الآن جزءًا من حائط مبنى Giotto's campanile[2].

صديقي هذا قديم الطراز فيما يتعلق بالقانون، لكنه حرص أن يكون مجدِّدًا وهو يراجع هذه الرواية، أخبرني بنفسه أن الفصول المتعلقة بالقانون كلها صحيحة.

وفي اليوم الثاني من شهر يناير عام 1893، جلست في فيلا فيفياني في قرية سيتينيانو، التي تقع فوق التلال، على بعد ثلاثة أميال من فلورنسا. ما أروع المنظر هناك! لا يمكن أن يوجد جمال مثل هذا على سطح الأرض، أو حتى في النظام الشمسي كله! غروب الشمس كان أبهى ما رأيتُ في حياتي.

في غرفة المنزل، هناك تماثيل لوجوه بعض أعضاء مجلس الشيوخ، وغيرهم من المشاهير الكبار الذين اعتادوا النظر إلى دانتي! رأيتهم ينظرون إليَّ بمحبة وامتنان، يطلبون مني -بصراحة ووضوح- أن أتبناهم ليصبحوا أفرادًا في عائلتي! وهذا ما فعلته بكل حُب؛ ستكون نَقلَة كبيرة لي أفتخر بها، تلك الوصية الموجهة لي منذ ستمائة عام مضت!

مارك توين

---

(1) مركز ثقافي وتاريخي في فلورانسا- إيطاليا. (المترجم).

(2) مبنى تاريخي يقع في بيازا ديل دومو في فلورانسا- إيطاليا. (المترجم).

الفصل الأوَّل

صار لقبه المغفل!

"في الحياة.. قُل الحقيقة، أو خادعْ بورقتك الرابحة. المهم أن تنفذ لعبتك بإتقان".

من مذكرات ويلسون المغفل.

وقعت هذه الأحداث في بلدة داوسون لاندينغ. تحديدًا في ميسوري بجانب نهر الميسيسبي، والتي تبعُد مسافة نصف يوم بالباخرة عن جنوب سانت لويس.

بحلول عام 1830، أصبحت البلدة مجموعةً من المساكن والبيوت المتواضعة ذات الطابق الواحد والطابقين. أوراق من شجر العنب تسلّقت معظم البنايات، وأخفَت واجهاتها البيضاء، زاحمتها شجيراتِ زهر العسل العَطِرة ونباتات مُبهِجة ذات أزهار مبهرجة الألوان. أمام كل بيت من بيوت البلدة حديقة واسعة غنَّاء. يحدّ أطراف كل حديقة سور خشبي أبيض، محفوفة بأزهار ربيعيَّة ملوَّنة وأشجار زاهية متنوعة. وضِعَت أصص من الفخار أمام نوافذ البيوت، بها نباتات مورِقة حمراء، تبدو في تفرّعاتها كانفجارات اللهب!

وإذا وجِدَت مساحة خالية بجوار الأصص أمام النوافذ، تجد أن قطّة استغلتها ومددت جسدها الصغير باسترخاء وسلام تحت أشعَّة الشمس، تُداعِب خيوطُها الذهبيَّة بطنَها المكسوَّ بالفرو الأبيض الناعم. تبدو البيوت للناظر من بعيد مليئة قناعة ورضى. وتؤكد القطط -رمزُ العصمة من الخطأ- هذا المعنى وتُبرزه. تضفي حميمية ودفئًا على المكان؛ فتراه العين مثل الجنَّة.

بامتداد الشوارع وأمام الأرصفة على الجانبين، نمَت أشجار الجراد ذات الجذوع الخشبيَّة. في فصل الصيف -عندما تبدأ البراعم في النمو- تنتفش وتتمدد وتفرش ظلالها على الشارع. وفي الربيع تنثر شذاها المعسول وعطرها المُبهج في الجو.

أما الشارع الرئيس -الذي يبعد عن النهر بمسافة بناية واحدة ويمتد بمحاذاته- فهو الشارع التجاري الوحيد في البلدة. ست بنايات تمت إقامتها بطول الشارع. البنايات مكونة من ثلاثة طوابق، قائمة فوق مجموعة من المتاجر الصغيرة المنوعة، تحت كل بناية متجران أو ثلاثة من الطوب الأحمر، ولافتات بطول الشارع تُحدِث صريرًا مع هبوب الريح.

محلّات حلوى توحي بالفخر والنُّبل اللذين كانا في بلاد البندقية القديمة، وبجانبها صالون الحلاقة المتواضع الوحيد في البلدة، كلهم في الشارع التجاري الرئيس في داوسون لانديغ جنبًا إلى جنب.

غُسِلَت البلدة بالمياه الصافية للنهر العظيم، الممتدّ بطوله في انحدار بسيط، وعلى جانبيه انتشرت المنازل الصغيرة. تحاوط البلدة من الأطراف تلال مرتفعة تشبه -إذا نظرت من الأعلى- منحنى الهلال، مغطاة بالأشجار والغابات من الشمال إلى الجنوب.

في النهر تمُرّ القوارب البخارية جيئة وذهابًا كلّ ساعة تقريبًا. تتوقّف القوارب الصغيرة -المنتمية إلى خطّي القاهرة وممفيس- دائمًا لأخذ استراحة من السفر، أما سفن أورليانز[1] الكبيرة فلا تتوقف إلا للتحيَّة والترحيب بين الركّاب وأهل البلدة، أو لإيصال المُسافرين والشُّحنات.

أسطول عظيم من السفن يتوقف أيضًا في هذه البلدة حتى يستريح المسافرون، المتوافدون من عشرات الأنهار: إلينوي، ميسوري، أعالي المسيسيبي وأوهايو ومونونجاهيلا وتينيسي والنهر الأحمر والنهر الأبيض وغيرها من الأنهار.

زُوِّدَ هذا الأسطول بكل ما يمكن تخيُّله من ضروريات ورفاهيات لتوفير الراحة لمجتمعات المسيسيبي، بدءًا من شلالات سانت أنتوني الفاترة وحتى نيو أورليانز.

كانت بلدة داوسون لاندينغ ممتلئة بالعبيد، غنية بحبوب القمح ولحم الخنزير. تُعتبر بلدة هادئة ومستقرَّة، وأهلها في أغلب الأوقات مرتاحون وراضون. عمرها خمسون عامًا، تتطور بطيئًا. وعلى الرغم من أنه حقيقةً تطورٌ بطيءٌ، إلا أنه تطورٌ!

يعتبر **يورك ليستر دريسكول** كبير المواطنين في هذه البلدة. عمره حوالي أربعون عامًا، وهو قاضي المحكمة.

---

(1) بلد جنوب غرب باريس، وشمال وسط فرنسا، تطل على نهر لوار. (المترجم).

فخور جدًّا بأسلافه الذين ترجع أصولهم لفيرجينيا القديمة، وبكرم ضيافته الذي يميّزه دونًا عن غيره، وبطريقته الرسمية والفخمة في التعامل مع الناس.

لطالما حافظ على تقاليد العائلة. كان رجلًا خيِّرًا عادلًا كريمًا. يقدّس كونه رجلًا نبيلًا - بلا عيب ولا خطأ يشوب هذا النُّبل الأصيل فيه- تمامًا مثلما يقدّس المرء دِينه الذي يؤمن به. أخلَص لهذه الفكرة دائمًا؛ نال احترامًا وحبًّا من قِبَل أهل البلدة جميعها.

هو رجُل ميسور الحال، وبجانب عمله قاضيًا، عنده متجر خاص يحرص دائمًا على تطويره والاعتناء به. كانا - هو وزوجته- سيصبحان سعداء دون أن ينغِّص عليهما شيء في الدُّنيا، لولا أنهما لم يُرزقا أطفالًا. ظلّ توقهما لوجود طفل يزيد ويستفحل ويصير أكثر إلحاحًا بمرور السنين، لكن هذه الأمنية لم - ولن- تتحقق أبدًا.

والسيدة راشيل برات -أخت القاضي الأرملة- تعيش مع القاضي وزوجته. هي أيضًا عاقر ولم ترزق أطفالًا، عاشَت والحزن متأصّل في روحها، لم تشعُر يومًا بالراحة، ولم تستطع تجاهُل إحساسها بالحرمان من الأمومة.

كانت النساء في البيت مُحبّات للخير وطيبات، عاديّات لا يميزهن شيء، يقمن بواجباتهن على أكمل وجه كنساء أصيلات يعرفن الواجب والتقاليد والعادات، محترمات حصلن على استحسان المجتمع والناس بضمير مرتاح.

ذوات فِكر ديني مُتحفِّظ، بينما القاضي مُفكر حرٌّ.

كان **بيمبروك هوارد** -المحامي الأعزب، البالغ من العمر أربعين عامًا تقريبًا- ذا مكانة كبيرة في فيرجينيا، ونَسَبه يعود إلى سُكّان فيرجينيا الأوائل. رجل رائع ومهيب، ووفقًا لقواعد فيرجينيا وقوانينها؛ فهو يُعتبر من النبلاء. هو أيضًا ذو فِكر مُتحفِّظ، مخلص، وذو سُلطة رهيبة، وعلى استعداد دومًا لإثبات وجهة نظره بأي شكل، يتحدث ويُناقش ويواجه، لكن بلباقة. إذا شكك فيه أحد أو استهان بما يقول أو يفعل، سيستميت في إثبات أنه على حق، ومن أجل ذلك يلجأ إلى كل الطرق الممكنة وغير الممكنة! حظي بشعبية كبيرة بين الناس، وهو أعزّ صديق للقاضي.

كان **الكولونيل سيسيل بيرلي إسيكس** من أوائل سكّان فيرجينيا أيضًا، لا يوجد أي ملاحظة تخصّه الآن.

بيرسي نورثمبرلاند دريسكول هو شقيق القاضي. أصغر منه بخمس سنوات. رجل متزوج ولديه أطفال. دائمًا يُصابون بمختلف الأمراض؛ كالحصبة والتهاب الشعب الهوائية والحمى القرمزية، وهذا ما أتاح لطبيب العائلة فرصة هائلة ليجرّب عليهم أساليبه ووصفاته القديمة في العلاج.

يُعتبر بيرسي رجلًا ناجحًا، ولديه حدس قوي تجاه المخاطر التي يمكن أن تواجهه إذا ما أقبل على مشروع جديد. يملك ثروة في تزايد مستمر.

في الأول من فبراير 1830، وُلد صبيَّان في منزله. الأوَّل ابنه، والآخر ابن إحدى خادماته تُدعى روكسانا.

تبلغ **روكسانا** عشرين عامًا. امرأة نشيطة، ويداها مشغولتان طوال الوقت. قلَّما تنام؛ لأنها ترعى ابنها وابن السيد معًا؛ فالسيدة بيرسي دريسكول -بعد إنجابها طفلها بأسبوع واحد- سلَّمت روحها لخالقها، وصارت روكسي مسؤولة عن الطفلين. أما السيد دريسكول -بعد وفاة زوجته العزيزة- فقد ترك روكسانا تهتم بالطفلين وتربيهما بطريقتها الخاصة؛ لأنه انخرط في أعماله وليس عنده الوقت الكافي للاهتمام بهذه التفاصيل.

وفي شهر فبراير ذاته، استقبلت بلدة داوسون لاندينغ مواطنًا جديدًا.

السيد دايفيد ويلسون، هو شاب بسيط تعود أصوله إلى اسكتلندا. جاء إلى هذه البلدة -والتي تبعد كثيرًا عن مسقط رأسه (في أحد المناطق الواقعة في ولاية نيويورك)- راجيًا أن يبدأ حياة عملية ناجحة ويكوِّن ثروة لا بأس بها.

يبلغ خمسة وعشرين عامًا، درس القانون وتخصص فيه، ودعم دراسته بدورة مخصصة في قانون بلاد الشرق؛ انتهى منها قبل عامين من وصوله إلى البلدة.

شاب بسيط ومريح، نُثِرَت بُقع فاتحة من النمش على بشرة وجهه الحساسة. شَعره بلون الرمل، له عينان زرقاوان ذكيتان، بهما لمعة محببة، ووميض لطيف ينمّ عن الصراحة والوضوح.

ولولا حظه العاثر، لأصبح محاميًا ناجحًا، لكنه أدلى بملاحظة غريبة جدًّا في اليوم الأول الذي قضاه في البلدة، تلك الملاحظة كانت بمثابة لعنة أصابته، وورطة لا يمكن التخلص منها!

فور أن وصل إلى البلدة تعرَّف على مجموعة من السُّكَّان، كان واقفًا يتبادل أطراف الحديث معهم حينما بدأ كلب -لا يرونه- في الصياح والزمجرة والعواء بشكل أزعج الجميع. لعنوا وجود هذا الكلب، وتمنوا أن يخرس أو يموت. هنا قال لهم الشاب ويلسون كأنه يفكّر بصوت عالٍ:

- أتمنَّى لو امتلكتُ نصف هذا الكلب.

سأله أحدهم باستغراب: "لماذا؟!".

ردّ ويلسون وقال: "وقتها سأقتل نصفي".

حدّقوا جميعًا في وجهه منتظرين تتمّة الكلام بفضول وقلق، يريدون أن يشرح قصده في هذا الكلام الغريب، لكنهم لم يجدوا أي تعبير على وجهه يوحي بأنه سيوضح أي شيء! لم يتمكنوا من فهمه ولا قراءة أفكاره؛ فابتعدوا عنه كأنه مخلوق غريب خارق للطبيعة. وفورًا تجمّعوا ليتناقشوا فيما حدث.

قال واحد منهم:

- يبدو أنه غبي.

وقال آخر:

- يقول إنه يتمنى لو امتلك نصف ذاك الكلب، الأبله. وفرضًا أن أمنيته تحققت، وصار نصفه كلبًا ونصفه رجُلًا، ثم قتل نصفه الكلب. يظن أنه سيعيش بعدها وهو نصف إنسان؟

- لا بد أنه فكر في ذلك، إلا إذا كان الإنسان الأكثر حماقة على وجه الأرض؛ لأنه إذا لم يعتقد ذلك، كان سيتمنى أن

يمتلك الكلب كله على الأقل! مع العلم أنه إذا قتل نصفه -النصف الذي يمثّل الكلب- ومات النصف الآخر نتيجة لذلك -النصف الذي يمثله هو-، سيكون مسؤولًا عن موت النصفين كما لو أنه قتلهما! أليس كذلك يا شباب؟

- نعم، هو كذلك.

- في رأيي أنه ليس لديه عقل من الأساس.

قال ثالثهم: "هو غريب الأطوار على أي حال".

وقال رابعهم: "فعلًا غريب".

- عقله هذا عبارة عن شحم، إذا كان عنده عقل.

وقال خامسهم: "نعم، إنه مغفل. هذا هو الوصف المناسب الذي يليق به. ربما تعترضون على كلامي أو تفكرون بطريقة مختلفة وتخالفونني الرأي، لكن هذا إحساسي تجاهه".

قال سادسهم: "أوافقكم الرأي يا سادة. إنه حمار بجدارة. نعم، بل مغفل وأحمق. وإذا لم يكن مغفلَ فعلًا، فاعتبروني فاشلًا في الحكم على الناس".

كان هذا النقاش هو ابتلاء ابتُلي به السيد ويلسون. بسرعة البرق انتشر كلامه في جميع أنحاء البلدة، وناقشه الجميع بجدية ضاربين كفًّا بكف. وفي غضون أسبوع فَقَد ويلسون اسمه الأول وحلّ محلّه (المغفل)، وأصبح هذا اللقب معروفًا للجميع، وملتصقًا به لا يفارقه.

جملة قالها في يومه الأول في البلدة جعلته مغفلَ، ولم يعد قادرًا على تنحية وإلغاء هذا اللقب أو حتّى تعديله.

ومع مرور الوقت، سرعان ما توقف هذا اللقب عن الإشارة إلى أي ضغينة أو إهانة أو أي مشاعر سلبية مقصودة تجاه الشاب. بل صار عبارة عن اسم حقيقي أخذ مكان اسمه الأصلي، وسيُنادى بهذا الاسم عشرين عامًا أُخرى.

الفصل الثاني

دريسكول يبيعُ عبيدَهُ

"آدم لم يخطئ، كان مجرد إنسان، وهذا يفسر ما حدث؛ لم يأكل التفاحة؛ لأنه يريد أن يأكلها، بل لأنها ممنوعة.
الخطأ الحقيقي حدث حين لم يُمنعْ من أكل الحيَّة[1]".

من مذكرات ويلسون المغفل

لم يكُن لدى ويلسون المغفل سوى مبلغ قليل من المال عندما وصل إلى البلدة؛ فاشترى منزلًا صغيرًا أقصى الغرب، على أطراف البلدة. ليس بينه وبين منزل دريسكول سوى مساحة عشبية خضراء، مُحاطَة بسياج شاحب اللون، يفصل بين ممتلكاتهما. كما استأجر ويلسون مكتبًا متواضعًا وصغيرًا في البلدة، وعلى واجهته علَّق لافتة صفيحية مكتوب عليها هذه الكلمات:

(دايفيد ويلسون للخدمات القانونية ونقل الملكية
وأعمال الرفع المساحي وغيرها)

---

(1) المقصود بالحية الشيطان، كما ذُكر في سفر تكوين 3/ 1: "وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ. فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: "أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟"". (المترجم).

لكن ما قاله فور وصوله إلى البلدة –عن نصف الكلب الذي يريد امتلاكه– دمّر فرصته في النجاح كمحام. لم يأتِ إليه أي زبائن. لهذا السبب، وبعد فترة قليلة من قدومه، نزعَ اللافتة واحتفظ بها في بيته بعد أن مسح ما كُتِب عليها فيما يتعلق بالقانون وبكونه محاميًا.

أمّا الآن؛ فيُقدِّم نفسه للناس على أنه محاسب خبير، ويرفع أيضًا مساحة الأراضي. بين الحين والآخر يجيئه مَن يطلب منه خدمة بخصوص رفع مساحة أحد الأراضي. وأحيانًا يجيئه تجّار يريدون ترتيب حساباتهم.

وبصبر يتميز به أهل اسكتلندا؛ لم ييأس ويلسون من العزم على تحسين سمعته ومحاولة ممارسة عمله في المجال القانوني.

مسكين هو! يمكنه أن يعرف مسبقًا أنّه ليحقق ذلك، سوف يستغرق الأمر منه وقتًا طويلًا.

وجد ويلسون أن لديه كثيرًا من أوقات الفراغ، لكنه لم يشعر أبدًا بالملل؛ فهو يهتم بكل فكرة تجول برأسه ويظل يتأمل معانيها ومعطياتها، بل ويهتم بكل ما هو جديد عليه، يقرأ ويبحث ويجرب بعض الأبحاث في بيته.

قراءة الكفّ واحدة من هواياته المفضلة التي شُغف بها. لم يخبر أحدًا أبدًا بسرّ حبّه هذه الهواية، وإذا سأله أحدهم عن ذلك، يجيبه بأنه لا يقرأ الكف إلا من أجل التسلية.

في الحقيقة يساوره شعور أن كل ما يثير انتباهه ويُعجبه، يتسبب له في سُخرية مَن حوله، ويحطّ أكثر من سمعته بين النَّاس! وهذا

يؤكد لهم أنهم كانوا على حقّ حين وصفوه بالمغفل. لهذا السبب يشعر بالحنق والغيظ كلما تواصل مع الناس أو تعامل معهم.

جَمْعُ بصمات الناس من الأشياء التي تستهويه أيضًا! لا تستهويه فقط، بل شغف بها! في جيب معطفه يحمل دومًا صندوقًا خشبيًّا صغيرًا مُقسَّمًا من الداخل إلى أجزاء مستطيلة. في كل جزء منهم توجد شريحة زجاجية رقيقة، طولها خمس بوصات وعرضها ثلاث بوصات. ألصَق تحت كل شريحة ورقة بيضاء صغيرة. يطلب ويلسون من الناس أن يمرروا أصابعهم في شَعرهم أولًا (وبذلك تتجمع فوق الأصابع طبقة من زيوت الشعر الطبيعية)، ثم بإبهامهم يضغطون على الشريحة الزجاجية، ثم يضغطون بقية الأصابع بنفس الطريقة على التوالي.

أما الورق الأبيض الذي يضعه أسفل كل شريحة، يستخدمه ليكتب عليه اسم صاحب البصمة. يكتُب مثلًا:

جون سميث- اليد اليمنى.

ثم يضيف التاريخ بالسنة والشهر، ومن بعدها يأخذ بصمات اليد اليُسرى لسميث، ويجعله يبصم بأصابعه على شريحة زجاجية أخرى، ويكتب اسمه والتاريخ وعبارة **(اليد اليُسرى)**، ثم يعيد الشرائط الزجاجية بحرص في أماكنها داخل الصندوق الصغير.

جمَّع ويلسون كل الصناديق الصغيرة - التي تحتوي على بصمات أهل البلدة- ووضعها في بيته في مكان خاص سمّاه (ركن السجلّات)، وفي العادة كان يتسلّى بدراسة هذه السجلات، يراجعها ويتفحصها حتى وقت متأخر من الليل، ولم يخبر أحدًا أبدًا بما يخبئه في هذا المكان.

وفي بعض الأحيان، ينسخ الخطوط الرقيقة المتداخلة لبصمات الأصبع على ورقة، ويقوم بتكبيرها باستخدام البانتوغراف[1] ليتمكن من فحص الخطوط المقوسة بشكل أكثر دقة.

في اليوم الأوَّل من شهر يوليو عام 1830، بعد ظهيرة أحد الأيام ذات الحرارة المرتفعة التي لا تُطاق، كان ويلسون يدرس كتبًا معقدة عن المحاسبة في غرفة مكتبه، التي تطلّ من الجهة الغربية على مساحة واسعة من الأراضي المهجورة الخالية من كل شيء كأنّها الصحراء. وبينما هو منهمك في عمله سمع صوتًا مُزعجًا في الخارج. حديث محتدم بين اثنين، ونبرة صوت تصل للصراخ؛ ففهم أنها مشاجرة، لا يمكن أن تكون مناقشة وديّة بأي حال من الأحوال.

"اعترفي يا روكسي. كيف جاء هذا الطفل؟"، قالها صوت يبدو قادمًا من بعيد.

"جاء مثلما جئت أنت يا جاسبر"، قالتها امرأة صوتها قريب جدًّا.

- أوه! ولكنني جئت بطريقة طبيعية لا أخجل منها. لا تجعليني آتي إليكِ يا روكسي.

- هيًّا تجرأ وتعال.. أيها الزنجي، يا شبيه القطط السوداء.

ذيَّلَت روكسي هذا الكلام بضحكة استهزاء رقيعة دون أن تضع اعتبارًا لأي شيء ولا أي أحد.

---

(1) أداة لنسخ أشياء قياسها محدد مسبقًا مثل الخرائط، وتتكون من أربعة أشرطة صلبة وخفيفة ومتصلة بشكل متوازي أضلاع. (المترجم).

- أنتِ مغرورة يا روكسي. هذه هي مشكلتكِ التي تعانين منها للأسف. أنتِ فعلًا مثيرة للشفقة، وهذه المرة سأنال منكِ.

- يا ربي، لقد خفتُ! نلتَ مني فعلًا.. أليس كذلك؟ غروري هذا يربكك ويقتلك يا جاسبر. لو كنت أحد عبيدي، لبعتك هناك في بلاد جنوب النهر. عندما أرى سيدك سأخبره بكل شيء وأشتكي إليه منك.

استمرت هذه الثرثرة العبثية بعض الوقت، حيث يتبارى الطرفان كأنهما في حرب. كل واحدٍ منهما يشعُر أنه الأذكى والأخف ظلًا.

لم يستطع ويلسون أن يركز في عمله بسبب صراخهما الذي لا ينقطع؛ فذهب وفتح النافذة ليراقب ما يحدث في الخارج. وجد جاسبر يقف بعيدًا في مكان شاغر وقحل، وهو شاب ممشوق القوام، يتمتع بجسد مثالي، وبشرة لها سواد الفحم. جالسٌ تحت أشعة الشمس الحارقة على عربة صغيرة لها عجلة واحدة وتُجَرّ باليد. يبدو للناظرين أنه في مناوبة عمله، لكنه في الحقيقة يأخذ استراحة، ويرتاح ساعة قبل أن يعود إلى عمله الشاق.

وتحت نافذة ويلسون وقفت روكسي، وفي يدها عربة أطفال مصنوعة يدويًا، وضعت في العربة طفليها الصغيرين. سيظن أي غريب من طريقة كلامها وأسلوبها أنها حتمًا من ذوي البشرة السوداء، لكنّها لم تكن كذلك.

لها مظهر مهيب كأنها ذات مكانة عالية الشأن. معروفة بمواقفها الجريئة، ولها حركات وإيماءات تنمّ عن الأصالة والنبل. بشرتها فاتحة جدًّا، ووجنتاها تتوهجان باللون الوردي الدال على تمام

الصحة والعافية. لها وجه ذو تقاسيم معبرة منحوت ببراعة فنان، ويُعبِّر تمامًا عن شخصيتها القويّة الفريدة. أما عيناها فبُنِّيَّتان، بهما لمعة جميلة وعذبة مثل الأنهار الصافية. ترتدي سترة ثقيلة مصنوعة من الفرو الناعم بلون عينيها.

لن يفهم الناظرون مِن الخارج حقيقة روكسي؛ لأنها ليست واضحة. فقد غطت شَعرها بمنديل قطني منقوش بخطوط ومربعات صغيرة، وتركب عربة مستقلة من ذوات الأربع عجلات وتجرها دابة. وعندما تكون مع مَن يماثلونها في الطبقة الاجتماعية، تحدّثهم بلهجة مزيج من الفخامة والسوقيَّة معًا! لكن الذي يتضح جليًّا لمَن لا يعرفها أنها امرأة متواضعة، بل متواضعة زيادة عن اللازم مقارنةً بالأسياد ذوي البشرة البيضاء!

رغم بياض بشرة روكسي، إلا أنها تُعتبر واحدة من العبيد! وذلك لأن أصولها تنحدر من سلالة العبيد، ووفقًا للقانون والعُرف في البلدة، روكسي أمَة زنجية، وابنها عبد مثلها، على الرغم من عينيه الزرقاوين وشَعره المموَّج. ابنها يشبه رفيقه السيد، لدرجة التطابق! حتى أن أبا الطفل الحُر لا يستطيع التمييز بينهما بدون مساعدة روكسي! ولا يستطيع أن يميز ابنه إلا من شكل ملابسه. فالطفل الحُر يرتدي سترةً من القطن الطبيعي النقي، وعلى عنقه قلادة به حجر من المرجان. أما الطفل العبد فيرتدي دائمًا قميصًا فضفاضًا من الكتان، يكاد يصل إلى ركبتيه، ولا يضع على رقبته قلادةً.

توماس بيكيت دريسكول هذا اسم الطفل الحُر، أما الآخر فاسمه فاليت دي تشامبر، هكذا دون تذييل الاسم بأي لقب. "لا ألقاب للعبيد" سمعت روكسي هذه العبارة ذات مرة في مكان ما، لكنها اعتبرت أن تشامبر هو لقب العائلة، لقَّبت به صغيرها، وسرعان ما عُرِفَت عائلة الطفل باسم عائلة تشامبر.

عرفها ويلسون فور أن رآها بالخارج. وعندما انتهت مشاحنتها مع الشاب، خرج ليأخذ بصمة أو بصمتين ليضمهما لسجلاته، بينما هرع جاسبر -الذي لاحظ أن وقت استراحته انتهى- ليستأنف عمله الشاق.

نظر ويلسون إلى الطفلين وتفقَّدهما سائلًا:

- كم عمرهما يا روكسي؟

- العمر نفسه يا سيدي، خمسة أشهر. وُلد الاثنان في الأول من فبراير.

- وسيمان. كم هما متشبهان!

كشفت ابتسامة روكسي عن صف من الأسنان اللؤلؤية البيضاء، وقالت بامتنان:

- بارك الله لك يا سيد ويلسون، وبارك روحك. هذا لطف كبير منك! تقولها كأنك لا تعرف أن أحدهما زنجي!

- كيف تفرقين بينهما يا روكسي عندما يخلعان ملابسهما؟!

ضحكت روكسي ضحكة مرحة عالية، وقالت:

- يمكنني طبعًا أن أفرق بينهما يا سيد ويلسون، وأراهن أن السيد بيرسي لا يستطيع أن يفرق بينهما مثلي.

تجاذبا أطراف الحديث وقتًا طويلًا، ثم مارس ويلسون شغفه وهوايته في تجميع بصمات الأصابع.

أخذ بصمات أصابع روكسي -اليدين اليُمنى واليُسرى- على شريحتين زجاجيتين، ثم كتب عليهما اسمها والتاريخ، وبعد ذلك أخذ بصمات الطفلين، وكذلك كتب عليهما الأسماء والتاريخ.

وفي الثالث من سبتمبر، أي بعد شهرين من ذلك اليوم، أخذ ويلسون بصمات هؤلاء الثلاثة مرة أخرى. يحب في العادة أن يأخذ بصمات الشخص نفسه مرتين أو ثلاثًا في فترات زمنية متفاوتة، ويفعل ذلك مع الأطفال بالذات؛ حتى يتابع بصماتهم على مدار السنوات.

وفي اليوم التالي -أي في الرابع من سبتمبر- حدث شيء أثار الرُّعب في قلب روكسانا. فَقَدَ السيد دريسكول مبلغًا آخر من المال، هو مبلغ بسيط، ولكنها ليست المرة الأولى التي يتعرض فيها السيد للسرقة، حدث ذلك من قبل ثلاث مرات. وقد نفد صبر السيد دريسكول.

وعلى الرغم من أنه اعتاد أن يُعامل الناس والحيوانات برأفة ورحمة وإنسانية، إلا أن عقابه كان شديدًا على مَن تُسوِّلُ له نفسه أن يرتكب أي خطأ. فكرة السرقة نفسها بالنسبة إليه منفرة وغير مُحتملة، ومن الواضح أن في منزله لصًّا. بالتأكيد لن يكون هذا اللص إلا واحدًا من عبيده. ويجب عليه أن يتخذ تدابيرَ صارمة ليمسك به.

دعا السيد دريسكول عبيده جميعًا؛ فوقفوا أمامه. كانوا ثلاثة غير روكسي؛ رجلًا وامرأةً وصبيًّا يبلغ من العمر اثني عشر عامًا. ولم يكونوا أقارب.

قال السيد دريسكول:

- لقد حذرتكم جميعًا من قبل. ما حدث مُخز وغير أخلاقي أبدًا. هذه المرة سألقنكم درسًا لن تنسوه. سأبيع اللص. مَن منكم سرق المال؟

ارتجفوا جميعًا من فرط الخوف؛ لأنهم يحظون في بيت السيد بحياة آدمية وبمنزل جميل، وبالطبع أي تغيير يحدث فهو تغيير إلى الأسوأ بالنسبة لهم. جميعهم أنكروا. لم يسرقوا أي شيءٍ، ولم يسرقوا المال بالتحديد! من الممكن أن يسرقوا بعض السُّكر، أو قطعة كعك، أو علبة عسل، وأشياء أخرى من هذا النوع. أشياء لن يفتقدها السيد بيرسي أو يمانع في أخذها، ولكن ليس المال، ولو سنتًا واحدًا منه.

أنكروا بشدة ومن أعماق قلوبهم، ولكن السيد دريسكول لم يتأثر. وأجاب عليهم بعبارة واحدة قالها بصرامة وحدَّة: "اسم اللص!".

شكَّت روكسانا فيهم جميعًا، لكنها لم تكن متأكدة. لم تَرَ شيئًا بعينيها. أرعبتها فكرة أنها -لمرات عديدة- كانت قريبة جدًّا من ارتكاب فعل السرقة. وقتها ستُعتبر مدانة مثلهم. لكنها دائمًا -وفي اللحظة الأخيرة- تتذكر نفسها وهي تتعبَّد في الكنيسة الميثودية الفخمة ذات الألوان المبهرة، وهذا الخاطر ينقذها من ارتكاب جريمة السرقة.

في ليلة من الليالي، بعد تعبدها في الكنيسة بيوم، وبعد أن شحنت روحها بجرعة عالية من الإيمان، وجدت حفنة من الدولارات أثناء تنظيفها لغرفة سيدها، وقد تركها هكذا دون انتباه على مكتبه، رأت روكسانا المال وهي تمسح المكتب من الغبار، وفكرت أن تأخذه. لكنها تحكمت في نفسها ونظرت إلى المال بامتعاضٍ شديدٍ، ليلتها صرخت في غضب وقالت: "ليتني لم أذهب إلى الكنيسة! يا ليت لو أجلها القس إلى غدٍ!"، وبعدها وضعت كتابًا فوق هذا المال كي لا يراه أحد، رغم ذلك عثر عليه أحد الخدم الذين يعملون في المطبخ وأخذه. كانت مقتنعة تمامًا أنها تقدّم مثل هذه التضحيات لأنها امرأة على خُلُق، ومتدينة بطبعها، ووازعها الديني قوي، نعم تعرف أن إيمانها يقل في بعض الأحيان. يقل أسبوع مثلًا أو أسبوعين على أقصى تقدير. لكنها سرعان ما تعود إلى رشدها وتراجع نفسها مرة أخرى.

وكلما وجدت دولارًا أو دولارين في مكان مكشوف للجميع تعرف أن هناك مَن سيجيء ويسرقه. وأحيانًا تكون على علم بهوية السارق.

هل كانت سيئة؟ هل كانت أسوأ من أبناء وبنات جنسها؟ لا. بل أمثالها وجدوا أنفسهم في مسرح الحياة فجأةً، يمثلون عرضًا غير عادل! لذلك لم يكن عندهم مانع أن يستفيدوا من عدوّهم، استفادة بسيطة وضئيلة، ولكن من المستحيل أن يسرقوا شيئًا كبيرًا.

كلما سنحت لهم الفرصة، أخذوا بعض الأشياء من مؤن المخزن. أشياء مثل: كشتبان[1] نحاسي، شمعة، قطعة مطاطية صغيرة يغرسون

---

(1) قمع نحاسي يغطي أصبع الخياط ليقيه من وخز الإبر. (المترجم).

فيها الإبر، ملعقة فضية، ورقة نقدية قديمة لدولار واحد أو قطع ملابس صغيرة لا يستخدمها أحد، وأي ممتلكات أخرى لا قيمة لها.

لا يعتبرون هذه السرقات الصغيرة جريمة، حتى أنهم يذهبون إلى الكنيسة ويتلون التراتيل بأعلى صوت ويصلون بأنقى وأصفى روح، وسرقاتهم هذه في جيوبهم!

في الليالي الباردة، يسرق الزنجي من هؤلاء دجاجة صغيرة من مئات الدجاجات في المزرعة ويلقيها في حقيبته نهاية اليوم، ثم يسخّن لوحًا خشبيًّا ويشويها عليه، ومن ثَمَّ يأكلها متلذِّذًا.

واثقًا تمامًا أنه عندما أخذ هذه الدجاجة التافهة من الرجل الذي سلبه كنزًا لا يقدر بثمن -وهو حريته- لم يرتكب أي خطيئة يحاسبه الله عليها يوم الحساب الكبير.

- اسم اللص!

كررها السيد دريسكول للمرة الرابعة، باللهجة الحاسمة والقاسية ذاتها. ثم أضاف بفظاظة:

"معكم دقيقة واحدة". أخرج ساعته من جيبه، ونظر فيها. "إذا لم تعترفوا خلال هذا الوقت، لن أكتفي ببيعكم فقط، ولكن سأبيعكم في بلاد جنوب النهر".

هذا التهديد بمثابة الجحيم بالنسبة لهم. لا يشك زنجي واحد من زنوج ميسوري في مدى فظاعة أن يُباع في بلاد جنوب النهر!

شحب وجه روكسي وشعرت بالدوار. ترنَّح جسدها من شدّة الخوف. بينما جثا الآخرون على ركبهم كأن هناك مَن يُوجِّه إليهم

فوّهة بندقية ويهددهم بأنه سيضربهم بالرصاص، بكوا متوسّلين وسالت الدموع من أعينهم، ارتفعت أياديهم بالدعاء. أجابوا ثلاثتهم في اللحظة ذاتها:

- أنا مَن فعلت ذلك.
- أنا مَن فعلت ذلك.
- أنا مَن فعلت ذلك.
- ارحمنا أيها السيد. ارحم عبيدك الزنوج.

"ممتاز" قالها السيد، ثم أعاد ساعته إلى جيبه، واستطرد قائلًا:

- سأبيعكم هنا، رغم أنكم لا تستحقون ذلك، بل تستحقون أن أبيعكم في بلاد جنوب النهر.

أبدى الجناة امتنانهم وقبّلوا قدمَي السيد، وأخبروه أنهم لن ينسوا له هذا المعروف طوال عمرهم، ووصفوه بأنه رجل رحيم وصالح، وقالوا إنهم لن يتوقفوا عن الصلاة والدعاء من أجله ما داموا على قيد الحياة. وكانوا مخلصين في هذا الدعاء؛ فقد اعتبروه مثل الإله الذي مد يده الجبارة وأنقذهم من العذاب في نار جهنم.

هو أيضًا يعتبر في قرارة نفسه أنه فعل شيئًا نبيلًا وكريمًا، وشعر بالسعادة تغمره من أجل هذا التصرف الشهم والنبيل الذي فعله معهم. وفي تلك الليلة، كتب عن هذا الحادث في يومياته؛ حتى إذا كبر ابنه بعد سنوات، يقرؤه ويتعلم منه الوداعة والرحمة والإنسانية.

الفصل الثَّالث

روكسي تُخادِع بذكاء!

"كل مَن يعشْ عُمرًا مَديدًا يكفي لمعرفة طبيعة الحياة وماهيَّتها، يعرفْ كم نحنُ ممتنّون لأول مُضَجٍّ من جنسنا؛ آدم الذي أحضر الموت إلى العالم!".

من مذكرات ويلسون المغفل

نام بيرسي نومَة هنيئة، باله مرتاح، شاعرًا بالفخر من تصرفه النبيل مع عبيده ليلة أمس؛ رحمهم من عقاب عسير وغير مُحتمَل، وهو بيعهم في بلاد جنوب النهر. أما روكسي فلم تذُق طعم النوم. سيطرت عليها فكرة مُرعبة أثارت في قلبها الذِّعر والخوف؛ مِن الممكن أن يُباع ابنها بسهولة عندما يكبر في بلاد جنوب النهر. وإذا ما غفت عيناها لحظةً، تفيق فجأةً مفزوعة وتركض إلى مهد ابنها لترى هل لا يزال نائمًا في مكانه. ثم تضع يدها على قلبها الملتاع وتحمل ابنها من مهده وتضمه إلى صدرها، ثم تغرقه بالقُبلات المحمومة باكيةً متأوِّهةً.

- لا يجب أن يفعلوا بك هذا.. أُفضِّل أن أقتلك بيدي يا حبيبي على أن أسمح لهُم بفعل هذا!

وفي إحدى هذه النوبات الجنونية، وبينما تُعيد طفلها إلى مهده، تقلَّب الطفل الآخر في نومه مما أثار انتباهها؛ فالتفتت إليه. ذهبت تنظُر إليه وتتأمَّله برهة من الزمن وهي تناجي نفسها. "أعرف أنك لم ترتكب أي خطأ أيها الطفل، ولكن الله كان كريمًا معك، على عكس ابني. لماذا لم يكن كريمًا مع ابني أنا أيضًا؟ لا يمكن لأحد أن يبيعك في بلاد جنوب النهر. تعرف؟ أنا أكرهك أيها الطفل. نحنُ الزنوج لا يشعُر بنا أحد، أكرهك وأتمنى أني قتلتك!".

سكتت روكسي لحظة تفكر، ثم انفجرت في نوبة بكاء مرة أخرى. واستدارت بعيدًا عن الطفل، ووقفت تنظر إلى ابنها منتحبةً في ألم:

- لا.. يجب أن أقتل طفلي أنا. لا يوجد حل آخر. ماذا سأستفيد لو قتلتك أنت؟ هذا لن ينقذ طفلي من خطر بيعه في بلاد جنوب النهر. آه.. يجب أن أقتلك يا بُنيّ؛ لأنقذك.

ثم حملت طفلها وضمّته إلى حضنها، وبلطف وهدوء بدأت تلف يدها على رقبته وتخنقه!

- يجب أن أقتلك يا حبيبي. ولكن كيف أفعلها؟ ماما لا تنوي أن تهجرك. لا تبكِ يا حبيبي. ماما ستجيء معك، ستقتل نفسها أيضًا. تعال معي يا حبيبي.. تعال لنقفز أنا وأنت في النهر، وبعدها كل هذه المشاكل البشعة ستختفي. في العالم الآخر لا يمكن لأحد أن يبيع الزنوج.

توجهت إلى الباب وهي تهدهد طفلها، تغني له وتحاول تهدئته، ثم توقفت فجأةً عندما وقعت عيناها على فستانها الجديد الذي سترتديه الأحد القادم. وهو عبارة عن ثوب مصنوع من قماش رخيص، به كثير من الألوان المبهرجة المتداخلة، كوَّنَت رسومات رائعة. ملَّست على الثوب محزونة وقالت لنفسها:

"لم أرتدِ هذا الفستان بعد! وهو فعلًا جميل!"، ثم أومأت برأسها كأنها تستجيب لفكرة مثيرة خطرت على بالها.

- لا.. لا أريد أن يراني الجميع في هذا الموقف السخيف وأصير فُرجَة لمن راح وجاء. لا أريد أن أموت بملابسي القديمة تلك.

وضعت الطفل جانبًا، وبدأت في عملية التغيير. نظرت لانعكاس صورتها في زجاج النافذة، وشعرت كم هي جميلة وبهيَّة. وقررت أن يكون موتها مثاليًّا. خلعت منديل رأسها، وارتدت فستانها الجديد، وشعرت كما لو أنها ترتدي مثلما يرتدي الأسياد ذو البشرة البيضاء.

ربطت أطراف ضفائرها بشرائط خشنة، ورشَّت على ملابسها رذاذًا برائحة الزهور الصناعية، وبلمسةٍ أخيرةٍ وضعت على كتفيها شالًا أحمر ناعمًا متوهِّج اللون. وشعرت أنها الآن جاهزة للموت ولنزول القبر.

حملت روكسي طفلها مرة أخرى، لكن عندما وقعت عيناها على ثوبه القديم المهترئ، المصنوع من الكتان الرمادي الباهت، ولاحظت التناقض الفج بين فقره المدقع وجمالها بفستانها البهيّ،

اشتعل في قلبها ثوران بركانيٌّ يشبه الجحيم. تأججت بداخلها مشاعر الأمومة، شاعرةً بالعار والخجل من نفسها.

- لا يا حبيبي.. لا يمكن لماما أن تعاملك بهذه الطريقة. ستحترمك الملائكة تمامًا مثلما يحترمون أمك. لن يرفعوا أيديهم ليخبئوا بها أعينهم ويقولوا أمام الأنبياء باستياء: ملابس هذا الطفل غير ملائمة لهذا المكان الجميل.

خلعت روكسي عن الطفل ملابسه المهترئة القديمة، وألبست هذا المخلوق الصغير العاري أحد أثواب توماس بيكيت الطويلة بلونها الثلجي الهادئ ونقوشها المزركشة الجميلة.

- حسنًا.. الآن أنت أنيق وملابسك ملائمة للمكان.

وضعت الطفل على الكرسي، وصارت تنظر إليه وتتأمله؛ وفورًا بدأت عيناها في الاتساع وكستهما لمعة دهشة وإعجاب.

صفقت بيديها وقالت صارخة:

- لم أكن أعرف أنك جميل لهذه الدرجة! السيد توم ليس أجمل منك، ولو بمقدار ضئيل حتّى!

خطت خطوة للأمام ورمت نظرة على الطفل الآخر، ثم عادت وألقت نظرة على طفلها، وبعدها أعادت الكرَّة من جديد، وظلّت تنظر إلى الطفل الذي سيَرث هذا المنزل كله. ومض لمعان غريب في عينيها لحظة، ثم غاصت في تفكير عميق. وعندما انتهت من هذا التفكير، شعرت بنشوة عارمة. قالت:

- عندما كنت أحممهما أمس في حوض الاستحمام، سألني أبوه: مَن منهما ابني؟!

بدأت تروح وتجيء متفكّرة كأنها في حلم. ثم خلعت عن توماس بيكيت ملابسه، وجردته من كلّ شيء، ثم ألبسته قميص ابنها الكتاني القديم. أخذت أيضًا قلادته التي تدلى منها حجر من المرجان، ووضعتها في رقبة ابنها، ثم وضعت الطفلين جنبًا إلى جنب. وبعد فحص جدّي ودقيق قالت لنفسها:

والآن.. مَن يُصدّق أن تصنع الملابس هذا الفرق كلَّهُ في الإنسان؟ أقطع ذراعي لو استطاع أحد أن يعرف مَن توم ومَن ابني الآن!

وضعت روكسي ابنها في مهد توم المُريح والأنيق وهي تحدّثه:

"أنت صغير يا سيد توم على هذا. ويجب عليَّ أن أتدرب جيدًا وأتذكر دائمًا أن أناديك باسمك الجديد يا حبيبي، وإلا فيمكن أن يزلّ لساني فتحدث مشكلة نحن في غنى عنها. والآن نَم ولا تخشَ شيئًا يا سيد توم. آه، حمدًا لله في عُلاه. لقد أنقذتك. لن يجرؤ أي مخلوق الآن أن يبيعك في بلاد جنوب النهر".

ثم وضعت وريث المنزل في مَهد ابنها المصنوع بتقشُّف من الصنوبر غير المصبوغ، وقالت وهي تتأمل وجهه الملائكي الغارق في السبات:

- حزينة من أجلك يا عزيزي، أنا آسفة. الله يعلم كم أنا حزينة! ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ أنت يا عزيزي عندما تكبر

كنت ستبيعه لأي أحد، وسيذهب هو ليشقى في بلاد جنوب النهر، وأنا لا يمكنني السماح بذلك أبدًا.

ألقت نفسها على سريرها، واستغرقت مرة أخرى في تفكير عميق. وفجأةً انتصبت واقفة، جاءها خاطر مُطمئن يهدّئ مِن ثوران عقلها المشغول:

- هذه ليست جريمة. الأسياد ذوو البشرة البيضاء فعلوها من قبل. وليست خطيئة! نعم، كان هؤلاء الناس ذوي قيمة كبيرة في المجتمع، منهم ملوك!

بدأت تسرح بتفكيرها محاولة تذكُّر التفاصيل التي صارت الآن في جزء معتَم من ذاكرتها. تريد أن تتذكر بعض الحكايات التي سمعتها من وقت لآخر. وقالت أخيرًا:

- فهمت الآن، تذكرت، كان هناك ذاك الواعظ الزنجي، قبل سنوات من الآن، عندما جاء إلى هنا من إلينوي، ألقى موعظته علينا ذات يوم في كنيسة الزنوج، قال إن لا أحد يمكنه إنقاذ نفسه بنفسه، ولا يمكن لإيماننا أن ينقذنا! ولا أعمالنا، ولا أي شيء. الإنقاذ نعمة مجانية من الله. وهذه هي الطريقة الوحيدة ليتم إنقاذ أحد في هذه الدنيا، هي نعمة لا تأتي إلا عن طريق الرب؛ يمكنه أن يعطيها لأي شخص هو راضٍ عنه، ولا يهم أكان قدِّيسًا أم عاصيًا! بل يختار الرب من الناس مَن يحكم عليه بالسعادة للأبد، ويترك الآخر في الجحيم يحترق مع الشيطان. وأعطانا الواعظ مثالًا على هذا الأمر، وقال إنه ذات يوم من الأيام،

وفي زمن بعيد في إنجلترا، تركت الملكة ابنها نائمًا وراحت تنشغل بأمور أخرى، وقتها جاءت خادمة من الزنوج ذوي البشرة التي يغلب عليها اللون الأبيض، ورأت الطفل نائمًا؛ فأخذت ابنها ووضعته بالقُرب من ابن الملكة، تركت طفلها ينام مكانه، وأخذت الطفل الآخر ووضعته في مكان الخدم الزنوج، ولم يكتشف أحد ما حدث أبدًا. وابنها صار الملك، وعندما حان وقت تسوية الأملاك، باع ابن الملكة الحقيقي في بلاد جنوب النهر. آه نعم. لقد قالها الواعظ بنفسه، وهي ليست خطيئة؛ لأن الأسياد ذوي البشرة البيضاء فعلوا هذا من قبل، وهم ليسوا أناسًا عاديين، إنهم من البيت المَلَكي! وهم أناس ذوو شأن كبير في البلد. آه، الحمد لله أنني تذكرت ذلك".

شعرت روكسي بالخفة والسعادة، وظلَّت بجوار مهد ابنها تتدرَّب على نطق اسمه الجديد. تربت على ظهره بخفَّة وتقول: "نومًا هنيئًا يا سيد توم".

ثم تربت على ظهر توم الحقيقي وتقول بخشونة وصرامة: "نَم يا تشامبر. هل تريدني أن أجلب لك أي شيء؟".

وعندما مرّ وقت ليس بقليل وهي تتدرب، فوجئت بطريقة كلامها تتغيَّر تلقائيًا مع الطفل الآخر؛ فبدلًا من توقيرها القديم له ومعاملته بحذر، صارت تعامله الآن وتُحدّثه كما لو أنها تحدث عبدًا من العبيد. حنان الأم الفيَّاض وطيبتها المُتدفِّقة توجَّها كُليًا إلى الوريث المزيف لهذا المنزل، وهو ابنها الحقيقي بالتأكيد. تفعل هذا

بسهولة وسلاسة أذهلتها. في بعض الأحيان تأخذ فترة للراحة، ثم تعود وتتدرب من جديدٍ، تفكر وتدرس الخطة من جميع النواحي.

- اليوم سيبيعون كل الزنوج الذين عاشوا هنا لأنهم سرقوا المال، وبالتالي سيشترون زنوجًا آخرين بدلًا منهم. الزنوج الجُدد لم يروا الطفلين من قبل ولا يعرفونهما. هذا في مصلحتي. وعندما آخذ الطفلين ليشمّا هواءً نظيفًا في الخارج، وفي أي وقت أتجول فيه معهما في أرجاء البيت، سأملأ أفواههما بالمربى؛ لينشغل كلُّ مَن يراهما بالبقع الحمراء حول شفاههما؛ لن ينتبهوا أنني بدَّلتهما معًا. نعم، وسأظلّ أفعل ذلك ولو لسنة كاملة؛ حتى أصير في أمان. لا يوجد سوى رجل واحد أخاف منه، وهو ويلسون المغفل. يطلقون عليه لقب مغفل، لكنني أشعرُ أنني أنا المغفلة أمام هذا الرجل. إنه أذكى رجل في البلدة. ذكاؤه لا يفرق شيئًا عن ذكاء القاضي دريسكول، وربما هاوارد أيضًا. لطالما شعرتُ بالقلق منه ومن تلك الشرائح الزجاجية التي يحملها معه دائمًا. أعتقد أنه ساحر. ولكن لا يهم. إذا طلب في يوم من الأيام أن يطبع أصابع الطفلين على هذا الزجاج الذي معه، ولم يلاحظ أنهما قد تبدَّلا، وقتها سأعرف أنني في أمان تام، وأن الخطة نجحت. ولكن يجب أن أجلب حدوة حصان لأطرد عني وعن طفلي أعماله السحرية والدجل الذي يمارسه.

لم يكُن هناك أي خطر على روكسي من الزنوج الجُدد بالطبع. ولم ينتبه السيد لحدوث أي شيء غريب؛ لأنه كان مشغولًا جدًّا بإحدى صفقاته. مشروع جديد صب جلّ اهتمامه فيه، يعرف أنه يخوض مجازفة خطيرة تتطلب كل مجهوده وانتباهه. عقله انشغل بالعمل لدرجة أنه بالكاد نظر للطفلين نظرة سريعة عندما رآهما مصادفةَ.

وكل ما يفعله روكسي هو إضحاك الطفلين في حضوره. فيصير وجهاهما كرتين بهما تجويفان فمويَّان يكشفان عن لثتين حمراوين. وعندما يكفان عن الضحك ويعود كل منهما إلى طبيعته يكون السيد قد انصرف.

وفي غضون أيام قليلة، سافر السيد بيرسي مع أخوه القاضي؛ لأن مصير صفقة الأراضي التي يعمل عليها لم يكن واضحًا بعد أن تعقدت الأمور فجأةً ووصلت للدعاوى القضائية! اضطر بيرسي أن يتابع العمل بنفسه وسافر الأخوان سبعة أسابيع.

وقبل أن يعودا، زارت روكسي ويلسون، والنتيجة كانت في صالحها، مما جعلها راضية ومرتاحة البال. يومها أخذ ويلسون بصمات أصابع الطفلين، وكتب عليهما أسماءهما، كما سجَّل تاريخ الأول من أكتوبر على الورقتين تحتهما. ثم وضع هذه السجلات بعيدًا بعناية، وأكمل حديثه مع روكسي، التي أتلف القلق أعصابها، وسألت نفسها لماذا لم يُبدِ ويلسون إعجابه بجمال الطفلين وسرعة نموهما منذ رآهما آخر مرة قبل شهر؟ ولماذا طبع أصابعهما على زجاجه الغريب هذا مرة أخرى؟ ولكي يرضيها، أخذ ويلسون يمدح جمال الطفلين، ويبدي اندهاشه من نموهما السريع وتحسن

صحتهما. ولأن الطفلين كانا على طبيعتيهما، بدون أن تملأ روكسي فميهما بالمربى، ارتجف جسدها من الخوف طوال المقابلة، خشية أن يكشف ويلسون أمرها في أي لحظة وينتبه لتبدُّل الولدين، لكنه لم ينتبه أبدًا لذلك؛ فعادت للبيت مبتهجة وقد انزاح حمل كبير من فوق صدرها. ودَّعت أي قلق بشأن هذا الأمر كله. لم يكتشف أحدٌ أي شيء ونجحت الخدعة. أخرجت كل الأفكار المخيفة من عقلها منذ هذه اللحظة، وإلى الأبد.

الفصل الرَّابع
مراحِل التَحوُّل

"لآدم وحواء مَزايا عديدة؛ المَزِيَّة الأهم هي نجاتهما من مرحلة التسنين!".

من مذكرات ويلسون المغفل

"ستظلّ هذه المُشكلة الخاصة بالعناية الإلهية موجودةً؛ فدائمًا هُناك حيرة بشأن اختيار الطَّرَف الأَوْلَى بها. من بين الأطفال والدببة والنبيّ، حصلت الدببة على النصيب الأكبر من العناية الإلهية؛ رغم هجومها على الأطفال!"[1].

من مذكرات ويلسون المغفل

---

(1) يشير الكاتب هُنا إلى قصة النبي أليشع والتي جاءت في سِفر الملوك الثاني: "وَفِيمَا هُوَ صَاعِدٌ فِي الطَّرِيقِ إِذَا بِصِبْيَانٍ صِغَارٍ خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَسَخِرُوا مِنْهُ وَقَالُوا لَهُ اصْعَدْ يَا أَقْرَعُ اصْعَدْ يَا أَقْرَعُ. فَالْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ، فَخَرَجَتْ دُبَّتَانِ مِنَ الْوَعْرِ وَافْتَرَسَتَا مِنْهُمُ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَلَدًا" (الملوك الثاني2: 23-25).

يُقال في تفسير هذا النص أن الصبيان هُنا لم يكونوا أطفالًا بل شبابًا في سن الحداثة، وقد تجمعوا بغرض السخرية من نبي الله؛ فغضب النبي الذي كان مُعرَّضًا ودعوته للخطر، وتمنى أن يقلل الله من شأنهم كما سخروا منه وقللوا من شأنه؛ فأرسل الله عليهم دبتين افترستهم انتقامًا لنبيه ودرسًا لمن يستهزئ بتعاليم الله وأنبياؤه. (المترجم).

يجب أن ينصاع التاريخ لإرادة روكسانا من الآن فصاعدًا بعدما حققت التغيير الذي أرادته، وأن يطلق على الوريث الحقيقي اسم تشامبر، وعلى العبد الصغير المُغتصِب اسم سيّده توماس بيكيت، والذي اعتاد المحيطون به أن يختصروا اسمه إلى توم ليسهل عليهم نطقه.

منذ البداية، كان توم طفلًا عَكِر المزاج عصبيًّا، يبكي بلا سبب، وينساق خلف مزاجه الشيطاني الخبيث دون سابق إنذار. دائمًا يُزعِج بصراخه جميع مَن في البيت، وفورًا يتحول هذا الصراخ إلى نوبة جنونية تشبه الزوابع في شدتها. وإذا ما حاول أحد أن يسكته أو يهدِّئه، يثور أكثر، ويصل غضبه إلى الذروة. كان هذا حاله عندما بدأ مرحلة التسنين!

يستنزف كل طاقته في الصراخ حتى تتضخَّم رئتاه ويختنق، وقتها يتشنج جسده الصغير، يركل ويضرب بقدميه ويديه في الهواء، يريد أن يلتقط أنفاسه. يتصلَّب فمه العريض وتتحول شفتاه إلى لون أزرق شاحِب، وإذا فتح فمه يظهر منه سنٌّ واحدة مغروسة في اللثة السفلية الملتهبة شديدة الاحمرار. يتوقف عن الحركة تمامًا حتى ليظن المرء أن مكروهًا أصابه، أو أنه فقد الوعي، ثم عندها تجيء الممرضة بسرعة وتنثر على وجهه بعض قطرات الماء.. فلا تمرّ دقيقة قبل أن تبدأ سيمفونية الصراخ مرة أخرى!

يخدع الطفل توم كلَّ مَن يقترب منه بتودد، إذ يُفاجئه بضربة غير متوقعة بلعبة في يده، أو يخربشه بأظافره.

يظلّ يبكي من أجل شربة الماء إذا عطش، وعندما يحضرون إليه كأس ماء، يرميها أرضًا، ثم يرمي كأسًا ثانية وثالثة، ويصرخ من أجل إحضار مزيدٍ من الكؤوس! منغمسًا كان في نزواته، مهما كانت مزعجة ومثيرة للسخط. سمحوا له بأكل ما شاء من طعام، حتى تلك الأطعمة التي مِن شأنها أن تسبب له عُسر هضم وآلامًا في المعدة.

عندما كبر قليلًا وبدأ يزحف وينطق بعض الحروف والكلمات غير الكاملة، وصار يفهم إلى أين تتجه يداه، تحوَّل كائنًا غير محتمل أكثر من قبل. لا تذوق روكسي طعم الراحة طالما هو مستيقظ. كلما رأى أحدًا ناداه وطلب منه أيَّ شيء أمامه، يقول بمنتهى البساطة "أُبيده"[1]، ويَعتبر مَن حوله أن هذا أمر، فرمان يجب عليهم تنفيذه، وعندما يجلبون إليه طلبه، يجن جنونه ويقذف بهذا الشيء بعيدًا، ويقول "لا أبيده، لا أبيده".

سريعًا يُبعدون عنه ما أغضبه على أمل أن يهدأ؛ لكنه يطلق صيحات محمومة قائلًا في غضب: "أبيده.. أبيده".

وكان على روكسي أن تهرع لتجلب إليه هذا الشيء مرة أخرى قبل أن يدخل في نوبة جديدة من التشنجات والنحيب، كأنه ينوي مقدَّمًا الانغماس في هذه النوبات الجنونية.

عشق توم اللعب بملاعق الألمونيا الكبيرة المُخصصة للطبخ، وازداد شغفه بهذه الملاعق عندما منعه أبوه من اللعب بها؛ خوفَ أن يؤذي نفسه أو يكسر زجاج النوافذ والأثاث. وفور أن تدير روكسي

---

(1) يقصد "أُريدُهُ" (المترجم).

ظهرها إليه مُنشغلة بأحد أمور البيت أو المطبخ، يزحف إلى حيثُ الملاعق، ويقول: "أجبني"[1]، وينظر بطرف عينيه ليرى إذا كانت روكسي منتبهة لما سيفعله أم لا، ثم يقول: "أييده"، وينظر إليها مرة ثانية ويقول: "أصلت أليها"[2]، ثم يعود ويسترق نظرة خبيثة مرة أخرى لروكسي ويقول: "خذها"، وفجأةً يسمع أهل البيت صوت تحطم! يليه صوت صراخ، حتّى قطّة البيت كانت -عندما تسمع هذا الصوت- تقف على ثلاثة أرجل منتفشة الفرو ثم تقفز في فزع. تترك روكسي كل ما في يدها وتركض نحو الولد؛ لتكتشف أنه قذف الملعقة الألمونيا على إحدى النوافذ أو المصابيح، يتصدَّع الزجاج أو ينتثر في الأرجاء متهشِّمًا.

أخذ توم كل الدلال والهناء، ولم يأخذ تشامبر شيئًا. أكل توم مُختلف أنواع الطعام الشهي، ولم يتناول تشامبر سوى الهريسة والحليب، واللبن الرائب غير المُحلَّى. وبسبب هذه العادات في تناول الطعام، أصبح توم طفلًا ضعيفًا يمرض بسهولة، على عكس تشامبر الذي اكتسب مناعة وصحة قويتين. كان توم متعجرفًا وفظًا كما وصفته روكسي، بينما كان تشامبر طفلًا وديعًا سهل الانقياد.

ومع كلّ تعبها وشقائها بسبب العمل اليومي الذي لا ينتهي، كانت روكسي أُمًّا شغوفة بابنها لدرجة الحماقة! بَنَت في عقلها قصورًا من الوهم والخيالات وعاشت فيها.

---

(1) يقصد "تُعجبني". (المترجم).

(2) يقصد "حصلتُ عليها". (المترجم).

مع مرور الوقت، ومِن أجل ضرورة إتقان دورها لئلا تنكشف، صارت تتصرّف بطريقة توحي للجميع أن توم هو سيّدها، حتّى أصبح بالتدريج سيّدها فعلًا! تصرفاتها هذه صارت عادة تلقائية تصدر عنها بلا وعي أو تخطيط. والنتيجة أنها كلما تفننت في خداع كلٍ مَن حولها، تسرَّب هذا الخداع إلى روحها وسكن أعماق قلبها، تمكن منها لدرجة أنه صار خداعًا لذاتها أيضًا. التبجيل الوهمي تحوَّل تقديسًا حقيقيًّا. الإكبار والتكريم المزيفان صارا واقعيين ومفروضين. اتسع الصدع الذي حال بينها وبين الحقيقة، حتى صار مثل خندق كبير واسع وهاوية سحيقة. على أحد جانبَي هذه الهاوية وقفت روكسي، تلك المغفلة التي خدعت نفسها، وعلى الجانب الآخر وقف ابنها، الذي لم يعُد عبدًا، بل سيَّدَها الذي تُبجِّلَه وتخشاه. صار عزيزَها وسيّدَها وإلهَها في الوقت ذاته، في عبادته نست مَن تكون، ومَن صار هو!

اعتاد توم في طفولته أن يضرب تشامبر ويخربشه بأظافره. وتعلَّم الأخير مُبكِّرًا أن يتحمَّل الأذى بوداعة، وأن سِرَّ النَّجاة في الخنوع. المرّات القليلة التي حاوَل فيها مقاومة الاضطهاد الذي يعانيه، وردَّ الإساءة بالإساءة والعنف بالعنف، انقلبت الأمور ضده، كلَّفه ذلك عناءً كبيرًا وعقابًا عسيرًا من الأسياد. أما روكسي إذا غضبت منه؛ فأقصى ما تفعله لتوبّخه هو أن تقرص أذنيه؛ كي لا ينسى أنه عبد وأن توم سيّده الشاب. لم تكُن المشكلة مع روكسي بقدر ما كانت مع السيد بيرسي دريسكول، الذي صرخ في وجه تشامبر ذات مرَّة، تضخَّمَت عروق رقبته وفي غضب قال: إنه وتحت أي ضغط أو

استفزاز يحدث من قِبَل سيّده الصغير توم، مِن غير المسموح له أن يمد يده ليضربه. رغم ذلك تجاوز تشامبر حدوده ثلاث مرات، فكانت النتيجة ثلاث مرات من الضرب المبرح مِن الرجل الذي من المفترض أنه أبوه الحقيقي، ولا يعرف عن ذلك شيئًا!

من وقتها صار يتقبل ضرب توم وقسوته بكل تواضع وخنوع، ولم يجرِّب المقاومة مرة أخرى.

أما خارج المنزل، فاعتاد الصبيَّان أن يقضيا وقتهما معًا طوال فترة طفولتهما. كان تشامبر قويًّا -بالنسبة لسنّه- ومقاتلًا جيدًا. أما كونه قويًّا فهذا يرجع لنوعية غذائه الخشن المتقشّف؛ ولأنه يعمل بجدّ في المنزل، وأما كونه مقاتلًا جيّدًا فيعود الفضل في هذا إلى توم الذي لقّنه كثيرًا من التدريب. كان توم يأمر تشامبر بضرب الأولاد من الأسياد ذوي البشرة البيضاء الذين يكرههم ويخافهم، واعتبر أن تشامبر حارسه الشخصي، يرافقه دومًا من المدرسة وإليها، حاضرًا معه طول الوقت في الملعب أثناء العطلة؛ ليحمي متعلّقاته وحاجياته. سُمعته بكونه جبانًا معروفة للجميع، لدرجة أنه يرتدي ملابس تشامبر ليمشي في سلام متجنّبًا سخرية الجميع منه، مثل السير كاي حين يرتدي درع لانشيلوت[1].

(1) شخصية من الشخصيات الموجودة في أسطورة آرثر؛ اشتهر بسلوكه السيئ وتنمره على غيره، وقدراته الخارقة مثل عدم التنفس أيامًا عدة، عدم النوم لفترة طويلة، وإشعاع حرارة حارقة من يديه! كان واحدًا من محاربي آرثر الأوائل. (المترجم).

كان تشامبر حرّيفًا في الألعاب التي تتطلَّب مهارة وذكاء. يأخذه توم ليراهنوا في لعبة البلي[1] ثم يأخذ منه كل ما ربحه.

وعندما يحلّ فصل الشتاء، يرتدي تشامبر ملابس توم القديمة البالية، مع قفازات باللون الأحمر الصارخ، وحذاء ذا جلد ذائب وبالٍ، وبنطالًا ذا قماش مهترئ عند الركبتين والمؤخرة. بهذه الملابس يرافق توم لأعلى التلّ، حيث يجهّز له الزلاجة ويحرص أن تكون دافئة. وبناءً على أوامر توم وتوجيهاته، يصنع له رجُل الثلج، يأخذ منه توم حفنة ويكوّرها في يده ويقذفها على كل مَن لا يُعجبه من المارَّة.

عندما ينتهي توم من التزلّج، يجرّ تشامبر الزلاجة حتّى يصل إلى النهر ويربطها بجانبه، ولكنه أبدًا لا يركبها بنفسه، ثم يعود ويجرّها لأعلى التل إذا طلبها توم مرة أخرى. لم يتجرأ ولو مرَّة ويطلب من سيّده أن يجرب التزلج مثله.

وفي الصيف؛ تصير تسلية الأطفال -في بلدة داوسون لاندينغ- سرقة ثمرات التفاح والخوخ والبطيخ من عربات الفاكهة التي يجرّها المزارعون، مع تخطيطهم الدقيق للهروب قبل أن يلسع السوط مؤخراتهم. توم معروف بتميّزه وبراعته في هذه السرقات، ولكن ليس بنفسه! بل عن طريق تشامبر، الذي يخطط هو ويقوم بعملية السرقة، ثم يعطي كل ما سرقه لتوم، ويأخذ هو لب الخوخ ولب التفاح وقشور البطيخ كحصّته من السرقة.

---

(1) كرات زجاجية صغيرة ملونة يلعب بها الأطفال. (المترجم).

يجبر توم دائمًا تشامبر على السباحة معه، والبقاء بجانبه ليحميه، وعندما يملّ توم وينتهي من السباحة، يتسلل ويأخذ قميص تشامبر، ويربطه في عُقَد صعبة الفكّ، ثم يُغَطِّس القميص في المياه، بينما يخرج هو ويرتدي ملابسه، ثم يجلس بالجوار يضحك على ذاك العاري المرتجف ويحاول فكّ قميصه المعقود بأسنانه.

يفعل توم هذه المقالب السيئة والسخيفة في رفيقه المتواضع لسببين؛ الأوَّل أنه ذو طبيعة خبيثة، والثاني لأنه يكرهه لتفوقه عليه في القوة البدنية والذكاء العقلي. لا يستطيع توم أن يغطس. صداع شديد يضرب رأسه عندما يحاول! أما توم فيغطس بسهولة شديدة ودون بذل أي مجهود، بل ويستمتع بما يفعله ويبتهج!

ذات مرَّة، حازت مهارة تشامبر في الغطس على إعجاب الجميع وتقديرهم. وقتها كان هناك حشد كبير من أولاد الأسياد ذوي البشرة البيضاء، قفز تشامبر للخلف قفزة عالية من فوق زورق، وتقلَّب جسده في الهواء مرة ومرتين، وقبل أن يسقط في المياه ويغطس، دفع توم الزورق تحته؛ فسقط تشامبر على رأسه في قاع الزورق. لهذه الدرجة كان يشعُر توم بالحقد والغيرة والغيظ تجاه تشامبر.

رأى عددٌ من خصوم توم القدامى أن فرصتهم -التي لطالما انتظروها- حانت، وتجمّعوا حول توم وأبرحوه ضربًا لدرجة أنه بالكاد استطاع أن يصل إلى بيته بمساعدة تشامبر.

وعندما صار عمر الولدان خمس عشرة سنة، وفي أحد الأيام، سبح توم في النهر مستعرضًا مواهبه وحركاته حتّى أصيب بتشنّج عضلي وأخذ يصرخ من الألم. في الحقيقة، كانت مجرّد خدعة، ولم

يُصَبْ فعلًا بالتشنج كما يدّعي. كانت حيلة معروفة عند أولاد البلدة فيما بينهم. يتظاهر أحدهم أنّه أُصيب بالتشنج العضلي ويصرخ طالبًا المُساعدة، وعندما يجيء غريب لينقذه، يستمر في الصراخ كأنّه مُتألِّم موجوع، حتى يقترب منه هذا الغريب ويمد إليه يده، فيكفّ الولد عن الصراخ فجأةً ويبتسم بسخرية للغريب، ثم يظل يضحك ويعاود السباحة مبتعدًا! وقتها يسخر جميع الأولاد الواقفين من الغريب الذي خُدِعَ بنجاح، ويغرقون في وابل من ضحك لا ينتهي. لم يجرّب توم أن ينفّذ هذه الحيلة من قبل! لكن من المُفترض أنه قرر أن يجرّبها الآن. توقّف أولاد البلدة يشاهدون الخدعة بحذر، بينما ظنَّ تشامبر أن سيّده يغرق فعلًا؛ فقفز في المياه وأخذ يسبح حتى وصل إلى توم في الوقت المناسب، وللأسف أنقذ حياته!

هذا التصرُّف الذي فعله تشامبر هو القشَّة التي قصمت ظهر البعير. يمكن لتوم أن يتحمَّل كلّ شيء.. كلّ شيء عدا أن يتم إنقاذه من زنجي! بل وأن يكون هذا الزنجي هو تشامبر بالذات! دونًا عن بقية الزنوج الآخرين. هذا ما لم يطِق احتماله. أخذ يسب تشامبر ويلعنه، ويتهمه أنه تظاهر بتصديق حيلة الغرق التي فعلها، وأنه جاد في طلب المساعدة، وأخبره بغضب شديد أن أي شخص سيعرف أنها مجرد حيلة وسيتركه ينفّذها للنهاية، ما عدا الزنوج الأغبياء أمثاله.

لأعداء توم هُنا قوَّة وهيمنة كبيرة. قالوا آراءهم فيما يجري بمنتهى الحرية والانفتاح، ووصل بهم الأمر بأن ضحكوا عليه ساخرين. وصفوه بالجبان، الكاذب، والمتسلل، ونعتوه بأفظع الشتائم، وفي النهاية قرروا أن يطلقوا على تشامبر اسمًا جديدًا ابتداءً من هذه

اللحظة، وأنهم سينشرون هذا الاسم بين الناس في البلدة ليعرفه الجميع. سيسمونه (أبو توم دريسكول الزنجي). قالوا إن هذا الاسم له دلالة، وهي أن تشامبر أنقذ حياة توم؛ فكان سببًا في ولادته من جديد في هذه الحياة. استاء توم جدًّا من هذه الإساءات والاستهزاء اللاذع.

غاضبًا قال:

- اضربهم كلهم يا تشامبر. اضربهم على رؤوسهم. لماذا تقف هناك واضعًا يدك في جيوبك؟!

رافضًا قال تشامبر:

- هُم كُثُرٌ يا سيد توم. لا أقدر عليهم كلهم.

- أقول لك اضربهم! ألا تسمع؟

- أرجوك يا مستر توم، لا تجبرني على فعل ذلك. هُم كثُر.. إنهم...

وقبل أن يتم جملته،هجم توم عليه وأخرج سكين الجيب خاصته وطعن تشامبر ثلاث طعنات، قبل أن يتدخل الأولاد ويتمكّنوا من حمله بعيدًا وإعطائه فرصة للهروب.

أُصيب تشامبر بجروح عميقة، لكن ليست من النوع الخطير. لو كانت السكين أطول قليلًا لكان في عداد الأموات الآن.

وضع توم حدًّا لروكسي منذ زمن بعيد، وأعلمها قدرها. بضعة أيام قد مرت على اليوم الذي تجرّأت فيه وضمّته لحضنها، يومها نادته أيضًا باسم التدليل الخاص به. مثل هذه الأشياء تثير غثيانه واشمئزازه؛ لأنها تصدر من أمَةٍ زنجية. حذّرها ونهاها عن تكرار هذه الأفعال المشينة، وذكّرها مَن تكون.

رأت روكسي ابنها يبتعد عنها بالتدريج مع مرور السنوات. كل التفاصيل الدافئة بين الأُم وابنها بدأت تتلاشى تمامًا، وما تبقى هو كونه السيد.. السيد وفقط. هكذا بوضوح وبساطة. ليته كان من الأسياد الرحماء حتى! من ذروة مشاعر الأمومة والحُب هوَت روكسانا إلى قاع العبودية والمهانة. والهاوية التي تفصل بينها وبين ابنها قد اتسعت الآن وأصبحت بلا نهاية. صارت مجرَّد خادمة عنده، وأمَة من إمائه، بل وصارت كلبته المطيعة، جاريته العاجزة، وضحية مزاجه المتقلّب وطبيعته الخبيثة.

لا تستطيع النوم أحيانًا. يشتد غضبها منه ويغلي صدرها غلًّا وغيظًا؛ فتظل ساهرة تحدث نفسها: "أهانني أمام الناس! ولكن لا ألوم عليه. يناديني دومًا بأسماء حقيرة.. يا زنجية.. يا بغيضة.. يا غبيَّة! لا يناديني أبدًا باسمي، على الرغم من أنني أفعل كل ما بوسعي لأرضيه. يا ربي، لقد فعلت كل شيء من أجله! باعدت بينه وبين حقيقته القبيحة! أنقذته من العبودية، وهذا جزائي! هذا ما أخذته في المقابل".

وأحيانًا، عندما يتمكن منها غضبها وتشتعل في قلبها مشاعر العدوانية والحنق تجاهه، تخطط لفضحه والانتقام منه، تتخيل في عقلها ما سيحدث إذا قالت للعالم كله: "هذا مجرد عبد زنجي".

ثم يعود ويغلبها خوفها. هي السبب في جعله قويًّا إلى هذه الدرجة. لا يوجد إثبات على ما تقوله، لعلهم سيبيعونها في بلاد جنوب النهر إذا قالت مثل هذا الكلام؛ فمَن سيصدّقها؟

وما تلبث أن تتحول كل مشاعر الغضب إلى شعور شديد بالعجز عن تغيير الأقدار، وإحساس كبير بالندم عن الدور الغبي الذي مثّلته ذاك اليوم المنحوس من سبتمبر، دون أن تستعين بشاهد واحد على الأقل تلجأ إليه عندما تحتاجه في مثل هذه الظروف، يشهد معها أن توم هو ابنها العبد، حتّى يهدأ قلبها المتعطش للانتقام.

وبرغم كل ذلك، عندما يُصادف أن يكون مزاج توم هادئًا ولطيفًا - وهذا يحدث بين حين وحين- تُشفى كل جروحها الأليمة! وتنسى قسوته وما عانته معه، تصبح سعيدة وفخورة به لكونه ابنها! ابنها الزنجي الذي يعيش في أمان وسط الأسياد ذوي البشرة البيضاء، ينتقم منهم جميعهم على الجرائم التي ارتكبوها ضد عِرقها.

في خريف عام 1845 وقعت جنازتان كبيرتان في بلدة(داوسون لاندينغ) إحداهما جنازة العقيد سيسيل بيرلي إسيكس، والأخرى جنازة بيرسي دريسكول.

على فراش موته، أطلق الأخير سراح روكسي وحررها من العبودية. وعُهد رسميًّا بوصاية ابنه الحبيب لأخيه القاضي وزوجته؛ لأن القدَر لم يشأ أن يُرزقا أطفالًا، كانا في غاية السعادة عندما توليا وصايته؛ فلا صعوبة أبدًا في إرضاء رجل وامرأة لم يُرزَقا أطفالًا!

قبل أن يموت بيرسي بحوالي شهر، سمع القاضي دريسكول أن توم يحاول إقناع أبيه ببيع تشامبر في بلاد جنوب النهر! بسرعة ذهب لأخيه واشترى العبد منه. أراد أن يمنع حدوث مثل هذه الفضيحة! فمهما فعل الخدم ومهما صدر منهم، لا يجب للنبلاء أمثالهم أن يبيعوهم في بلاد جنوب النهر.

وعلى الرغم من أن بيرسي دريسكول أرهق نفسه طوال حياته لمضاعفة ثروته والمضاربة في صفقات بها مجازفة كبيرة، إلا أنه مات مُفلسًا. بالكاد رقد في قبره قبل أن ينهار كل شيء فوق رأسه، وترك وريثه المنحوس مُفلسًا وفقيرًا. لكن هذا لم يهم توم؛ لأن عمه أخبره أنه سيجعله وريثه، وأن ثروته كلها ستصبح ملكه عندما يموت؛ فارتاح باله واطمأن على مستقبله.

بعد أن تحررت روكسي من العبودية، وجدت نفسها في الشارع، بلا منزل يؤويها؛ لذلك قررت أن تودع أصدقاءها للمرة الأخيرة قبل أن تذهب للبحث عن عمل في إحدى البواخر، وهو طموح محبب لعِرقها وجنسها. كانت هذه المرة الأخيرة التي ترى فيها الشاب الأسود العملاق جاسبر. وجدته يقف مع ويلسون المغفل يتحدثان، ويقطع له بعض الأخشاب. عندما رآها ويلسون مُقبِلة سألها كيف ستتحمل ترك الخدمة وعدم رؤية ولديها؟ وعرض عليها بإلحاح أن يعطيها نسخة من بصمات أصابعهما لتأخذها معها وتتذكرهما بها. لكنها خافت فجأة وتساءلت بينها وبين نفسها: "هل شك في شيء؟!"، وردّت عليه فورًا قائلة إنها لا تريدهما.

وقتها قال ويلسون لنفسه:

إن من أمثالها يؤمنون بالخرافات. لربما تعتقد أن هناك شياطين أو أعمالًا سحرية مربوطة بالشرائح الزجاجية الخاصة بالبصمات. اعتادت أن تأتي إلى هنا وهي تحمل حدوة حصان قديمة! يبدو أن هذا سبب ارتباكها.

الفصل الخامس

داوسون لاندينغ تحتفي بالتوأم

"النَّجاح سِرُّه التَّدريب؛ الخوخ في الماضي لم يكُن إلَّا لوزًا مُرًّا، والقرنبيط ليس سوى ملفوف، لكن بعد أن تخرَّج من الجامعة!".

يوميات ويلسون المغفل

"ملاحظة من الدكتور بالدوين للمبتدئين: لا نحب أكل الفطر الذي يعتقد أنه كمأ![1]".

من مذكرات ويلسون المغفل

تمتَّعت السيدة دريسكول بنعيم الأمومة طوال عامين من تبنّيها توم. نعيم يشوبه بعض المشاكل طبعًا، لكنه كان الجنة بالنسبة لها. بعد موتها، تولّى زوجها القاضي وأختها برات العاقر تربية الولد فترة طويلة. اعتبرا أنه سعادتهما التي لطالما انتظراها.

---

(1) يقصد الكاتب الفطر السام غير الصالح للأكل، على عكس الكمأ الذي يعتبر من أثمن أنواع الفطريات، لغناه بالعناصر الغذائية الصحية.

وقتها، كانت نفس توم الخبيثة تحثّه على افتعال المشكلات. كان على وشك تدمير مستقبله بالكامل، لولا أنهم أرسلوه ليدرس في جامعة يال[1]، وذلك عندما بلغ التاسعة عشرة من عمره.

تم قبوله في الجامعة بشروط، لكن طبعًا لم يكن هناك ما يميّزه عن زملائه الآخرين بأي شكلٍ من الأشكال. مكث في الجامعة عامين مرّا سريعًا كأنهما ساعتان. بعدها عاد إلى بلدته وبيته، وقتها لاحظ الجميع تحسُّنًا واضحًا في سلوكه وأخلاقه.

رقَّ طبعه الفظ قليلًا، وأصبح لطيفًا يحب المزاح. يظهر فِكْرُه المتفتح في أثناء كلامه، ويشوب حديثه طابع السخرية أحيانًا. بطريقة واعية ولطيفة يُظهِر تقديره وفهمه للناس، يتجنب الوقوع معهم في المشاكل التي لا طائل منها. لكن يعيبه الكسل، هذه الصفة لم تتغيَّر فيه. لم تساوره أي رغبة في البحث عن وظيفة تناسبه. استنتج الجميع - من تصرفه هذا - أنه ينتظر أخذ مكان عمّه بعد وفاته ويرث كل ثروته، وأنه سيظل إلى ذلك الوقت يعيش على نفقته.

عاد توم من الخارج مكتسبًا عادتين جديدتين؛ يمارس إحداهما علانيةً أمام الجميع وهي شُرب الخمور، أما الأخرى فقد حرص على إخفائها وهي المُقامرة.

تجنَّب توم المُقامرة في الأماكن التي يعرفها عمه، والتي يمكن أن يكشفه فيها بسهولة، أو يشي به أحد ويبلغ عمه. كان حريصًا بشدة في إخفائه لهذه العادة. أما لهجة توم البولندية في الكلام

---

(1) جامعة بحثية خاصة تأسست عام 1701 م، وهي ثالث أقدم مؤسسة تعليم في الولايات المتحدة، ومن أكثر المؤسسات شهرة في العالم. (المترجم).

فلم تكن معروفة لدى شباب البلدة الصغار، ظلّ يتفاخر بها أمامهم ويتعالى عليهم. ربما كانوا سيتحملون غطرسته هذه إذا توقف الأمر عند هذا الحد، لكنه ارتدى قفازات في يديه أيضًا! وهذا ما لم يتحملوه مطلقًا. هذه الأسباب جعلته وحيدًا، دائمًا ما يمشي بلا صُحبة ولا صديق. أحضر معه للمنزل -من سانت لويس- بذلة رائعة تم تفصيلها على الموضة. زيّ شرقي حضاري فخم يُشعِر كلَّ مَن يراه بالدونية أمامه. استمتع بهذا الإحساس المُثير، ومشى متبخترًا يستعرض نفسه في البلدة طوال اليوم.

يومها اتفق الشباب الصغار مع خيّاط البلدة. في صباح اليوم التالي، عندما بدأ توم في استعراضه اليومي، وجد عبدًا زنجيًّا يرتع في زيّ لامع مبالغ فيه يُشبه بذلته الشرقية، ويقلّد مظهره ومشيته في سخرية. من يومها لم يرتدِ توم بذلته مرة أخرى، وصار يرتدي الملابس المحلية العادية. كانت هذه البلدة الريفية مملة بالنسبة لتوم، خاصة بعد أن تعرف على مناطق أجمل وأكثر حيوية منها. وأخذ شعوره هذا يكبر معه بمرور الأيام، وبدأ يسافر إلى سانت لويس كل فترة في رحلات قصيرة؛ لينعش روحه ويجدد نشاطه.

هُناك وجد صُحبة تُشبهه، وملذات تناسب ذوقه، إلى جانب مزيدٍ من الحرية التي اكتسبها في بعض التفاصيل اليومية. حرية أكثر من التي يتمتع بها في منزل البلدة. لذلك على مدار عامين- كثرت زياراته للمدينة، وبالتدريج تزايدت فترات مكوثه هناك. أخذ يورّط نفسه في مشاكل عميقة، ويخاطر بفعل أشياء من الممكن أن تجلب إليه مزيدً من العناء في يوم من الأيام. وهذا بالفعل ما حدث!

في عام 1850 تقاعد القاضي دريسكول من منصبه ومن جميع أنشطته التجارية. وبالتالي صار عاطلًا تمامًا عن العمل، وسيظل كذلك ثلاث سنوات قادمة. لكنه احتفظ بمنصبه كرئيس جمعية المفكرين الأحرار، وويلسون المغفل يعمل معه كعضو في هذه الجمعية. من بين المناقشات الأسبوعية التي تدور في الجمعية، دار حديث حول اهتمامات المحامين في الحياة. وقتها كان ويلسون المغفل لا يزال موصومًا بالعار، منذ أن قال تلك الملاحظة غير الموفقة -قبل ثلاثة وعشرين عامًا- عن الكلب! ظلَّ يعافر ويبدأ من تحت الصفر ولا يزال في مكانه لم يتقدم خطوة بعد!

وحده القاضي دريسكول يؤمن به، ويعتبره صديقه. ادعى القاضي أن لويلسون عقلًا ذكيًّا، ونسبة الذكاء التي يتمتع بها أعلى من المتوسط والعادي! لكن هذا لم يتعدَّ كونه مجرد كلام عن هوى. فشل القاضي في تغيير رأي الناس في ويلسون. تثبَّتت شائعة كونه مغفل مع مرور الزمن أكثر وأكثر، وصارت سبب فشله الأساسي.

وكلما حاول القاضي إثبات موقفه، كلما تمسك الناس برأيهم أكثر عن ويلسون. لقد كان من الأجدر به الكف عن محاولة تغيير وجهة نظرهم، لربما حينها تتغير من تلقاء نفسها. لسنوات متتالية، كتب ويلسون مذكرات غريبة تتسم بروح المرح والسخرية.

يكتب فيها عبارات فلسفية يغلب عليها الطابع الساخر، ذيّلها بالتواريخ.

أُعجَب القاضي بهذه المذكرات اللطيفة التي تجعله يضحك ويفكر في الوقت ذاته. في أحد الأيام، قرأ بعض هذه المذكرات على أسماع كبار المواطنين في أحد الاجتماعات. لكن هؤلاء لا يفهمون فن السخرية من الأساس؛ فتركيبة عقولهم لا تصلح لفهم مثل هذه الأشياء. قرأوا وقتها هذه العبارات الساخرة المرحة بطريقة مَن يقرأ نصًّا جادًّا ومهمًّا؛ فكانت النتيجة عكسية تمامًا، وقرروا أنه لو كان هناك نسبة بسيطة من الشك في حماقة ويلسون؛ فإن هذه المذكرات بددت الشك تمامًا، وإلى الأبد.

ولعلّ هذا هو الطَّريق الأقصَر لتدمير إنسان بالكامل؛ ما عليك إلا أن تجلب إليه صديقًا حسن النيَّة ليساعد في استكمال هذا الدمار ويجعله فريدًا من نوعه! شعر القاضي بالتعاطف تجاه ويلسون أكثر من أي وقت سبق، تشبث برأيه بشأن المذكرات، وآمَن بجودة النصوص المكتوبة فيها.

للقاضي دريسكول مزية ليست موجودة عند غيره؛ فهو من أهم الرجال في البلدة ولا يزال مُحتفظًا بمكانته الكبيرة في المجتمع. هذا ما جعله حُر الفكر، له قناعاته الخاصة، ومفاهيمه وآراؤه التي لا تتأثر بكلام الآخرين أو معتقداتهم. يعلن رأيه أمام الجميع بلا أدنى تردد ولا يجرؤ أحد على انتقاده. جعل من ويلسون خليفته في المجلس واعتبره شريكه. لم يعترض أحد؛ ويلسون بالنسبة إليهم لغز مشفَّر، وعلى الرغم من ذلك يعرفون جيّدًا أنه ليس مصدرًا للخطر، ولا ضرر من وجوده بينهم. رغم ما اشتهر به من حماقة إلا أنهم لا يكرهونه، بل كان محبوبًا ومُرحَّبًا به في كل مكان، هم ببساطة لا يأخذون رأيه في أي شيء، ويعتبرون وجوده مثل عدمه.

في منزل هادئ ومريح، تعيش الأرملة كوبر، أو كما يطلقون عليها العمَّة باتسي، مع ابنتها روينا ذات التسعة عشر عامًا، وشقيقيها الولدين الصغيرين. روينا فتاة رومانسية ولها طلَّة بهيَّة، لكنها لم تستفِد بجمالها هذا على أي حال. تم تخصيص غُرفة كبيرة بالمنزل للإيجار. عندما يجدون نزيلًا، يجهزون الغرفة له تاركين فيها بعض الأثاث البسيط. كانت الأرملة حزينة لأن الغرفة فارغة من المستأجرين منذ عام للآن، ودخلها بالكاد يكفي أسرتها، وهي بحاجة لمزيد من المال إذا ما أرادت أن ترفه عن نفسها قليلًا خارج نطاق الضروريات التي لا غنى عنها. فكَم تتوق لشراء بعض الكماليات التافهة!

في يوم شديد الحرارة من أيام يونيو، تبدَّل الحُزن في قلبها بفرحة غامرة وبهجة عارمة. انتهى انتظارها الطويل الممل وتم الرد على إعلان قد نشرته قبل عام كامل من الآن! وليس المستأجر واحدًا من أهل القرية، بل وصلتها رسالة من بلاد بعيدة، من عالم كبير غامض في الشمال. الرسالة جاءت من سانت لويس!

سارحة في أفكارها وأحلامها الورديَّة جلست العمة باتسي في شرفتها، تنظر إلى مجرى نهر المسيسيبي البرّاق كمَن ينظر ولا يرى! تتخيل حظّها السعيد الذي جلب لها مستأجرين اثنين.. لا مستأجرًا واحدًا.

قرأت العمة باتسي الرسالة للعائلة، بينما تتابع روينا بخطواتها الخفيفة المرحة أعمال تنظيف المنزل مع الخادمة نانسي. أما الصبيان الصغيران فقد هُرعا ينشران الخبر السار في جميع أنحاء البلدة؛ فإذا لم يُخبرا الجميع، سيُلقي الناس اللوم على أسرتهما.

بعد أن انتهت روينا من متابعة أعمال التنظيف لاستقبال الضيفين الجديدين، توسَّلت للعمة باتسي أن تعيد قراءة الرسالة مرة أخرى. كُتِبَ في الرسالة الآتي:

أيتها السيدة المحترمة، لقد شاهدنا -أنا وأخي- إعلانكِ مصادفةً، ونطلب منكِ الإذن لنأخذ الغرفة التي تعرضينها للإيجار. نحنُ توأم، في الرابعة والعشرين من العُمر، إيطاليان، لكننا عشنا في مُختلف بلاد أوربا وسافرنا كثيرًا. وأقمنا سنوات في الولايات المتحدة، اسمانا هي: لوجي وأنجلو كابيلو. نعرف أنكِ لم تطلبي إلَّا مستأجرًا واحدًا لغرفتكِ، لكن يا سيدتي العزيزة، إذا سمحتِ لنا بدفع ضعف ثمن الإيجار سنكون ممنونين جدًّا، ونعدكِ بعدم الإزعاج. من المفترض أن نصل إلى بلدتكم يوم الخميس.

- إيطاليان! مُنتهى الرومانسيَّة! لا أحد في البلدة كلها عرف بالخبر إلا وتحرق شوقًا ليراهما. تخيلي أنهما سيعيشان عندنا نحن! لا أصدق نفسي!
- نعم. متخيَّلة. واضح أنهما سيحدثان انقلابًا كبيرًا في البلدة.
- طبعًا ماما.. فكري فيها! هذان التوأم كانا في أوربا، وسافرا لأماكن كثيرة. لم نقابل ولم نعرف أحدًا قط سافر ولف العالم من قبل. لن أندهش إن قابلا ملوكًا حقيقيين!
- ربما.. لا يمكن لأحد أن يخمّن أو يعرف ماذا رأيا.. لكنهما بلا شك سيحدثان انقلابًا سواء قابلا ملوكًا أم لا.
- طبعًا.. طبعًا.. لوجي، أنجلو.. كم جميلة هذه الأسماء! اسمان فخمان أجنبيان تمامًا. ليسا مثل جونز مثلًا أو روبنسون.

إنهما قادمان يوم الخميس، ولا يزال اليوم ثلاثاء؟ كم هو طويل وقت الانتظار! ها هو القاضي دريسكول يقف عند البوابة، وصله الخبر طبعًا. سأفتح له الباب.

جاء القاضي مُحمَّلًا بالفضول والتهاني. بعد وصوله بقليل لحقه القاضي روبسون بمشاعر الحماس ذاتها، وفي كل مرة يجيئهم زائرًا، يعيدون قراءة الرسالة من جديد، ثم يتناقشون حولها. كانت هذه مجرد البداية، وبعد ذلك انهالت وفود من الناس إلى البيت. جار يتبع جارًا، نساء ورجال. تزاحموا كلهم يومي الأربعاء والخميس داخل وخارج البيت. يتوافدون عليه أفواجًا ليلًا ونهارًا. من كثرة إعادة قراءة الرسالة، تهرَّأت الورقة وذابت. نبرة اللطف والكرم في الرسالة نالت إعجاب الجميع. أسلوب الكلام السلس وصياغة الجمل باحترافية جعلتهم متعاطفين مع التوأم ومتحمسين للقائهما. أما السيدة كوبر فكانت غارقة الآن في السعادة والبهجة.

منسوب مياه النهر منخفض هذه الأيام، وبالتالي لم تكُن مواعيد وصول القوارب دقيقة. لم يصل القارب الذي يحمل المستأجرين في موعده. من المفترض أن يصل مساء الخميس، وتحديدًا في الساعة العاشرة. انتظر الناس طوال اليوم عند المرسى هباءً. يتوقون لرؤية الأجنبيّين ومعرفة كيف يبدو شكلهما! ولكن عاصفة قوية هبَّت في الحادية عشرة مساءً، واضطروا أن يعودوا إلى بيوتهم خائبين. بيت وحيد في البلدة بقيت أنواره مُضاءة؛ وهو بيت السيدة كوبر. انتظرت الأسرة في قلقٍ وصول التوأم، تحت مطر شديد يزداد كل ساعة، ورعد مخيف. رغم ذلك، لم تفقد أسرة كوبر صبرها وأملها، حتى دق الباب أخيرًا، وهرع جميع أفراد الأسرة لفتحه.

دخل رجلان زنجيَّان، يحمل كل واحد منهما صندوقًا، وتوجها فورًا لغرفة الضيوف، تبعهما التوأم -الأكثر وسامة على الإطلاق- وهما يرتديان ملابس غاية الأناقة والجمال، وملامحهما هي الأكثر تميّزًا ووداعة بين شباب الغرب. أحدهما أكبر حجمًا من الآخر، واحدٌ منهما أشقر الشَّعر والآخر أسوَدُهُ، وما عدا ذلك فهُما نسخة طبق الأصل من بعضهما.

الفصل السَّادس

بحرٌ مِن المَجد

"علينا مواصلة السعي إلى آخر لحظة في حياتنا حتى إذا حضر الموت، حزن الحانوتي على فراقنا".

مذكرات ويلسون المغفل

"العادة. وما أدراك ما العادة؟ هي ألا تقفز من الشباك مرة واحدة، بل تهبط السلم درجة درجة".

من مذكرات ويلسون المغفل

تجمَّعت الأسرة صباحًا وقت الإفطار. بساطة التوأم في التعامل مع الجميع سهَّلَت التعارُفَ فيما بينهم ومدَّ حبال الودّ. سرعان ما اختفت القيود والكلام الرسمي الجاف، وساد الشعور بالأُلفة والمحبة. عاملتهما العمة باتسي كأنهما أصحاب بيت منذ البداية، ونادتهما بأسمائهما بلا ألقابٍ. مع ذلك لم يهدأ فضولها تجاههما، تريد أن تعرف عنهما كل شيء، لدرجة أن الجميع لاحظوا هذا. أما التوأم فاستجابا بصدر رحب، وتكلما عن حياتهما بلا غموض ولا حذر، مما أراح بالها وأسعدها كثيرًا. عرفت الأسرة من حديثهما

أنهما واجها الكثير من الصعاب في حياتهما، وذاقا الفقر والحرمان. وبينما يتكلمان، كانت السيدة العجوز تتحين الفرصة لتسأل سؤالًا أو سؤالين. عندما وجَّهت سؤالها هذه المرة للأخ الأشقر، استرخى الأخ ذو الشَّعر الأسود أخيرًا وانتهز الفُرصة ليرتاح مِن الحَكي والكلام.

- أعرفُ أنني لا يجب أن أسألك مثل هذا السؤال يا سيد أنجلو، ولكن كيف لا يوجد عندك أصدقاء؟ ولا صديق واحد حتَّى منذ الصغر؟ عندك مانع لتخبرني؟ إذا كنت تُمانع، فلا تخبرني.
- آه.. لا أبدًا. ليس عندي مانع لأخبركِ يا مدام. هو ليس خطأ أحد، إنه مجرد سوء حظ. نحن من أسرة مُتحابة وسمعتنا طيبة هناك في إيطاليا. وقتها كنا أطفالًا. نحن من طبقة النبلاء في فلورنسا القديمة.

في هذه اللحظة خفَق قلب روينا وتسارعت نبضاته. اتسعت فتحتي أنفها، وظهرت لمعة براقة في عينيها.

- كان والدي من الفريق الخاسر عندما اندلعت الحرب. لم يجد حلًا سوى أن يسافر بعيدًا من أجل الإبقاء على حياته. تمت مصادرة جميع ممتلكاته، والاستيلاء على كل حاجياته الشخصية، صرنا فقراء، وفي ألمانيا كنا غرباء، لا أصدقاء لنا. وقتها كنت أنا وأخي في العاشرة من العمر، متعلمين أفضل تعليم ومثقفين، مولعين بالكتب، وتأسسنا جيدًا في اللغات الألمانية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية. وفي الموسيقى كنا موهوبين لدرجة أشبه بالمعجزة، هذا إذا

سمحتم لي أن أقول على موهبتنا معجزة، ولكن هي الحقيقة فعلًا. وفي خلال شهر واحد مات أبونا، نجا بموته من سوء الحظ العاثر هذا، وسرعان ما لحقته أمنا. أصبحنا وحيدين في هذا العالم. كان بإمكان أبي وأمي أن يستفيدا من موهبتنا الموسيقية ويطلبا منا تقديم عروض ليتكسَّبا منها، وكان هناك بالفعل عدد من العروض المهمة الضخمة التي يمكن أن نشارك فيها، ولكن فكرهما المستنير وكبرياءهما لم تسمح لهما بفعل ذلك، آثرا الموت على أن يعرّضونا لمثل هذا الموقف. لذلك كان عليَّ أنا وأخي أن نقدم هذه العروض دون علمهم ودون أخذ موافقتهم. تراكمت الديون علينا بعد وفاتهما، وكان لا بد أن نقيم عروضًا في الأماكن المزدحمة الجاذبة للناس، أقمنا عروضنا في متحف رخيص في برلين لكسب المال، واستغرق الأمر عامين كاملين لنتخلص من هذه الديون وهذه العبودية. سافرنا جميع أنحاء ألمانيا، وفي البداية لم نكن نتلقى أجرًا ولا حتى راتبًا ثابتًا، وكان لا بد أن نقيم عروضنا دون أي مقابل لنكسب لقمة العيش. حسنًا يا سيدتي.. باقي الحكاية ليس مُهمًّا أو ذا تأثير كبير. عندما تخلصنا من تلك العبودية في عُمر الثانية عشرة، صرنا شابين محترمين. علمتنا التجربة كثيرًا من القِيَم والأشياء المهمة، عرفنا كيف نعتني بأنفسنا، نتجنب الهزيمة، ونتغلب على كل الصعاب مهما كانت.. تعلمنا كيف ندير أعمالنا الخاصة لتحقيق الربح، ودون أي مساعدة من الآخرين، تنقَّلنا مُسافرين من مكان إلى مكان سنوات طوال.. نلتقط لغات

جديدة ونتعرف على عادات غريبة في البلاد المختلفة، حتى صرنا على علم بكثير من الأشياء المذهلة والمتنوعة. كانت حياة ممتعة حقًا. سافرنا إلى بلاد البندقية، لندن، باريس، روسيا، الهند، الصين، واليابان.

وفي هذه اللحظة طلَّت الخادمة نانسي برأسها، وقالت بصوت تجتهد أن يكون مسموعًا وسط هذا الصخب:

- عذرًا يا حضرات. هناك كثير من الناس ينتظرون بالخارج. يريدون أن يروا الشابين المحترمين.

ثم أومأت برأسها وهي تنظر للتوأم تحييهما، وبعدها ابتعدت عن الأنظار. ملأ الفخر روح الأرملة كوبر، ووعدت نفسها أن تتباهى بهذين التوأم الرائعين أمام جيرانها وأصدقائها بقدر المستطاع.

خاصةً أن الناس في البلدة بسطاء، ولم يروا أجنبيًّا في حياتهم من قبل. لم يسبق لهم أن رأوا شخص ذا مكانة كبيرة أو له أسلوب مميز في الكلام، وحياة مختلفة عن حياتهم. لكن مشاعر العمة باتسي كانت معقولة إذا ما قورنت بمشاعر روينا، التي كانت في عالم الأحلام، كأنها تسير على الهواء. شعرت كأن هذا اليوم هو الأعظم في حياتها، والأكثر بهجة وحيوية، يوم نابض بالحياة في بلدة ريفية من النادر أن يحدُث فيها جديد. تراءى لها المَجد والألَق ساكنين في بيتها، والبنات الأخريات لا يمكنهن سوى الفُرجة بحسد من بعيد، عاجزات أن يصبحن جزءًا من هذا المجد وهذه العظمة.

بعد التعارُف وتبادُل الأحاديث، انتقل الضيوف -وتقدمتهم الأرملة كوبر والتوأم- لبهو البيت، حيثُ سيُقام حفل ترحيب بهما. أطلق الجمع همهمات منخفضة. واتخذ التوأم موقعهما بجوار الباب ليرحبوا بالقادمين من الضيوف. وقفت الأرملة كوبر بجوار لوجي، بينما اتخذت روينا موقعها بجوار أنجلو، وبدأ الناس في الدخول والتعرف على التوأم.

"صباح الخير يا سيدة كوبر"، ثم يتصافحان بالأيدي.

"صباح الخير أيها الإخوة هيجينز، أقدم لك الكونت لوجي كابيللو.. هذا السيد هيجينز يا لوجي"، ثم يتصافحان بالأيدي وينظران إلى بعضهما بترحاب.

"سعيد برؤيتك"، قالها هيجينز مومئًا برأسه بلطف وبهجة ظاهرين.

"أنا أسعد"، قالها الكونت لوجي.

"صباح الخير يا روينا"، ثم يتصافحان بالأيدي.

"صباح الخير يا سيد هيجينز. أقدم لك الكونت أنجلو كابيللو"، يتصافح كل من أنجلو وهيجينز بينما يحدق الأخير في صاحبه بإعجاب، ويقول مبتسمًا: "سعيد برؤيتك".

ويرد الآخر قائلًا: "أنا أسعد".

ثم يمر هيجينز، ويجيء مَن يليه ليلقي السلام. لم يشعُر أي هؤلاء الضيوف بالراحة، ولكونهم صادقين وقلوبهم طيبة لم ينجحوا في إخفاء هذه المشاعر. كيف لا وهُم لأول مرة يقابلون رجُلين يحملان

لقب الكونت! ولم يتوقعوا رؤية واحد ممن يحملون هذا اللقب في حياتهم. عندما سمعوا هذا اللقب يتردد أكثر من مرة أمامهم شعروا بدهشة هي أقربُ للصدمة، أحسُّوا أنهم غير مستعدين لمناسبة مثل هذه. بعضهم بدأ يقول عبارات مبالغًا فيها مثل "جلالتك.. سموك" وأشياء من هذا القبيل. أما البقية ففضلوا المُصافحة في سكوت، دون التفوُّه بحرف واحد! ارتبكوا ولم يعرفوا ماذا يجب أن يقولوا؟ كلمات فخمة مثل هذه لم يسمعوا بمثلها إلا في المحاكم والاحتفالات الضخمة، ومِن أناس كبار ذوي مُلك وجاه.

لم يمر وقت طويل حتى خفَّ التوتر وزال الارتباك. بمرح وودٍ تنقَّل الناس في مجموعات من مكان لمكان. تساءلوا بفضول إذا ما كانت البلدة قد أعجبت التوأم، وإلى متى سيقيمان هُنا؟

وأين عائلتهما؟ وهل هُم بخير؟ ثم انجرف الكلام إلى أحوال الطقس، يبدون أمنياتهم بأن يصير الجو أكثر برودة في القريب العاجل، ومن هذا الحوار ينخرطون في حوارات كثيرة أُخرى. استمر الحفل إلى نهاية اليوم بطريقة مشرفة ومُرضية لأهل البيت ولجميع الزوار.

أما التوأم فظلا يتنقلان بين الناس، يتحدثان مع كُل مجموعة قليلًا. يضحكان بودٍ في وجوه الجميع، ويتكلمان بأريحية وصِدق؛ حتى تمكنا بسهولة من نَيل إعجاب الجميع. لم يختلف أحد على كونهما ظُرفاء؛ فحصلا على كل الاستحسان والقبول.

أدارت الأرملة كوبر الحفل بنجاح وحرفيَّة، في عينيها بريقُ الانتصار، وعلت وجهها ملامح الكرامة والعِزَّة. وبين الحين والآخر كانت روينا تذكر نفسها أن التوأم سيعيشان في بيتها.. "إنهما عندنا! في بيتنا نحن!".

لا الابنة ولا الأم شعرتا بالملل أو الضجر ولو للحظة. آذانهم المسحورة تسمع أسئلة طوال الوقت عن التوأم. كل واحدة فيهما كانت المركز الذي يتجمع حوله مجموعة من الزوار يسألونها ويسمعون بشغف وفضول شديدين الإجابة. لأول مرة ذاقتا طعم تلك الكلمة التي تُسمَّى مجدًا وأدركتا قيمتها جيدًا وعرفتا معناها. فهمتا لماذا الرجال -في جميع الأعمار- مستعدون لدفع أي ثمن ولو كلفهم ذلك حياتهم وراحتهم، فقط ليدركوا لحظة من لحظات المجد والرفعة والسمو.

صارت تصرفات نابليون وكل مَن يشبهونه، تصرفات منطقية، محسوبة ولها مسوغاتها!

عندما قامت روينا بواجبها تجاه كل الضيوف الموجودين في بهو المنزل، وتأكدت أن أحدًا منهم لا يحتاج شيئًا، صعدت للطابق العلوي لتكون في خدمة بعض الضيوف المتجمعين هناك؛ فقد اضطر بعضهم للصعود والاحتفال في الأعلى؛ لأن الصالون لم يستوعب عدد الزائرين الكبير. ومرة أخرى وجدت روينا نفسها محاصرة بالأسئلة عن الأجنبيين، مجدٌ يجتاح روحها من جديد! وعندما أوشكت الشمس على المغيب أدركت أن كل هذه العظمة التي تشعُر بها، وكل هذا الفخر والمباهاة سينتهي حالما ينتهي

الاحتفال في المساء، وأن لا شيء يمكن أن يطيل وقت الحفل أو يمدّ ساعات اليوم! لن يتكرر حدث عظيم مثل هذا مرة أخرى. كل هذه الأُبَّهة، وتلك الساعات المعدودة التي لا تقدر بثمن على وشك الانتهاء! ولكنها أقنعت نفسها أن ذلك غير مهم، لكن المهم حقًّا هو أن الحفلة كانت ناجحة ومميزة لدرجة لم تتوقعها، وسيتذكرها الجميع طوال عمرهم.

في هذه اللحظة بدأ التوأم يفعلان شيئًا مُذهلًا! كأنهما قررا أن يختمان هذه الليلة الساحرة بشيء أشبه بمراسم التتويج! شيء أدهش الزوار وخطف انتباههم، حدث هذا عندما سمع مَن في الطابق الأعلى ضجيجًا بالأسفل في الصالون، تدافعوا ليتفرجوا على الحدث المبهر. بدأ التوأم يلعبان معزوفة كلاسيكية بديعة. رأى الناس أربعة أيادٍ تعزف بحرفية على البيانو. واستمر العزف فترة طويلة؛ بناءً على طلب الزوار الذين لم يتحملوا توقف التوأم للحظة عن العزف. رضيت روينا كما لم ترضَ في حياتها من قبل، حتى غمر الرضى أعمَق نقطة في قلبها. أما الناس فقد اكتشفوا للتو أنهم لم يستمعوا لموسيقى حقيقية في حياتهم من قبل! بل كانوا يسمعون أعمالًا خالية من الروح وتفتقر للسحر إذا ما قورنت بموسيقى التوأم العذبة التي تزلزل الروح وتحرك المشاعر. أدرك الجميع أنهم ولأول مرة يستمعون إلى عزف السادة!

الفصل السَّابع
الحورية المجهولة

"أحد الاختلافات الأكثر لفتًا للانتباه بين القطة والكذب؛ هي أن القطة لديها تسعة أرواح فقط!".

من مذكرات ويلسون المغفل

انفَضَّ الجمعُ على مضض، ذهبوا إلى بيوتهم ولم يريدوا لليوم أن ينتهي. اتفقوا جميعًا أنه سيمر وقت طويل جدًّا حتى يتكرر مثل هذا الحدث في داوسون لاندينغ مرة أخرى. قبِل التوأم في أثناء الحفل دعوات لإقامة عدد من الحفلات الثنائية الترفيهية، منها حفل تطوعي لصالح جمعية خيرية محلية. استطاع القاضي دريسكول أن يوفر لهما توصيلة فورية؛ لذلك كان أول مَن نال شرف الظهور كمرافق للتوأم أمام الناس. أقلَّهما بالعربة متوجِّهًا بهما نحو الشارع الرئيس. اشرأبت رؤوس الأهالي من النوافذ، وتجمع المارَّة على الأرصفة ليروا هذا الحدث.

وفي الطريق، عرَّفهما القاضي على معالم البلدة. أراهما المقبرة الجديدة، والسجن، ومنزل أغنى رجل، وقاعة الماسونيين، والكنيسة الميثودية، والكنيسة المشيخية، وأين سيكون موقع الكنيسة

المعمدانية التي جمعوا التبرعات لبنائها، ودار البلدية، والمسلخ. كما زار معهما مقر المطافئ، وهناك ارتديا الزي الرسمي لرجال الإطفاء، وجعلوهما يطفئون حريقًا وهميًّا، كما سمح لهما برؤية بندقيته الخاصة. كان متحمسًا بصحبتهما، لاحظ كيف يحاولان رد المعروف وإرضاءه؛ فسعد بهما أيما سعادة.

أثبت القاضي للتوأم أنه كريم الضيافة. اجتهد في تسليتهما وحرص أن يقضيا وقتًا ممتعًا. وإذا كان هناك شيء غير مُبهج أو مُسلٍّ في اليوم؛ فلم يكُن خطأه. كما حكى لهما عددًا من الحكايات المضحكة. نعم، كان ينسى لُب الحكاية؛ لأنها حكايات قديمة تعود للزمن الكلاسيكي البعيد، ولكنهما كانا قادرين دائمًا على استكمال بقيتها. كما أخبرهما عن شغله، والأماكن التي شغلها، والأرباح التي كسبها من عمله، ومدى تطور شخصيته على مدار الزمن، وكيف أنه كان في الهيئة التشريعية، ومن بعدها صار رئيسًا لجمعية المفكرين الأحرار، وأن الجمعية تأسست منذ أربع سنوات. مكونة من عضوين رئيسين، وكم أنها جمعية راسخة! دعا الأخوين لزيارة الجمعية في المساء إذا أرادا ذلك.

وفي طريقهم إلى الجمعية أخبرهما بكل شيء عن ويلسون المغفل. بقدر استطاعته حاول أن يعطيهما طابعًا إيجابيًّا عنه؛ يريدهما أن يحترماه ويحباه، وقد نجح في ذلك. ومما وطد هذا الانطباع الجيد عن ويلسون، أنه اقترح في الاجتماع ألا يتكلموا في المواضيع المعتادة مثل كل مرة، ومن أجل التوأم سيخصص ساعة كاملة للمحادثة حول مواضيع لها علاقة بتنمية العلاقات الودية

والمواضيع الاجتماعية التي تتكلم عن فضل الزمالة والود. وتم التصويت على هذا الاقتراح ووافق الأغلبية.

مرت ساعة بسرعة، مليئة بالأحاديث والنقاشات الحماسية. شعر ويلسون المُهمَل الوحيد أنه ربما كسب صديقين رائعين اليوم، فدعا التوأم ليتفرجا على بيته بعد أن أصبح ملكه وحده بشكل رسمي الآن. لبَّى التوأم الدعوة، ووجدا نفسيهما على الطريق ذاهبين إلى منزله في منتصف الليل! في هذا الوقت كان ويلسون في بيته ينتظر وصولهما؛ لكنه غرق في تفكير مُحيِّر؛ فقد حدث شيء غريب لاحظه هذا الصباح!

استيقظ ويلسون مبكرًا، بالأحرى استيقظ فجرًا، وبينما يمر من الصالة في منتصف بيته، قاصدًا الغرفة، رأى شيئًا من النافذة لافتًا للانتباه! تلك النافذة بالذات لم يُركِّب فوقها ستارًا؛ كانت في الجزء غير المفروش في البيت، والمنزل لم يكُن مأهولًا منذ مدَّة طويلة. رأى امرأة شابة غريبة لم يَرَ شبيهةً لها من قبل! كانت في منزل القاضي دريسكول، تحديدًا في غرفة النوم الموجودة في الطابق العلوي فوق مكتب القاضي الخاص وغرفة جلوسه. إنها غرفة الشاب توم دريسكول. لم يكن يتردد أحد على هذا المنزل سوى القاضي وأخته الأرملة السيدة برات وثلاثة من الخدم الزنوج. إذنْ مَن هذه المرأة؟

تفصل بين منزل القاضي دريسكول ومنزل ويلسون المغفل ساحة عادية، يمتد من منتصفها سياج خشبيّ يبدأ من الشارع الأمامي وحتى الممر الخلفي. لم تكن المسافة بين البيتين كبيرة. وتمكن ويلسون من رؤية الفتاة جيدًا، كما رأى خيالها عندما تروح وتجيء

في الغرفة. رآها ترتدي ثوبًا صيفيًّا أنيقًا جميلًا منقوشًا بخطوط عريضة وردية وبيضاء. غطت شَعرها بخمار وردي. بدا له أنها تتدرب على المشي بالكعب العالي، منغمسة جدًّا في عملها هذا. تُرى مَن تكون؟ وما الذي جاء بها إلى غرفة الشاب توم دريسكول؟

اختبأ ويلسون على الفور في مكان يمكِّنه من رؤية هذه الفتاة دون أن تلحَظ وجوده، وبقي هناك على أمل أن تخلع الفتاة خمارها ويرى وجهها بشكل واضح، لكنها خذلته. بعد حوالي عشرين دقيقة من المُراقبة، اختفت الفتاة! ورغم أنه ظل في مكانه نصف ساعة أخرى، إلا أنها لم تظهر أبدًا!

في ظهر اليوم ذاته ذهب ويلسون لمنزل القاضي زائرًا، جلس مع السيدة برات وصار يتحدَّث معها عن الحفل العظيم الذي أقيم للتوأم في منزل السيدة باتسي كوبر. ثم سألها عن ابن أخيها توم؛ فأخبرته أنه بالخارج وفي طريقه إلى المنزل. قالت إنها سعيدة هي والقاضي دريسكول؛ لأنهما يجمعان خطابات ودية يكتبها توم لهما بمصداقية وود كبيرين. أسرَّها ويلسون في نفسه، ولم يسأل أبدًا عن الفتاة الغريبة الموجودة في المنزل التي رآها في غرفة توم! لكنه يسألها أسئلة يمكن أن تقوده إلى معرفة الأمر فتوضح هوية الفتاة، هذا طبعًا إذا كانت السيدة برات تجيب بصدق وتقول الحقيقة. وفي نهاية هذه الجلسة ذهب مقتنعًا تمامًا أنه يعرف أشياء تحدث في منزلها هي شخصيًّا لا تعلم عنها شيئًا. ثم انتظر التوأم الذين سيزورانه في بيته، وهو لا يزال محتارًا ولا يعرف مَن تلك الفتاة؟ وكيف تصادف وجودها في غرفة توم فجرًا؟!

الفصل الثَّامن
فُرصة أخيرة للسَّيِّد توم

"الإخلاص والشغف والطبيعة المقدسة للصداقة، أشياء جميلة وتستمر طوال العُمر؛ طالما لم يطلب الصديق من صديقه أن يقرضه مالًا".

من مذكرات ويلسون المغفل

"ضَع في اعتبارك نِسَب الأشياء؛
فمن الأفضل أن تكون حشرة صغيرة من حشرات يونيو
على أن تكون طائرًا عجوزًا في الجنة".

من مذكرات ويلسون المغفل

كانت روكسانا في الخامسة والثلاثين عندما تحررت من العبودية وذهبت لتعمل خادمة على متن قارب تجاري في مدينة سينسيناتي ونيو أورليانز. تطلب الأمر منها رحلتين فقط لتعتاد على العمل وترتاح فيه. أذهلتها الحياة المستقلة التي عاشتها ومغامرة العيش على متن قارب بخاري. وسرعان ما تمت ترقيتها لتصير خادمة غرفة، هي المفضلة لدى القباطنة وطاقم العمل. كانت فخورة بذلك وسعيدة بمحبتهم إياها ومزاحهم الظريف معها.

على مدار ثماني سنوات متصلة، اشتغلت روكسي ثلاثة فصول من كل سنة على متن القارب، أما الشتاء؛ فتقضيه على أرض مدينة فيكسبيرغ. ولكن الروماتيزم أصاب ذراعيها منذ شهرين، فاضطرت أن تكفّ عن أعمال الغسيل، وسرعان ما استقالت بعدها. أما حالتها المادية فكانت جيدة. اعتبرت نفسها ثرية ووصفت نفسها بذلك؛ عاشت حياة مستقرة، وحصلت على أربعة دولارات كل شهر في نيو أورليانز كمعونة من المدينة لكبار السن. شعرت أنها منذ هذه اللحظة يمكنها الاستغناء عن الجنس البشري برمته؛ فهي لا تحتاج إلى مساعدة من أحد ومعها ما يكفيها من مال، تقتصد وتدخِّر للزمن، ولا تنفق إلا الضروري.

عندما رسا القارب على شاطئ نيو أورليانز، أخذت عدتها وحاجياتها وودعت رفاقها وداع المهاجرين، لكنها عادت إليهم بعد ساعة واحدة! فعندما ذهبت للبنك الذي تدخر فيه مالها، وجدته مهشّمًا ومحطّمًا ومعه أربعمائة دولار.. هي كل ما تملك في هذه الحياة. وفي لحظة واحدة عادت فقيرة مشردة! بل ومعاقة جسديًّا عاجزة عن العمل وكسب لقمة العيش! تعاطف القباطنة معها في ورطتها هذه، وجمعوا معًا قليلًا من المال لا يكفي لفعل شيء. عقدت روكسي العزم على الرجوع إلى مسقط رأسها. هناك لديها أصدقاء قُدامى من الزنوج عاثري الحظ، يساعدون مَن هم مثلهم، وهي متأكدة أن هؤلاء الذين رافقوها في الماضي لن يتركوها جائعة أبدًا.

أخذت روكسي متاعها وشدت رحالها إلى كايرو، وهي محطة ما قبل الوصول إلى مسقط رأسها.

المرارة التي شعرت بها تجاه ابنها في الماضي اختفت بمرور الزمن. نسيَت كل ما آسته معه، كل إحساس بالضغينة والمهانة، فكرت فيه بمُحايدة، ثم بحنين. تبدَّلَت في عقلها الذكريات السيئة بغيرها جميلة، أشياء لطيفة يفعلها في طفولته، ومشاعر دافئة لا تكون سوى بين الأُم وابنها. بلا وعي منها، أخذ عقلها يزيِّن الذكريات الحلوة، يُضيف عليها مُحسِّنات تجعلها أجمل وأبهى؛ حتى صار التفكير فيها مِن بهجة الحياة ومُتعها. تتوق إلى رؤيته، حتى لو ستضطر لتملُّقه تملُّق العبيد أسيادهم. ذكَّرَت نفسها أن هذا ما يجب أن يكون عليه سلوكها تجاهه. ربما يكون الزمن قد غيَّر طبيعة ابنها القاسية، وسيكون سعيدًا لرؤية مربيته القديمة المنسية منذ زمن طويل، وحتمًا سيعاملها بلطف. ما أجمل هذه الأفكار والخيالات التي من شأنها أن تنسيها ويلاتها وفقرها!

تضخَّمَت هذه الأفكار في رأسها، حتى تحوَّلت حلمًا كبيرًا؛ فلربما يعطيها أيضًا بعض المال بين الحين والآخر! دولار كل شهر مثلًا، أو أي مبلغ بسيط من شأنه أن يخلصها من الفقر والعوز!

وصلت روكسانا أخيرًا إلى داوسون لانديغ، عادت إلى ذاتها القديمة مرة ثانية. زال اكتئابها شاعرة أن قلبها يرفرف عاليًا في السماء. ستعرف كيف تحصل على لقمة العيش وتكسب بعض المال هنا بالتأكيد. عدد من زملائها -الخدم القدامى الذين يعملون في المطابخ- سيرحبون بها أيَّما ترحيب! سيعطونها الطعام ويساعدونها. يمكنهم أن يسرقوا من أسيادهم قليلًا من السُّكر والتفاح وبعض الأطعمة الأخرى لتحملها معها في سلَّتها إلى البيت،

ولو لم يفعلوا ذلك، على الأقل سيمنحونها فرصة لتسرق هذا الطعام بنفسها، وهذه فكرة لا بأس بها أيضًا. وهناك الكنيسة الميثودية التي اعتادت أن تزورها. ستعود للتردد عليها بروح أكثر إخلاصًا وإيمانًا أكثر من أي وقت مضى. صادقةً كانت في نيتها هذه. هناك كثير من وسائل الراحة هنا، ومكانها القديم لا يزال بالإمكان أن تعود إليه. ستكون سعيدة.. منذ هذه اللحظة وحتى نهاية عمرها.

في البداية ذهبت روكسي إلى منزل القاضي دريسكول، استقبلها أهل البيت بحماس وفرحة كبيرين. حكت لهم عن أسفارها الرائعة، والبلاد التي زارتها، والمغامرات الغريبة التي عاشتها. جعلها هذا الكلام -في عين زملائها الزنوج- بطلة أسطورية تحكي عن أعاجيب مُدهشة!

كانوا مسحورين بتجربتها الغريبة وقصصها المشوقة. يقاطعون كلامها طوال الوقت ليسألوها عن التفاصيل، ثم يستمعون لحكيها ببهجة خاطفة، يضحكون ويتعجبون لما يُقال، وأحيانًا يصفقون لها! بنَفس راضية صارت تقول بينها وبين نفسها أنه لو كان هناك شيء أفضل من العمل على أحد القوارب البخارية، فهو هذا الإحساس بالمجد عندما تحكي عن هذه التجربة!

أتخم الزنوج معدتها بالأكل، ثم سرقوا بعض الطعام من المخزن وملأوا به سلّتها.

أخبروها أن توم سافر إلى سانت لويس، وأنه يُمضي معظم أوقاته هناك خلال العامين الماضيين. ظلت روكسي تتردد على منزل القاضي دريسكول يوميًا، تتكلم مع الخدم وتسأل عن الأسرة

وأحوال كل فرد فيهم. وفي مرة سألت تشامبر المزيف عن توم، ولماذا هو غير موجود معظم الوقت. أجابها تشامبر:

- في الحقيقة.. السيد الكبير يشعر بالراحة أكثر وتتحسن حالته عندما يكون السيد الصغير بعيدًا. هو يحبه أكثر وهو خارج البلدة، ويعطيه خمسين دولارًا كل شهر.

- لا! معقول؟ تمزح يا تشامبر طبعًا.. أليس كذلك؟

- لا أمزح والله يا ماما. السيد توم أخبرني ذلك بنفسه. لكن لا تقلقي.. حتى هذا المال كله لا يكفيه.

- نعم؟ كيف لا يكفيه؟!

- حسنًا، سأخبرك. لكن أعطِيني فرصة يا ماما! لا يكفيه؛ لأن السيد توم يقامر.

ضربت روكسي بكفها صدرها في هلع، وطلبت من تشامبر أن يستكمل حديثه.

- اكتشف السيد الكبير موضوع المقامرة هذا؛ لأنه كان عليه أن يدفع مائتي دولار، وهو المبلغ المَدين به السيد توم. وهذا الكلام لا شك فيه. متأكد منه مثلما أنا متأكد أنني وُلدتُ.

- مائتا دولار! لماذا؟ ما الذي تقوله أنت؟ يا ربي! هذا المبلغ يكفي لشراء زنجي جيد مُستعمل! أنت لا تكذب يا عزيزي تشامبر؟ لا تكذب على أمك العجوز؟

- إنها الحقيقة والله يعلم. مثلما أخبرتك تمامًا. مائتا دولار. يا رب، أغلق كل الطرق في وجهي لو كنت أكذب! آه يا رب

لو رأيتِ السيد الكبير عندما عرف. كان سيفقد عقله. ليس هذا فقط، بل حرمه من الميراث.

- نعم؟!

- أقول لكِ حرمه من الميراث.

- كيف؟! ماذا تعني؟ تتكلم بجد؟

- نعم. هذا ما حدث.

- مستحيل أن يحرمه من الميراث ويعامله بهذه الطريقة! اسحب كلامك يا تشامبر! أيها الزنجي البائس الذي حملته في أحشائي بكل أسف!

حُلم أن يعطيها توم دولارًا كل شهر ينهدم أمام عينيها. لم تحتمل أعصابها خبرًا كارثيًّا مثل هذا. ورد فعلها المبالغ فيه أثار غيظ تشامبر. قال بحنق:

- لو أنني زنجي بائس، فمَن تكونين؟ نحن الاثنان واحد! نتشابه. زنوج ذوو بشرة بيضاء. هذه حقيقتنا. بل نحن تقليد للبشر، ولسنا بشرًا من الدرجة الأولى، بل تقليد طبق الأصل.

- اخرس يا أبله وإلا ضربتك على رأسك. أخبرني أكثر عن الميراث. قل لي إنه لم يحرمه من الميراث. هيا قل ذلك، وسأكافئك.

- لقد كتب وصية جديدة، وبذلك تم إنقاذ السيد توم مرة أخرى. ولكن ما دخلكِ أنتِ بهذا؟ لا أفهم!

- ما دخلي؟ ومَن له دخل غيري؟ أريد أن أعرف. ألم أكن أمه البديلة حتى أتم الخامسة عشرة؟ أم أن هذا لم يحدث؟ أجبني. وتريدني أن أرى مستقبله يضيع ويفلس ويورط نفسه في المشاكل ولا أهتم؟ لن تشعر بي إلا إذا جربت أن تصبح أمًا. وقتها لن تكون غبيًا إلى هذه الدرجة.

- حسنًا. السيد الكبير سامحه، وكتب الوصية من جديد. ارتحتِ.

- نعم. ارتحتُ، وسعيدة جدًا الآن.

استمرت روكسي في زيارة منزل القاضي دريسكول كل يوم حتى أخبروها أن توم قد عاد أخيرًا من السفر. ارتجف جسدها حماسًا، وتدفقت في قلبها العاطفة بدلًا من الدماء، أرسلت تشامبر على الفور ليتوسل إليه أن يقابل مربيته الزنجية العجوز، وأن يسمح لها بالنظر في وجهه ولو ثانية واحدة، وقتها لن تمانع أن تموت وهي مرتاحة البال.

كان توم ممدِّدًا جسده على الأريكة المريحة عندما دخل عليه تشامبر يرجوه أن يقابل المرأة. لكن يبدو أن الزمن لم يخفف من كرهه القديم للزنجية الكادحة التي ربته في طفولته، بل كانت كراهية مريرة لا هوادة فيها. اعتدل توم في جلسته ونظر بازدراء للشاب الواقف أمامه، الذي ينتحل اسمه دون أن يدري، ويتمتع بماله وبحقوقه في العَيش ويرتع في بيته، ظل يحدق فيه حتى شحب وجه تشامبر وارتعب من سيده. قال توم:

- ماذا تريد مني هذه المرأة العجوز؟

في خنوع كرر تشامبر الطلب، لكن توم رد بفظاظة:

- من أَذِنَ لك أن تأتي إلى هنا وتزعجني بمشاكل الزنوج واهتماماتهم الاجتماعية؟

نهض توم من جلسته، بينما سرت رجفة في جسد تشامبر؛ لأنه توقع ما سيحدث، طأطأ رأسه ورفع ذراعه اليسرى ليحميه من الضربة القادمة. قذفه توم بالأصفاد، فأصابت ذراعه ورأسه دون أن يجرؤ على النطق بكلمة. صرخ كالضحية متوسلًا:

- أرجوك يا سيد توم.. يكفي أرجوك..

ضربه توم سبع ضربات أخريات ثم زعق بحزم:

- وجهك للباب.. امشِ.

وعندما استدار تشامبر تلقى ثلاث ركلات موجعة قبل أن يختفي من أمام توم. بل إن الركلة الأخيرة ساعدته أن يطير إلى عتبة الباب، وابتعد وهو يعرج ويمسح عينيه من الدموع بكمه الممزق. صرخ توم بعد كل هذا قائلًا:

- دعها تدخل.

لاهثًا ألقى جسده على الأريكة قائلًا لنفسه: "وصل في اللحظة المناسبة! كان عقلي مزدحمًا بالأفكار المريرة التي لا أعرف كيف أنفث عنها. كم كان هذا منعشًا! أشعر أنني أفضل الآن!".

دخلت روكسي وأغلقت الباب خلفها. اقتربت من ابنها، ومزيج من المشاعر تعتمل بداخلها. مشاعر خوف واهتمام وحماس وحب. وقفت على بُعد ياردة منه، وبدأت كلامها بإبداء إعجابها بمكانته

ورجولته ووسامته، بينما وضع هو ذراعه تحت رأسه ورفع ساقه فوق الأريكة ليبدو غير مبالٍ بما تقول.

- كم كبرت يا عزيزي! يا ربي! شكلك تغير كثيرًا حتى أنني لم أتعرف عليك.. سيد توم، هل تذكر العجوز روكسي؟ هل تذكر أمك الزنجية يا عزيزي؟ آه.. الآن يمكنني أن أموت في سلام.. لأنني رأيتك و..

- اختصري. اللعنة! اختصري الكلام يا امرأة! ماذا تريدين؟

- يا ربي، ما هذا؟ ألم تتغير يا سيد توم؟ لماذا أنت قاسٍ على أمك العجوز يا عزيزي؟

- قلت اختصري كلامكِ وقولي ما تريدين.

شعرت روكسي بخيبة أمل مريرة، ساورها أمل كبير أن توم سيفرح إذا رأى مربيته القديمة، وسيسعد بقدومها، ويتفنن في إرضائها وإسعادها. ظنت أنه سيقول لها كلمة ودودة أو كلمتين. لكن هذا لم يحدث. حلمها الجميل صار الآن نكتة سخيفة لا تُضحِك أحدًا. أملها الكبير أصبح خطأً فادحًا ومثيرًا للشفقة. انجرح قلبها من قسوته، وشعرت بالخجل والعار، للحظة لم تعرف ماذا يجب أن تفعل، وكيف تتصرف. بدأت أنفاسها تضيق ودموعها تسيل من عينيها. وبما أن حلمها الأول لم يتحقق، فقد أحست أنه لا بد أن تجرب تحقيق حلمها الثاني! باندفاع قالت:

- آه يا سيد توم لو تعرف الورطة التي أنا فيها بسبب حظي العاثر! يدي شبه مشلولة الآن، ولا يمكنني ممارسة العمل كما كنت. هل يمكن أن تعطيني دولارًا واحدًا فقط؟

قفز توم واقفًا على قدميه فجأة بطريقة جعلت روكسي تشعُر بالارتباك والذهول، ابتعدت عنه فورًا خائفةً.

- دولار؟ أعطيكِ دولارًا؟ ولهذا جئتِ؟ تعلمين؟ لديَّ فكرة أفضل. ما رأيكِ أن أخنقكِ؟ انطقي..

اقتربت روكسي من الباب خائفة، ولكنها توقفت مكانها بعد ذلك وقالت محزونة:

- يا سيد توم، لقد خدمتك وأنت طفل صغير. كبَّرتُك وحدي حتى صرت رجلًا يافعًا. وأنت الآن شاب ثري. وأنا كبرت في السن وجئت إلى هنا وكُلي أمل أنك ستساعد مربيتك العجوز.

لم تُعجِب توم هذه الأسطوانة المحفوظة ونبرة الشحاذة والتوسل تلك، وفي الوقت ذاته شعر بالشفقة تجاهها، وخز كلامها ضميره النائم وأزعجه. وعندما كررت سؤالها مرة أخرى أجابها بهدوء ودون عناد هذه المرة؛ لأنه على كل حال ليس في وضع يسمح له بمساعدة أحد. سألته:

- ألن تساعدني يا سيد توم؟

وباقتضاب ردّ:

- لا. والآن اذهبي ولا تزعجيني مرة أخرى.

بعد أن كانت روكسي مُنحنية في تواضع مُنكَّسة الرأس، اشتعلت نيران الانتقام في صدرها، وتذكرت خطأها القديم، بدأت تلتاع بنيرانها رافعة رأسها للأعلى. اتخذ جسدها دون وعي منها وضعية

منتصبة شامخة، وبكل جلال وعِزَّة نفس رفعت سبابتها وهي تتكلم وقالت:

- آخر كلام عندك؟ أعطيتك فرصة وأنت ركلتها بقدمك. في المرة القادمة، عندما أعطيك فرصة ثانية، ستكون جاثيًا تحت قدمي ترجوني متوسّلًا.

قشعريرة باردة سرَت في شرايين توم، شعر بها في قلبه لسبب لا يعرفه! لم يتخيل أبدًا أن زنجية مثل هذه يمكنها أن تهدده بهذه الطريقة! وهي على ثقة تامة أنها على حقّ ولديها جرأة حيَرته! لكنه استجاب بالطريقة الطبيعية في مثل هذه المواقف. قال مستهزئًا:

- أنتِ ستعطينني فرصة ثانية؟ أنتِ؟ ربما من الأفضل أن أركع تحت قدميكِ الآن. ولكن لو لم أفعل، لأفهم فقط، ماذا سيحدث؟ ستدعين عليَّ؟

- لا. ما سيحدث هو أنني سأذهب مباشرة إلى عمك، وسأخبره بكل شيء أعرفه عنك.

تحول وجه توم جمرة من نار، ولاحظت هي ذلك. أفكار سيئة بدأت تتلاحق في عقله. يقول بينه وبين نفسه: "كيف عرفت؟ ولكن من الواضح أنها اكتشفت. هذا أكيد. عمي أعاد كتابة الوصية لي منذ ثلاثة أشهر فقط، وأنا غرقت في الديون مرة أخرى! وأفعل المستحيل لأنقذ نفسي من هذه الورطة دون أن ينفضح أمري أمامه ويضيع مستقبلي. وكان بإمكاني تدبر أمري وحدي لولا هذه الخبيثة التي لا أعرف من أين عرفت الأمر! ولا أعرف حتى ما الذي تعرفه بالضبط.

يا ويلي! هذا ما ينقصني. ولكن يجب أن أمزح معها وأجاريها في الكلام لأعرف ما الذي تخفيه. لا يوجد طريقة أخرى غير هذه".

انفجر بضحكة صاخبة غريبة، وبأسلوبه الخشن قال:

- حسنًا.. حسنًا يا عزيزتي روكسي. الأصدقاء القدامى مثلكِ ومثلي لا يجب أن يتشاجرا بهذه الطريقة. خذي. ها هو الدولار الذي طلبتِه. والآن أخبريني.. ما الذي تعرفينه؟

نجح بهذه الطريقة في ترويض القطة المفترسة الواقفة أمامه. والآن جاء دورها في السخرية منه ومن حماقته. فُرصة جاءتها ولن تضيعها أبدًا. ردها على كلامه أثبت له أن حتى العبيد يمكنهم أن يذكروا الإهانات التي تعرضوا إليها، بل ويمكنهم أيضًا الانتقام ممن أساءوا لهم في أول فرصة! بعناد وغموض غريبين ردّت روكسي وقالت:

- ما الذي أعرفه؟ سأخبرك. أنا أعرف ما يكفي لجعل عمك يمزق هذه الوصية للأبد. بل وأعرف أكثر من هذا.. بكثير.

مذعورًا سألها توم:

- أكثر بكثير؟ ما الذي يمكنك أن تعرفيه أكثر من هذا؟ هل هناك مزيد؟!

بسخريةٍ لاذعةٍ ضحكت روكسي. وضعت يدها على وسطها، ومستهزئة قالت:

- آه.. أعرف المزيد. تريد أن تعرف بدولارك اليتيم الذي لا نفع منه هذا؟ ماذا تعتقد أنني سأخبرك؟ ولماذا أخبرك

أنت؟ ليس لديك مال! سأذهب وأخبر عمك، يمكنني أن أفعل ذلك فورًا والآن، وسيعطيني خمس دولارات من أجل ما سأخبره به. ولعله سيكون سعيدًا أيضًا.

ابتعدت متوجهة إلى الباب وهي تمشي مختالة تهز خصرها، بينما أُصيب توم بحالة من الذعر الشديد. قفز من مكانه وأمسك ثوبها راجيًا إياها أن تنتظر. استدارت وقالت بأنف مرفوع:

- ماذا قلت لك منذ قليل؟

- أنتِ؟ ماذا قلتِ لي؟ لا أذكر!

- قلت لك إنني في المرة القادمة عندما أعطيك فرصة ثانية ستركع على قدميك وتتوسل إليَّ.

ذُهل توم للحظة. شعورٌ مزيج من الغضب والغيظ اعتمل في قلبه، قال:

- آه يا روكسي.. لا يمكنكِ أن تطلبي من سيدكِ الصغير شيئًا فظيعًا مثل هذا! أنتِ لا تقصدين ذلك بالطبع!

- سأجعلك تعرف فورًا إذا كنت أقصد ذلك أم لا. أنت تناديني دائمًا بأسماء قميئة كلما رأيتني. يا فقيرة، يا زنجية، يا حقيرة. رغم ذلك جئتك اليوم أمدح في رجولتك ووسامتك، وأُذكِّرك كيف خدمتك وأنت طفل صغير، وكيف اعتنيت بك وقت مرضك، ولم يكن لديك في هذه الحياة أمٌّ ترعاك غيري، وتوسلت إليك، أنا الزنجية الفقيرة، أن تعطيني دولارًا واحدًا لكي آكل. وأنت تستحقرني وتناديني بأسماء بشعة!

نعم يا سيد، أنا أعطيك فرصة واحدة فقط. هذه الفرصة هي الآن. ومدتها نصف ثانية فقط. هل تفهم؟

ركع توم بسرعة على ركبتيه وبدأ يتوسل إليها:

- ها أنا أتوسل إليكِ كما تريدين. وبصدق أفعل ذلك. والآن يا روكسي أخبريني.. أخبريني.

نظر إليها شاعرًا بالمهانة والغضب، بدا كأنها في غاية الرضى من إذلاله. قالت:

- شاب من الأسياد ذوي البشرة البيضاء راكع تحت قدم امرأة زنجية بائسة. كم أتوق لرؤية هذا المنظر ولو مرة واحدة في حياتي قبل أن أموت. والآن يمكن لجبريل أن يأتي ويأخذ روحي ولن يهمني؛ فأنا مستعدة الآن للموت. قُم.

نفذ توم أمرها وبتواضع قال:

- والآن يا روكسي، أرجوكِ لا تعاقبيني أكثر. لقد كنت أستحق هذا، لكن كوني رحيمة معي وأخبريني ما الذي تعرفينه؟ لا تذهبي وتقولي لعمي ما عرفتيه رجاءً. قولي لي أنا وسأعطيكِ خمس دولارات.

- نعم، أراهن أنك ستفعل. بل وستفعل أكثر من ذلك لتضمن سكوتي، لكنني لا أريد أن أخبرك.

- نعم؟

- هل تخاف من دخول المنزل المسكون؟

- كيف؟ المنزل المسكون؟ لا.. لا أخاف من دخوله!

- حسنًا إذنْ. تعالَ الليلة إلى المنزل المسكون، في العاشرة أو الحادية عشرة. واصعد الدرج الخشبي؛ لأن الدرج الأساسي مكسور، وهناك ستجدني أنتظرك. المنزل المسكون مكان جيد للمقابلة؛ فأنا لم أستطع أن أستأجر أي مكان آخر.

حدقت روكسي باتجاه الباب، ثم توقفت قبل أن تذهب وقالت:

- أعطني الدولار.

أعطاها توم ما طلبته. فنظرت روكسي للعُملة التي في يدها وقالت: "مممم.. يشبه المال الذي كان في البنك". سكتت برهة وأردفت: "هل عندك زجاجة ويسكي؟".

- نعم. لكن لم يبقَ فيها إلا القليل.

- أحضِرها إليَّ.

ركض توم إلى غرفته وأحضر زجاجة ويسكي ممتلئة الثلثين. وفورًا أمالتها روكسي على فمها وشربت منها. لمعت عيناها بارتياح وخبأت الزجاجة تحت شالها وقالت:

- ممتاز. سآخذها معي.

ثم خرجت منتصرة، ورغم ذلك لازالت تحمل بين جنبيها روحًا مثل القنبلة الموقوتة، قُدَّت من غضَب!

الفصل التَّاسع
توم يركَع مُتذللًا!

"لماذا نفرح في الولادة ونحزن في الجنازة؟
هذا لأننا لسنا الشخصَ المَعنيَّ".

من مذكرات ويلسون المغفل

"من السهل أن نجد عيوبًا في الأشياء؛ فهذه طبيعتُنا.
أعرفُ رجلًا لم يستطع العثورعلى أي عيب في فحمه؛
فاشتكى من وجود بقايا ضفادع تعود لعصرما قبل التاريخ فيه!".

من مذكرات ويلسون المغفل

ارتمى توم بجسده على الأريكة، واضعًا رأسه بين يدَيه، ضامًّا ركبتيه إلى صدره، يهزُّ جسدَهُ في أسًى، ويقول: "ركعتُ وتذللتُ لزنجية حقيرة! لا أسوأ مِن هذا المكروه يُمكن أن يحدُث لي! كل المصائب التي مررت بها في حياتي شيءٌ، وهذه المُصيبة شيءٌ آخر! حسنًا، هناك شيء إيجابي واحد في هذا الموضوع، وهو أنني -ولأول مرة- أصل إلى قاع الدونيَّة!".

سيكتشف توم في العاشرة مساءً من تلك الليلة أن استنتاجه كان متسرعًا. بوجه شاحب ونفسٍ بائسة ذهب إلى المنزل المسكون وارتقى السلم الخشبي. وجد روكسي في انتظاره أمام الباب؛ فقد سمعت صوته وهو قادم. هو منزل خشبي من طابقين، اشتهر بكونه مسكونًا بالجِن؛ فصار بلا نفع ولا فائدة. لا أحد يرغب في العيش فيه، ولم يجرؤ إنسان على الاقتراب منه ليلًا. وحتى في النهار، إذا اضطر أحد أن يمر بجواره، يمر من بعيد، ويترك بينه وبين المنزل مسافة واسعة. ولأن لا منزل في البلدة به هذه الصفات سواه، أطلقوا عليه لقب (المنزل المسكون). وبعد كل هذا الإهمال الطويل للمنزل، صار في حالة يُرثى لها من الفوضى والقذارة. كان المنزل على طرف المدينة وآخرها، خلف منزل ويلسون المغفل بثلاثمائة ياردة.

لم يفصل بين المنزلين شيء سوى مساحة فارغة.

تبع توم روكسي للغرفة، في أحد زواياها سريرٌ هو كومة من القشّ النظيف. على الحائط عُلِّقَت ملابس رخيصة، ولكن مغسولة جيدًا، ومصباح من الصفيح مُلقًى على الأرض، بُقعة صغيرة من الضوء التفَّت حوله. وصناديق صابون وشموع متناثرة هنا وهناك، تُستَخدم بدلًا من الكراسي. جلس كل منهما على صندوق. قالت روكسي:

- والآن سأخبرك بكل شيء بلا لف ولا دوران. بعد ذلك ستعطيني المال. لست مستعجلة. ماذا تعتقد أنني سأخبرك؟

- حسنًا يا روكسي. لا تصعبيها عليَّ. كوني مباشرة وقولي إنكِ اكتشفتِ كم أنا غبي وبددت كل مالي!

- ما أغباك! لا يا سيدي، ليس هذا الموضوع أبدًا. بل هذا لا شيء مقارنةً بما أعرفه عنك.

حملق توم في وجهها قائلًا:

- لا أفهم يا روكسي ماذا تقصدين؟!

قامت من مكانها ووقفت فوق رأسه مثل المُصيبة التي تحطّ على رأس إنسان، وقالت:

- أقصد -والله يشهد على أن كلامي حقيقي- أنك لست وريث السيد دريسكول. هذا ما أقصده.

انبعث من عينيها بريق غريب وشعرت بالنصر.

- نعم؟!

- نعم يا سيدي، وليس هذا فقط.. بل أنت زنجي. ولدت زنجيًّا وعبدًا. وأنت الآن -في هذه الدقيقة- زنجي وعبد! لو فتحت فمي وتكلمت وقلت ما أعرفه، سيبيعك السيد دريسكول في بلاد جنوب النهر قبل أن يزيد عمرُك يومين عن الآن!

- كذبة في منتهى الغباء! أنتِ يا بائسة يا غبية! كيف تكذبين بهذه الوقاحة؟!

- لا أكذب. هذه هي الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة؛ لذلك أنت مجبر على مساعدتي. نعم. أنت ابني!

- أنتِ شيطانة! والطفل الفقير الذي كنت تضربينه وتركلينه بقدميك وتهيننه هذا الصباح هو سيدكِ. هو ابن السيد بيرسي دريسكول الحقيقي! لستِ إنسانة! أنت مسخ!

- واسمه توم دريسكول. أما أنت فاسمك فاليت دي تشامبر. وليس لديك لقب عائلة؛ لأن عائلات الزنوج لا ألقاب لها!

غاضبًا قام توم وخطف خشبة من الأرض، رفعها بيده وهَمَّ بضربها؛ ففوجئ بها تضحك ساخرة وهي تقول:

- اجلس يا بائس.. اجلس. تعتقد أن بإمكانك إخافتي؟ أمثالك لا يستطيعون أن يخيفوا أحدًا. أنت من النوع الذي يضرب المرء من خلف ظهره، لا من أمامه وفي وجهه هكذا. هذا إذا أتيحت لك الفرصة طبعًا. إنها طبيعتك! جبان. أعرفك جيدًا. وليس عندي مانع إذا قتلتني؛ لأن ما أقوله الآن مكتوب ومحفوظ في أيدٍ أمينة، والرجل الذي معه هذه المعلومات يعرف جيدًا إلى أين يذهب وكيف يتصرف إذا قُتلتُ. تعتقد أن أمك غبية مثلك ولا تُؤَمِّن نفسها؟ لا يا حبيبي هذا غير صحيح. والآن اجلس بهدوء وتحكم في نفسك، ولا تقمْ مرة أخرى إلا بإذن مني.

لم يعرف توم ماذا يفعل! زوبعة من الأحاسيس المشوشة وثورة من مشاعر مُتناقضة أشعراه بالارتباك والضياع. وأخيرًا قال بعد أن استسلم واقتنع:

- كل ما أقوله هباء. افعلي ما شئتِ فقد سئمتُ منكِ.

التقطت روكسي المصباح من الأرض، واتجهت نحو الباب دون أن تجيبه. حركة مثل هذه أصابت توم بالذعر؛ فقال صارخًا:

- تعالي هُنا. لم أقصد ذلك يا روكسي. اعتبريني سحبت كلامي. لن أقول ذلك مرة أخرى. عودي إلى هنا.

وقفت المرأة في مكانها للحظة، ثم بجدية وحزم قالت:

- هناك شيء واحد عليك أن تتوقف عن فعله يا فاليت دي تشامبر. لا تنادِني باسمي روكسي هكذا كأنَّ مثلك مثلي! الأطفال لا يتكلمون بهذه الطريقة مع أمهاتهم. قُل (ماما) أو (أمي). هذا ما ستناديني به، على الأقل عندما نكون وحدنا ولا أحد يسمعنا. هيا.. قُلها.

لم تكُن الكلمة هيّنة على توم. صراع عنيف احتدم بينه وبين نفسه، لكنه تغلب عليه أخيرًا ونطق بها:

- حسنًا يا... ماما.

- برافو. لا تنسَ مرَّةً أُخرى، إذا كنت تعرف مصلحتك طبعًا. وآخر مرة أحذرك، لا تقُل إنني أكذب مرة ثانية. فهمت؟ وإلا سأذهب مباشرة إلى القاضي وأخبره مَن أنت، وسأثبت له ذلك بالأدلة. هل تصدقني عندما أقول لك هذا؟

- آه، نعم.. أصدقكِ. أعرف أنكِ ستفعلينها.

نجحت خطة روكسي. لم يكُن عندها أي إثبات على كلامها، ولا يمكن أن تثبته لأي شخص كان! كل تهديداتها كذب في كذب، لكنها تعرف توم جيدًا، وتعرف أنه سيصدق هذه الكذبة مثل الأبله؛

فقالت كلامها واثقة جدًّا من تأثيره عليه. ذهبت وجلست على صندوق الشمع شاعرة بفخر وعزة جعلا من هذا الصندوق عرشًا وهي الملكة!

قالت:

- والآن يا تشامبر، لنتكلم في الشغل. يكفي الكلام في تفاهات. أنت تحصل على خمسين دولارًا شهريًّا. ستعطيني أكثر من نصفها. أخرجها من حساباتك.

لكن كل ما كان يملكه توم هو ست دولارات فقط! أعطاها إياها ووعدها أن ينفذا الخطة بدءًا من الشهر المقبل.

- بكَم أنت مديون يا تشامبر؟

مرتجفًا قال:

- بحوالي ثلاثمائة دولار.

- وكيف ستدفع هذا المبلغ؟

متحسرًا قال:

- لا أعرف فعلًا. لا تسأليني مثل هذه الأسئلة المروعة.

لكنها أصرت أن تعرف طريقته في السداد، واعترف لها أنه يتجول في البلدة متنكّرًا، ويسرق أشياء باهظة الثمن من المنازل المجاورة. حكى لها أنه قبل أسبوعين من الآن، قام بغارة كبيرة هو وزملاؤه القرويون، وكذب على جميع مَن في المنزل وأخبرهم أنه في سانت لويس. لكنه لا يعرف إذا كان ثمن هذه الأشياء المسروقة سيكفي لسداد الدَّين. وعبَّر لها عن خوفه من القيام بغارة ثانية؛ لأن

أحوال البلدة ليست مستقرة ولا هادئة هذه الأيام. لم تعترض أمه على سلوك اللصوص هذا! بل عرضت عليه المساعدة. أربكه رد فعلها. تردد وارتجف جسده خوفًا قبل أن يغامر ويخبرها أنه سيشعر بالأمان أكثر لو سافرت خارج البلدة. وقبل أن يدخل في جدال معها، فُوجئ أنها مستعدة لتنفيذ رغبته هذه بكل سرور! أخبرته أن مكان إقامتها لا يفرق معها، طالما أنه سيعطيها نصيبها من المعاش بانتظام. أخبرته أنها ستسافر بعيدًا وتجيء إلى المنزل المسكون مرة كل شهر لتأخذ منه المال. ثم قالت:

- لا أكرهك جدًّا الآن. لكنني كرهتك قبل سنوات طوال، وأي أم غيري لو كانت مكاني ستكرهك. ألم أغير ظروفك؟ أعطيتك اسمًا جديدًا، وعائلة تفتخر بها.. جعلتك سيدًا من ذوي البشرة البيضاء، ثريًّا، نبيلًا، وعندك ملابس فخمة وأنيقة لترتديها.. وأنت ماذا فعلت لي في المقابل؟ احتقرتني دائمًا. ناديتني بأبشع الألقاب أمام الجميع. كنت تناديني يا زنجية، يا حقيرة..و.. و...

أشفقَت على نفسها، فسقطت على ركبتيها، وانفجرت في بكاء مرير. رد توم:

- لم أكن أعرف أنكِ أمي. وأيضًا...

- لا يهم الآن. دعنا ننسَ كل هذا. سننسى.

تمالكت نفسها وبشراسة أردفت:

- لا تجعلني أتذكر هذا مرة أخرى، وإلا ستندم. ها أنا أحذرك.

وقبل أن يفترقا، سألها توم بوداعة المستسلمين للأقدار المصيرية:

- ماما، هل يمكنكِ إخباري مَن أبي؟

اعتقد أن سؤالًا مثل هذا سيحرجها، لكنه كان مخطئًا؛ رفعت روكسي رأسها بشموخ وفخر قائلة:

- تظن أنني لا أريد إخبارك؟ أو أنني سأشعر بالذُّل وأنا أقولها؟ لا.. هذا غير حقيقي. هل تعرف لماذا؟ لأنه لا يوجد أي سبب يجعلك تشعر بالعار تجاه والدك الحقيقي. أبوك كان رجلًا مهمًّا في البلدة، لو لم يكن هو الأهم. كان رجلًا فخمًا، من صفوة العائلات، وعائلته نبيلة مثلها مثل عائلة دريسكول وعائلة هاوارد.

تنفست روكسي وسمحت للهواء أن يتسلل إلى أعمق نقطة في صدرها، وأضافت بفخر وإعجاب:

- تذكُر الكولونيل سيسل بيرلي إيسيكس؟ الرجُل الذي مات في العام ذاته الذي مات فيه أبو السيد توم دريسكول؟ والذي أقام له الماسونيون وفرسان الكنائس النبلاء أكبر جنازة شهدتها البلدة على الإطلاق؟ هذا هو أبوك.

شعرت روكسي بارتياح أرضاها. أعادها إلى أيام الماضي التي لا تعود. تلك الأيام التي تشعر فيها أنها ملكة متوجة. كم تغيرت الظروف الآن! ختمت كلامها مع توم بقولها:

- لا يوجد زنجي في هذه البلدة عنده عائلة مشرفة مثلك. والآن.. اذهب وامشِ ورأسك مرفوع بعزة وكرامة بقدر ما استطعت. أنت ابن عائلة كريمة، يحق لك هذا.

الفصل العاشر
ظُهور الحورية

"الجميع يقولون: ما أصعب أن نموت!
شكوى غريبة من أناس مجبرين على العَيش!".

من مذكرات ويلسون المغفل

"عندما تغضب، عدّ إلى أربعة.
عندما تغضب جدًّا،
احلف!"

من مذكرات ويلسون المغفل

كلما غفا توم قليلًا، توقِظه من نومه فِكرة مُريعة! يفزُّ من مكانه ناظرًا حوله في هلع ويقول: "الحمد لله يا رب. كان مجرد كابوس!"، ولكنه يكتشف بعد لحظات قليلة أنه لم يكُن كابوسًا، بل حقيقة!

- زنجي؟ أنا زنجي! آه.. كم أود لو كنت ميتًا!

كلما نام وخزت الفكرة رأسه، فيقوم مرعوبًا. تكرار مرعب لا ينتهي؛ فقرر ألا ينام. أفكار مريرة عصفت في عقله. غرق في تأملات وتساؤلات لا إجابة لها: "لماذا هناك زنوج وأناس ذوو بشرة بيضاء؟!

ما ذنب أوّل زنجي خُلِق؟ ما جريمته التي فعلها ليولد زنجيًّا ويورثنا هذا العِرق؟ لماذا حُكِمَ عليه بلعنة الولادة أصلًا؟ ولماذا هذا الاختلاف الظالم بين ذوي البشرة البيضاء والزنوج؟ ولماذا مصير الزنوج صعب دائمًا؟ لم يخطر ببالي أبدًا مثل هذه الأفكار قبل هذا الصباح!".

ظل توم يتأوه ويتحسر حتى طلعت الشمس، وجاء تشامبر بكل تواضع ليخبره أن الإفطار على وشك أن يجهز. فور أن رآه توم، تجمَّع الدم في وجنتيه، صار وجهه قرمزيًّا مِن الخجَل. ها هو شاب من المفترض أنه سيده الحقيقي، ينحني له باحترام، بينما هو زنجي بائس وينادونه السيد الصغير.

بخشونة أمره توم:

- ابتعدْ عن وجهي.

ابتعدَ الفتى في خنوع، بينما قال توم في نفسه: "لا حق لي في إيذاء هذا المسكين. لكنني أصبحت أكرهه الآن؛ فهو من عائلة دريسكول! هو السيد الصغير الحقيقي وليس أنا. يا ليتني مت".

انفجار بركاني عملاق مثل ذلك الذي حدث في كراكاتوا[1] قبل بضع سنوات، تصاحبه زلازل وغيوم سوداء ضخمة، كارثة من شأنها أن تغيِّر منظر الطبيعة المُحيطة؛ فلا تعود كما كانت أبدًا. تجد الأراضي المرتفعة قد هبطت، والوديان تحوَّلت جبالًا. بحيرات تتفجر في بقع كانت في الأصل صحراوية جافة! مروج خضراء تتصحَّر. ما أشبه هذه الظاهرة الطبيعية بما حدث لتوم! تلك الكارثة

(1) جزيرة بركانية تقع في مضيق سوندا بين جزيرتَي جاوة وسومطرة في إندونيسيا.

الهائلة التي حلَّت عليه غيَّرت صفاته وأخلاقه بالطريقة ذاتها. فبعض صفاته الدنيئة قد تبدَّلت صفات فيها من النُّبل والمثُل العُليا! وأفكار أخرى كان معتادًا على التفكير فيها، غرقت الآن في وديانٍ سحيقة ورُدمت تحت رماد الحجر والصخور الكبريتية حتى انعدمت.

بدأ توم يتجوَّل بمفرده في أماكن مُنعزلة عن الناس. يسير وعقله شارد في أفكار متلاحقة، يحاول أن يعرف كيف يتأقلم مع وضعه الجديد. عاداته التي تظهر فور أن يقابل أحد الأصدقاء قد تغيَّرت. فإذا قابل صديقًا بالصدفة لا يمد يده ليصافحه بثقة مثلما كان! تظل يده معلقة في الهواء مترددًا أيمدّها لصديقه أم أن هذا لا يصح لأنه زنجي؟! يعتريه إحساس بالخجل من نفسه.

تفاجأ بروح الزنجي الموجودة بأعماق وجدانه عندما يبادر أحد الأسياد بمصافحته، بل ويفسح الطريق لشاب أبيض يتسكّع ولا يلوي على شيء، فقط كي لا يزعجه! حتى روينا -أعز مخلوقة على قلبه والتي يحبها حبًّا يكاد يصل للعبادة- عندما دعته للدخول إلى البيت اعتذر مُحرَجًا وخاف أن يجالس ذوي البشرة البيضاء كأن مثله مثلهم! صار ينكمش وينطوي على نفسه لا يختلط بأحد، يتخيل أنه مشتبه فيه دائمًا وأن أمره ربما ينكشف في أي لحظة. كل صوت وكل إيماءة من الآخرين يشعرانه بالخطر. كل الوجوه صار يخشاها كأنها تتطلع فيه بشك وريبة. تغير سلوكه لدرجة جعلته ملفتًا للنظر أكثر! أثار انتباه الجميع؛ فصاروا ينظرون له عندما يمرّ، ويطيلون النظر. يرى هو تعبيرات وجوههم المتسائلة المُحيِّرة فينخلع قلبه خوفًا. وقتها يفرُّ هاربًا بسرعة ويحاول أن يختفي عن الأنظار.

يساوره شعورٌ دائمًا أنه مُطارَدٌ، ونظرات الناس تُلاحقه كأنه مجرم هارب من العدالة. يهرب إلى قمم التلال البعيدة ويختار العُزلة. أصبح لديه شعور عميق أن لعنة حام[1] قد حلَّت عليه.

كل أفعاله التي تصدر عنه بتلقائية، يخشى الإقدام على فعلها الآن ويتردد ألف مرة قبل أن يتصرَّف بطبيعته. يخجل من الجلوس إلى المائدة مع أهل البيت -الأسياد ذوي البشرة البيضاء- وعندما سأله عمه القاضي دريسكول ذات مرة: "ماذا بك؟ تبدو وديعًا مثل الزنوج!"، انخلع قلبه من مكانه، ساوره الشعور ذاته الذي يشعر به قاتل عندما يسمع أحدًا يقول: "هذا هو الرجُل".

ردّ توم على عمه وقتها وقال إنه ليس على ما يُرام، وفورًا غادر الطاولة.

أصبح تودد عمَّته إليه مصدرًا للذُّعر والخوف؛ فصار يتجنبها.

---

(1) وردت قصَّة لعنة حام (التي حلَّت على ابنه كنعان) في سفر التكوين، وهي لعنة أصابه بها أبوه نوح. هُناك جدل حول سبب إصابة اللعنة لكنعان رغم أن حام هو الذي فعل فعلًا مخزيًا؛ فقد رأى عورة أبيه. وقتها كانت رؤية العورة فعلًا جللًا. على الرغم من ذلك فسر بعض الدارسين المعاصرين أن هذه القصة هي تسويغ لسلب أراضي الكنعانيين على يد بني إسرائيل، بينما فسرها بعض اليهود والمسيحيين على أنها شرح وتفسير للون البشرة الأسود وعلاقته بالعبودية. هذا التفسير الأخير تم رفضه مؤخرًا من المسيحيين واليهود؛ حيثُ يقولون إن حام ليس ملعونًا في النص التوراتي. كما أن العرق واللون لم يتم ذكرهما أيضًا. لكن الكاتب هُنا يشير بهذه اللعنة إلى قصة العبودية والتمييز بين ذوي البشرة السوداء، وذوي البشرة البيضاء. (المترجم).

تفاقمت كراهيته لعمه وملأت قلبه مع مرور الوقت. يقول لنفسه دومًا: "هو السيد الأبيض، وأنا لست سوى شيء من ممتلكاته. بإمكانه بيعي مثلما يبيع كلابه". وطوال أسبوع بعد ذلك، ظلّ يشعُر أن شخصيته تتبدَّل وتتغير. هذا لأنه لا يعرف نفسه ولا يفهمها جيدًا. نعم قد تغيرت آراؤه في أشياء كثيرة، ولن تعود كما كانت من قبل أبدًا. لكن الهيكل الرئيس لبناء شخصيته لن يتغير مهما حدث. يمكن أن تتبدل فيه سمة أو سمتان مهمتان، وهذا بمرور الزمن وبفِعل آثاره التي يتركها في الوجدان، ولكن لا يمكن لأحد أن يتغير تغيّرًا جذريًّا كاملًا.

ما حدث كان له تأثير كبير وخطير على سلوكه وتصرفاته واضطراباته العقلية وأخلاقه. لكن بعد أن هدأت العاصفة، بدأ وضعه في الاستقرار. بالتدريج عاد إلى عاداته القديمة الطائشة، واستعاد شخصيته المتعجرفة وطريقته في الكلام. عاد مثلما كان حتى أن مَن حوله لم يستطيعوا التفرقة بين توم اليوم وتوم الذي يمر بحالة أشبه بالهزَّة النفسية والضعف البيِّن في الأيام الفائتة.

أنقذته الغارة التي قام بها على بعض بيوت البلدة، ووجد أنه كسب منها أكثر مما كان يأمل. عندما باع المتعلقات المسروقة كسب المبلغ اللازم لسداد ديونه في القمار. أنجاه هذا من احتمالية تمزيق عمه لورقة الوصية مرة ثانية. أما هو وأمه فقد عرفا كيف يتعاملان معًا. حتَّى الآن، لم تستطع روكسي أن تحبه مثلما تحب الأم ابنها؛ لأنها تعرف أنها لا شيء بالنسبة إليه. لم تغفر له الإساءات التي وجهها إليها بَعد. لكن طبيعة شخصيتها المسيطرة كانت بحاجة

لشخص ضعيف مثله لتتحكم فيه، تأمره فيطيع، يملأ عليها حياتها الخاوية مِن كل قيمة وفائدة.

شخصيتها القوية وطبعها العدواني أعجبا توم، رغم حقيقة أنه في وجودها لم يعُد مرتاحًا وحُرًّا في تصرفاته كالسابق. لكن - بشكل عام- استمتع توم بالاستماع إليها في جلسات النميمة التي تحدث بينها وبينه من وقت لآخر. تحكي له حكايات مُدهشة، متعلقة دائمًا بخصوصيات العائلات الكبيرة في البلدة (فهي كلما جاءت للبلدة راحت لمطابخهم تحصد منها المؤَن بقدر ما استطاعت، وتثرثر مع عبيدهم). هذه الحكايات تفيده أحيانًا في غاراته. يعطيها نصف معاشه شهريًّا في الموعد المحدد، ومكان مقابلتهما هو المنزل المسكون. أحيانًا تزوره قبل المعاد أيضًا. أما هو؛ فكان يزور سانت لويس من وقت لآخر، حتى رجع لعادته القديمة واستسلم لإغراء المقامرة مرة أخرى. ربح مالًا كثيرًا، سرعان ما خسره. صار مديونًا بمبلغ آخر، وعد أن يسدده قريبًا، وخطط لغارة جديدة يقوم بها على بلدته. لم يجرب أن يورط نفسه أبدًا في السرقة من بلدات أخرى؛ إذ يخشى المغامرة لدخول منازل لا يعرف مداخلها ولا مخارجها، ولا يعرف أصحابها وعاداتهم اليومية.

قبل ليلة وصول التوأم إلى البلدة، اختبأ توم متنكرًا في المنزل المسكون. كانت ليلة أربعاء. وقد كتب وقتها لعمته برات أنه لن يصل البلدة إلا بعد يومين. وظل مختبئًا هناك مع والدته حتى نهار الجمعة صباحًا. يومها تسلل إلى منزل عمه من الشارع الخلفي، وفتح البوابة بمفتاحه الخاص، ومنها تسلل إلى غرفته حتى يبدل ملابسه

التنكرية ويستخدم المرآة والمرحاض. وقتها كان يحمل في صرّته ملابس تنكرية لامرأة؛ حتى إذا احتاجها في الغارة، وكان يرتدي ثوبًا من ثياب أمه، وقفازات سوداء وخمارًا. نزل لينفذ غارته من جديد، وعندما حلّ وقت الفجر، حدثت مشكلة، وتعرض للخداع؛ فاضطر أن يعود مسرعًا إلى بيت عمه. وقتها لمح ويلسون المغفل من خلال نافذة غرفته التي تطل على الطريق. وانتبه أن ويلسون ينظر إليه ورآه؛ لذلك ظل يتصرف كأنه امرأة، يمشي مثل النساء، ويمتع ويلسون بأجواء وتصرفات وحركات لا تفعلها سوى امرأة. ثم اختفى بعد ذلك وبدل ملابسه بالملابس الاحتياطية التي معه، وعاد متسللًا إلى الطريق، ينوي أن يستأنف مداهمته أحد البيوت. خرج لوسط البلد يراقب الجو ويحسب حساباته، لكنه لم يكن مرتاحًا. فكر أن يعود للبيت ويرتدي أحد ثياب روكسي مرة أخرى، ويمشي منحني الظهر؛ حتى إذا لمحه ويلسون يعتقد أنه امرأة عجوز؛ فلا يأبه لوجودها ولا ينتبه لخروجها من منزل أحد الجيران في الصباح الباكر. هذا إذا كان يتجسس عليه فعلًا. لكن ماذا لو رأى ويلسون هذه العجوز وشعر أنها امرأة غريبة وتتبعها؟ مجرد التفكير في هذا جعل قشعريرة باردة تسري في جسده. قرر أن يلغي الغارة هذا اليوم، وعاد إلى المنزل المسكون بأكثر الطرق حذرًا وسرية. لم يجد والدته في البداية، لكنها عادت بعد ذلك لتخبره عن أنباء الاستقبال الكبير للتوأم في منزل عائلة باتسي كوبر. وأقنعته أنها فرصة مثالية لإتمام غارته؛ لأن أهل البلدة جميعهم مجتمعون في منزل باتسي كوبر. أطاعها توم وذهب لينفذ سرقاته. حقق يومها نجاحًا مهولًا. أعطاه هذا النجاح غير المسبوق الثقة بالنفس والشجاعة المطلقة؛ حتى أنه

عندما قابل أمه في زقاق خلفي وسلمها كل المسروقات راح بنفسه لحفل الاستقبال! ليس هذا فقط، ولكنه سرق من منزل باتسي كوبر أيضًاعدة أشياء.

وبعد أن استطردنا في هذا الحديث الطويل، نعود مرة أخرى للحظة التي جلس فيها ويلسون المغفل في بيته منتظرًا وصول التوأم لزيارته مساء يوم الجمعة نفسه. في حيرة كان جالسًا يفكر في الظهور الغريب لتلك المرأة الغريبة التي رآها في غرفة توم دريسكول! يحاول جاهدًا تخمين مَن تكون هذه الوقحة التي تتحرك وتتصرف بطريقة مَن لا حياء عنده ولا خجل؟!

الفصل الحادي عشر

اكتشاف ويلسون المُذهِل

"ثلاث طرق مضمونة لتُرضي مؤلِّفًا، كل طريقة أعلى مرتبة من الأخرى في فن الإطراء:

1. تخبره أنك قرأت أحد كتبه.

2. تخبره أنك قرأت كل كتبه.

3. تطلب منه السماح لك بقراءة مسودة عمله القادم.

الأولى ستجعله يحترمك. الثانية ستجعله يُعجب بك. أما الثالثة فتفسح لك مكانًا في قلبه".

من مذكرات ويلسون المغفل

"مثلما يقولون: ما تشُكَّ فيه، اشطبه من حساباتك".

من مذكرات ويلسون المغفل

امتلأ بيت عائلة باتسي كوبر بالثرثرة والأحاديث المَرِحة. صداقات جديدة تكوَّنت منذُ وصول التوأم، تجمع الجيران من المنازل المجاورة ليشهدوا هذا الحدث الرائع. علاقات مريحة وسهلة خُلقت من العدم. وبناءً على طلب بعضهم، أخرج ويلسون

الفصل الحادي عشر
اكتشاف ويلسون المُذهِل

"ثلاث طرق مضمونة لتُرضي مؤلِّفًا، كل طريقة أعلى مرتبة من الأخرى في فن الإطراء:

1. تخبره أنك قرأت أحد كتبه.

2. تخبره أنك قرأت كل كتبه.

3. تطلب منه السماح لك بقراءة مسودة عمله القادم.

الأولى ستجعله يحترمك. الثانية ستجعله يُعجب بك. أما الثالثة فتفسح لك مكانًا في قلبه".

من مذكرات ويلسون المغفل

"مثلما يقولون: ما تشُكّ فيه، اشطبه من حساباتك".

من مذكرات ويلسون المغفل

امتلأ بيت عائلة باتسي كوبر بالثرثرة والأحاديث المَرِحة. صداقات جديدة تكوَّنت منذُ وصول التوأم، تجمع الجيران من المنازل المجاورة ليشهدوا هذا الحدث الرائع. علاقات مريحة وسهلة خُلقت من العدم. وبناءً على طلب بعضهم، أخرج ويلسون

المغفل مذكراته. عندما قرأ صفحة أو صفحتين منها، أثنى عليه التوأم بحرارة. وهذا التصرف أرضى المؤلف لدرجة أنه أطاعهما بكل بسرور عندما طلبا أن يأخذا جزءًا من هذه المذكرات ليقرآها في المنزل. فمن خلال رحلاتهما الكثيرة اكتشفا أن هناك ثلاث طرق لإرضاء المؤلف؛ اختاروا أن ينفذوا أفضلها.

قاطعهم السيد دريسكول الصغير بظهوره المفاجئ في الحفل. تظاهر توم أنه لأول مرة يرى التوأم الأجنبيين عندما صافحاه. لكن هذا مجرد تضليل؛ فقد ألقى عليهما نظرة خاطفة في حفل الاستقبال عندما سرق المنزل. لاحظ التوأم أن لتوم بشرة ناعمة وأنه وسيم، مفرط الحركة أيضًا، ولكن في رشاقة وخفة. اعتقد أنجلو أن له عينين جميلتين، بينما اعتقد لوجي أن هناك شيئًا ماكرًا وغامضًا بشأنه. أنجلو رأى أن لتوم طريقة ممتعة ومرحة في الكلام، بينما رأى لوجي أن كلامه مبالغ فيه. ظن أنجلو أنه شاب لطيف، وتمسك لوجي برأيه المُعارِض لرأي أخيه. وكان أول ما تحدث به توم في المحادثة سؤال وجهه إلى ويلسون مائة مرة من قبل؛ يحب أن يزعجه مرارًا وتكرارًا بهذا السؤال المحرج، كأنه يطأ على جرح أو ندبة في قلب ويلسون، ويسبب له الألم. واليوم سأله هذا السؤال أمام الغريبين الأجنبيين!

- حسنًا، ما أخبار القانون هذه الأيام يا ويلسون المغفل؟ ألم تجئك قضية واحدة حتى الآن؟

عض ويلسون على شفتيه مجيبًا، وهو يحاول أن يبدو كمن لا يبالي ولا يتأثر:

- لا. ليس بعد.

ولم يكن القاضي قد أخبر التوأم أن ويلسون محامٍ من قبل. ضحك توم ساخرًا وقال:

- ويلسون محامٍ يا سادة. لكنه محامٍ مع إيقاف التنفيذ.

سيطر ويلسون علَى أعصابه ولم ينجرفْ لاستفزاز توم. وبلا أي انفعال ظاهر قال:

- نعم. أنا لا أمارس المهنة. صحيح. وأيضًا لم تأتني أي قضية بعد. واضطررت لكسب لقمة العيش منذ عشرين عامًا وحتى الآن في بلدة لا أستطيع الحصول فيها على الكتب الضرورية للتثقف كيفما أريد. ولكنني لم أتوقف عن ممارسة ما تعلمته في حياتي اليومية. اشتغلت على موهبتي ونميتها؛ حتى عندما صرت في عمرك يا توم اخترت المهنة التي سأعمل فيها وأصبحت مؤهلًا لها. وعلى الرغم من أنني لم أعمل على قضية واحدة بعد، إلا أن الفرصة إذا جاءت ستجدني مستعدًّا لها تمام الاستعداد؛ لأنني لم أكف عن دراسة القانون طوال هذه السنوات.

"هذه هي روح المثابرة. لديَّ فكرة. سأوكلك محاميًا لكل أعمالي، شغلي مع دراستك سيشكلان فريقًا ممتازًا يا دايف"، وضحك السيد الصغير مستهزئًا.

"إذا كنت ستوكلني،..."، فكر ويلسون في المرأة المجهولة التي رآها في غرفة نوم توم، وكان على وشك أن يقول: "إذا كنت ستوكلني محاميًا لأعمالك المشبوهة السرية؛ سيصبح عندي قضايا لا حصر لها"، لكنه تراجع بعد أن فكر قليلًا وقال بدلًا من هذا: "ومع ذلك لا يمكننا مناقشة مثل هذه الأمور في محادثة عامة".

- حسنًا. سنغير الموضوع قبل أن تعطيني درسًا آخر في الأخلاق. حسنًا.. أخبرنا إذنْ كيف حال الغموض هذه الأيام؟ هل تعرفون أن ويلسون يحتفظ عنده بشرائح زجاجية عليها علامات من أصابع الناس؟ ويبيعها بأسعار زهيدة جدًا للرؤساء المتوجين في أوربا ليزينوا بها قصورهم الفخمة؟ هيا يا دايف أحضر هذه الشرائح.

أحضر ويلسون ثلاث شرائح زجاجية، وقال:

- كل ما في الأمر أنني أجعل الشخص يمرر أصابعه في شَعره، وبهذه الطريقة تتشكل طبقة من الزيت الطبيعي عليها. ثم أطلب منه أن يضغط بأطراف أصابعه على الشريحة الزجاجية، حيث تنطبع بصمة لأدق الخطوط في الجلد، فتظل موجودة للأبد، إذا لم يمسها أحد أو يتم فركها بأي شيء آخر. لنبدأ بك أنت يا توم.
- لماذا؟ أنت أخذت بصماتي مرة أو مرتين من قبل.
- نعم، لكنك وقتها كنت طفلًا صغيرًا وعمرك اثنا عشر عامًا فقط.
- صحيح طبعًا. لقد تغيرت تمامًا منذ ذلك الحين، وأعتقد أن الرؤساء المتوجين الذين تبيع لهم هذه الشرائح الزجاجية يحبون التنوع.

مرر توم أصابعه في شَعره القصير، ثم ضغط طرف كل إصبع على الشريحة الزجاجية. كرر أنجلو الأمر ذاته على شريحة أخرى، وتبعه

لوجي. كتب ويلسون الأسماء والتاريخ على كل شريحة ووضعها بعيدًا. ضحك توم ساخرًا، وقال:

- كنت أنوي ألا أتكلم، ولكن إذا كان التنوع هو الشيء الذي تبحث عنه، فقد أهدرت شريحة زجاجية بلا داعٍ؛ فلوجي وأنجلو توأم ولديهما نفس البصمة.

عاد ويلسون إلى مكانه وهو يقول:

- حسنًا. أحب أن آخذ البصمتين على كل حال، وقد انتهيت الآن من هذا.

قال توم:

- انتظر يا دايف. لقد اعتدت أن تقرأ لنا الكف أيضًا، وتخبر الناس عن حظوظهم وثرواتهم. دايف عبقري شامل يا سادة. عبقري من الدرجة الأولى. أستطيع القول: لدينا عالِم فذٌّ في هذه البلدة. إنه مكرم مثل الأنبياء وخصه الله بهبات كثيرة. بل جمجمته هذه يسمونها مصنع المفهومية. ها يا دايف، أليس كذلك؟ لكن لا يهم. في النهاية هو سيترك بصمته في هذا العالَم. سيترك بصمة إصبع. هاها.. ولكن فعلًا يجب أن تتركوه يقرأ لكم الكف ولو لمرة واحدة. هذا أمر يستحق أن ندفع مقابله المال. لماذا؟ لأنه سيقرأ خطوط يدك بسهولة كأنه يقرأ كتابًا. ولن ينبئك عن حدث عابر سيحصل لك في المستقبل فقط، لا، بل سينبئك بخمسين أو ستين ألف حدث سيحصل لك. تعال يا دايف. دع السادة يشاهدون ما الذي يستطيع العبقري الذي يجلس معنا فعله في كل المجالات، ولا يعرفون عنه أي شيء. هيا..

انزعج ويلسون من هذه السخرية اللاذعة، وأشفق عليه التوأم، وعرفا أن أفضل طريقة لمواجهة مثل هذا الاستهزاء هو أخذ الأمر بجدية! تجاهلا تمامًا هجوم توم الحاد. قال لوجي:

- في رحلاتنا رأينا أناسًا يقرأون الكف. ونعرف كم هذا مدهش! وكيف أن قراءة الكف مهمة، ولعلها أيضًا تُعتبر علمًا من العلوم. بل وواحدة من أعظم العلوم أيضًا. لا أعرف ماذا يسمون هذا العلم في بلاد المشرق.

بدا توم متفاجئًا من هذا الكلام، ومترددًا قال:

- يسمونه التلاعب بالعلم مثلًا؟ أنت تمزح طبعًا، أليس كذلك؟

- لا. لا أمزح. فقبل أربع سنوات من الآن قرأ أحدهم كفّينا كما لو أن أقدارنا مطبوعة على راحتَي يدينا.

- هل تريد أن تقول إن هناك شيئًا صحيحًا فيما قيل لكما وقتها؟

سأل توم وقد بدأ الشك يساوره، فرد عليه أنجلو:

- ليس شيئًا واحدًا، بل أشياء كثيرة. تحليل شخصياتنا كان صحيحًا ودقيقًا بنسبة مائة في المائة، ولم نكن لنكتشف هذه الأشياء عن أنفسنا وحدنا. وأيضًا شيئان أو ثلاثة أشياء لا تُنسى قيل إنها ستحدث وفعلًا حدثت لنا. أشياء لا يمكن أن يعرفها أحد غيرنا.

انفعل توم الذي أصبح مهتمًا جدًا بالموضوع الآن، وبنبرة عالية قال:

- لماذا؟ هل هذه شعوذة؟ كيف عرفوا ما سيحدث لك في المستقبل؟

بثقة وثبات رد لوجي:

- أقول لك بكل صدق إن حدثين أو ثلاثة تحققت فعلًا، وهي من نوع الحوادث المدهشة التي لا يمكن لأحد أن يخمنها، وقد تنبأوا بها فعلًا. الحدث الأهم بينها تحقق في العام نفسه. وتحققت بعض النبوءات الصغيرة أيضًا. وهناك بعض الأشياء سواء المهمة منها أو العادية بدأت تتحقق ولم تكتمل حتى الآن. ويمكن ألا تكتمل أبدًا. ولكنني طبعًا سأندهش إذا لم تحدث هذه الأشياء أكثر من اندهاشي إذا تحققت.

صب توم جل تركيزه على هذا الموضوع، معتذرًا قال:

- دايف، لم أقصد الاستهزاء بهذا العلم. كنت أثرثر فقط لا أكثر. أعتقد أن.. ما رأيك أن تقرأ لهما الكف؟ هيا.

- نعم بالتأكيد، ولكن.. أنت تعرف أنني لستُ خبيرًا ولا أدعي أنني كذلك. لا يمكنني قراءة التفاهات من الأمور والأحداث البسيطة، ولكن إذا كان هناك حدث مؤثر وكبير قد حدث في الماضي، في الغالب سأتمكن من قراءته، وليس دائمًا طبعًا. أما ما سيحدث في المستقبل؛ فليس عندي خبرة كافية في معرفة هذا. أتحدث كأنني أقرأ الكف كل يوم،

ولكن هذا غير صحيح. خلال الست سنوات الماضية لم أقرأ الكف لأكثر من ستة أشخاص. أنت تعرف طبعًا أن الناس هنا يسخرون من هذه الهواية، واضطررت ألا أمارسها كي يكفوا عن هذه السخرية. ولكن حسنًا، سأجرب. والآن هذا ما سأفعله. أنت يا كونت لوجي؛ سأحاول أن أعرف ماضيك، ولو خمنت شيئًا صحيحًا حدث بالفعل، فلتخبرني. أما المستقبل فلن أحاول أن أستكشفه لأنه يحتاج إلى خبير.

وبينما يهمّ ويلسون المغفل لقراءة كف لوجي، أوقفه توم:

- انتظر يا دايف. لا تبدأ الآن. لحظة. يا كونت لوجي، إليك هذه الورقة، وهذا القلم. أستأذنك أن تكتب الحدث المدهش الخطير الذي أخبرتنا عنه منذ قليل وتنبأ لك قارئو الكف به، ذاك الذي حدث في العام نفسه للنبوءة. وبعد أن تكتبه أعطني الورقة لأطلع عليه وأعرف إذا كان ويلسون سيعرفه أم لا.

استحسن لوجي تلك الفكرة وكتب ما حدث معه فعلًا في سطر واحد. لم يقرأ أحد الورقة. طواها لوجي وأعطاها لتوم وقال: "لا تفتح الورقة إلا عندما أخبرك. إذا عرف ويلسون الحدث، وقتها سأعطيك الإذن لتفتحها".

بدأ ويلسون في تفحص ودراسة راحة يد لوجي، متتبعًا بعينه خطوط حياته، خطوط قلبه، وأيضًا خطوط عقله. وظل يدقق بعناية في تلك الخطوط التي تُشبه خيوط العنكبوت، وفي العلامات الدقيقة والعلامات الأكثر بروزًا. تحسس بيده أطراف أنامل الكونت لوجي

بكتلتها اللحمية، ولاحظ شكل استدارتها. ثم تحسس المنطقة التي بين الإصبع الصغير والرسغ، ومن بعدها دقق في شكل الأصابع وأحجامها بعناية. لاحظ حالة الكف عند الانقباض وعند الاسترخاء. والمشاهدون الثلاثة يتابعون هذه العملية بفضول وتركيز كبيرين، شاعرين بالمُتعة والاهتمام، وهم ناكسو رؤوسهم فوق كف لوجي ليروا ما يحدث بوضوح ولا تفوتهم فائتة. لم يتفوه أحدهم بكلمة لكي لا يقطعوا تركيز ويلسون.

نظر ويلسون في كف لوجي للمرة الأخيرة وبدأ يقول ما يراه. في البداية وصف طبيعة شخصية لوجي وطريقته في التصرف وذوقه فيما يحب وما يكره، والأشياء التي تجذبه وتلك التي ينفر منها. تكلم أيضًا عن طموحاته في الحياة، والأشياء الغريبة التي يفعلها فيعتبره الناس غريب الأطوار. اندهش لوجي مما يُقال، بينما تفاوتت ردود أفعال الآخرين بين الدهشة والضحك. لكنَّ التوأم اتفقا على أن كلام ويلسون كله صحيح لدرجة مرعبة!

بعدها بدأ ويلسون في سرد ما حدث للوجي في الماضي. بتردد وحذر مرر إصبعه ببطء على الخطوط البارزة الأساسية في راحة يده، وكان يتوقف أحيانًا عند نقطة مميزة أو علامة تشبه النجمة ليركز أكثر فيما وراء معناها. أخبرهم بحدث أو حدثين حدثا في الماضي، أقرَّ لوجي بصحتهما. استمر ويلسون في التمحيص والتدقيق، وفجأةً نظر للوجي باندهاش، وقال:

- هناك حدث مُسجَّل هنا.. حدث ربما لا تريد لأحد أن...

"قُل. هيا"، بلطف استطرد لوجي: "أعدك أن هذا لن يجرحني".

لكن ويلسون ظل مترددًا؛ أيقول أم لا؟ ولم يعرف ماذا يفعل. ثم قال: "لكنها مسألة حساسة جدًّا وخاصة. من الأفضل أن أكتبها لك، أو أهمس بها في أذنك، ثم أترك لك القرار. إذا قررت أن أتحدث عنها فليكن"، فرد لوجي: "حسنًا. حل مناسب جدًّا. اكتبها".

كتب ويلسون شيئًا في ورقة وأعطاها للوجي من فوره. الأخير قرأها ثم قال لتوم:

- افتح الورقة التي معك واقرأها علينا يا سيد دريسكول.

وفعلًا قرأ توم بصوت عال ما كتب فيها:

تنبأوا أنني سأقتل رجلًا، وقد حدث هذا فعلًا في العام ذاته.

صُعِقَ توم من المكتوب، بينما أعطاه لوجي ورقة ويلسون وقال:

- والآن اقرأ هذه الورقة.

وكذلك فعل توم:

أنت قتلت شخصًا. لكن لا أعرف إذا كان رجلًا أم امرأة أم طفلًا. لا يمكنني معرفة ذلك.

علَّق توم مندهشًا:

- يا ويلي! يا شبح قيصر*[1]!

---

(1) إشارة إلى مسرحية (مأساة يوليوس قيصر) لويليام شكسبير، حيث ظهر شبح الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر لبروتوس. تستخدم هذه العبارة للتعبير عن الدهشة. وقد اشتهرت في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي. (المترجم).

لم يمر على توم شيء أكثر غرابة مما حدث الآن. لم يسمع عن مثل هذه الأشياء طوال عمره! تعجب لماذا يمكن ليد الإنسان أن تصبح أخطر أعدائه؟! هذه اليد التي نُقِشَ عليها تاريخ المرء وفيها أهم أسراره وأشدها سرية! ولماذا يمكن لأي شخص أن يفضح نفسه بنفسه ويسلم يده لقارئ كف فينفضح أمره؟

إن هذا لأشبه بالسحر الأسود! باستعجاب شديد سأل توم الكونت لوجي:

- لماذا تترك يدك لينظر فيها أحد؟ طالما أنت تعرف ما المكتوب فيها؟ كيف تجعلهم يعرفون عنك ماضيًا ملوثًا مثل هذا؟!

باستياء رد لوجي:

- لا. أنا لا أمانع أن يعرف هذا السر أحد. قتلت الرجل لأسباب وجيهة ولم أقتله هباءً. ولست نادمًا على ذلك.

- ما الأسباب؟!

- حسنًا.. كان يجب أن يُقتَل!

خرج صوت أنجلو دافئًا وهو يقول:

- سأخبرك أنا لماذا فعل ذلك، طالما لا يريد إخبارك بنفسه. فعلها لينقذ حياتي. هذا هو السبب. وأنا أعتبر تصرفه هذا نبيلًا وشجاعًا. ولا شيء عندنا لنخفيه ونخبئه في الظلام.

قال ويلسون:

- الآن فهمت. لقد فعلت هذا لتنقذ حياة أخيك. وهذا تصرف عظيم منك.

رد لوجي:

- جميل أن أسمعك تمدحني وتقول شيئًا مثل هذا، ولكن حتى لا أكون كاذبًا أو أنانيًا أو مدعيَ بطولة، لم يكن عندي وقتها خيار آخر، ولم تسمح لي الظروف بأخذ مهلة للتفكير وقتها. أنتم لا تنتبهون لنقطة مهمة؛ افترضوا أنني لم أنقذ حياة أنجلو ولم أقتل هذا الرجل؟ ماذا يمكن أن يحدث لي؟ وقتها كان سيقتلني أنا أيضًا. لذلك أجدني أنقذت نفسي خوفًا على حياتي.

ولكن أنجلو قال:

- أنت تقول هذا فقط من باب التواضع، ولكنني أعرفك جيدًا. أنت لم تفكر في نفسك أبدًا. هل تعرفون أنني لا أزال أحتفظ بالسلاح الذي قتل به أنجلو الرجل؟ وسأريكم إياه يومًا ما. هذا السلاح ذو قيمة كبيرة، ليس فقط لأنه السلاح الذي تم استخدامه في الحادث، ولكن أيضًا لأن له تاريخًا طويلًا قبل أن يصل إلى يد لوجي. قد أهداه أمير هندي عظيم للوجي.. أمير بارودا، وقد ورثه عن عائلته، وظل يوَرَّث عندهم مدة قرنين أو ثلاثة قرون! وبه قُتِل عدد كبير من المعارضين للأمير. شكله ليس مميزًا جدًّا، رغم ذلك هو مختلف عن جميع الخناجر والسكاكين التي رأيتها من قبل. سأرسمه لكم على هذه الورقة.

خطف أنجلو الورقة وبسرعة رسم الخنجر.

- ها هو الخنجر، ذو نصل عريض ومسنون، حوافه حادة مثل موس الحلاقة. عليه نقوش كثيرة وهي عبارة عن أسماء كل مَن امتلك هذا الخنجر. نقشت أنا أيضًا عليه اسم لوجي في أحرف رومانية، وأضفت شعار النبالة الخاص بعائلتنا. أترون؟ لعلكم لاحظتم أن له مقبضًا عاجيًّا مصقولًا، طوله أربع بوصات أو خمس، مستدير وفي سُمْك معصم رجُل قوي، أما نهايته فمربعة ومسطحة ليسهل عليك مسكه والتملك منه، مقبضه مطعَّم بالأحجار الكريمة باهظة الثمن. وقد علَّمنا الأمير كيف نستخدمه قبل أن يعطيه للوجي. وقبل أن تنتهي تلك الليلة، استخدم لوجي الخنجر!

قال توم بينه وبين نفسه:

- من حسن الحظ أنني جئت إلى هنا وسمعت هذا الحديث. كنت سأبيع الخنجر بثمن بخس؛ لأنني اعتقدت أن هذه الأحجار مجرد زجاج لا قيمة له.

وقال ويلسون:

- أكمل حديثك أرجوك. لدينا فضول لنعرف كيف قتل الرجل. أخبرنا عن ذلك.

- حسنًا. كان الخنجر هو السبب! ففي الليل تسلل أحد الخدم لغرفتنا في القصر، يريد قتلنا وسرقة الخنجر؛ لأنه يعرف قيمته الثمينة. كنت مستغرقًا في النوم، ولوجي كان ممدِّدًا جسده بجواري على السرير ولكنه مستيقظ. الخنجر تحت الوسادة.

وبفضل ضوء خافت في الغرفة، لمح لوجي خيالًا غريبًا يقترب من السرير. وفجأة هجم هذا الغريب عليَّ وانحنى بجسده كله فوقي ثم بدأ يخنقني بيدَيهِ. لكن لوجي أبعده عني فورًا وخلصني من قبضة يده، وسحب الخنجر من تحت الوسادة وغرسه في عنق الرجل. هذا كل ما حدث.

التقط ويلسون وتوم أنفاسهما بعد سماع هذه المأساة الغريبة. بعد أن هدأ الجميع، مدَّ ويلسون المغفل يده وأمسك كف توم وقال:

- والآن يا توم.. ما رأيك أن أقرأ لك الكف؟ فأنا لم أنظر أبدًا في راحة يدك. لعل هناك بعض الخصوصيات في ماضيك تريد أن نكتشفها معًا.

نزع توم يده بسرعة مفزوعًا، وبدا ارتباكه واضحًا على ملاح وجهه. قال لوجي:

- ما هذا؟ صار وجهه بلون الدم!

فحدجه توم بنظرة نارية وبحِدَّة رد عليه:

- حسنًا، لو احمرّ وجهي فهذا ليس لأنني قاتل على الأقل.

امتقع وجه لوجي فورًا، وقبل أن يأخذ فرصته في الرد، استطرد توم في كلامه في قلق:

- يا ربي! آسف. لم أقصد ذلك. يجب أن تسامحني. خرج الكلام مني قبل أن أفكر فيه. أنا في غاية الأسف!

حاول ويلسون إنقاذ الموقف بقدر المستطاع، ونجح في ذلك إلى حد ما. على الأقل استطاع أن يهدئ التوأم اللذين كانا مشفقين عليه في الأساس، بسبب أسلوب توم الهجومي معه. وإذا قارن التوأم بين الإهانة التي تعرض لها ويلسون وتلك التي تعرض لها لوجي للتو، سيشعران بالأسى تجاه ويلسون أكثر. أما توم فحاول أن يبدو غير مهتم، ولطيفًا يسمع كلام ويلسون في أثناء محاولته لتهدئة الأمور بصدر رحب، لكنه أضمر في نفسه الضيق والاستياء تجاه ثلاثتهم؛ لأنهم رأوه في موقف محرج مثل هذا. ولكن حدث شيء جديد جعله يستعيد راحته النفسية مرة أخرى؛ فتبدل حاله من الحنق وكظم الغيظ إلى المرح والود. أما عن هذا الحدث فهو خلاف بسيط نشب بين التوأم. لم يتعدَّ كونه خلافًا بسيطًا، ولكن بفضل مساعدة توم اشتعلت الأمور أكثر ووصلت إلى حد الانفلات. وقبل أن يتسبب توم في وصول المشاجرة إلى حد التشابك بالأيدي، قاطعهم صوت طرق على الباب. شعر ويلسون بالارتياح؛ لأن صوت طرق الباب أنقذ الموقف، أما توم فعاد وانزعج. فتح ويلسون الباب لزائر آيرلندي متوسط العُمر ويبدو لطيفًا وروحه تشع حيوية. هو سياسي عظيم يُدعى جون باكستون.

عرف بمساهمته في الشؤون العامة بمختلف أنواعها، وهو أحد كبار البلدة، وأحد أعضاء متدربي حزب مناصرة مشروب الرّم[1]. حيث كان هناك حزبان في البلدة، أحدهما مناصر لهذا المشروب، والآخر مناهض له. وقد أرسلوا باكستون ليقنع التوأم بالانضمام

(1) مشروب كحولي. (المترجم).

لحزب الرّم، ودعوتهما لاجتماع جماهيري مقام في القاعة الكبيرة الموجودة فوق منزل السوق. رحب لوجي بالدعوة، على عكس أنجلو الذي يكره الحشود والتجمعات، كما أنه لا يحب المُسكِرات القوية، ولم يشربها في أمريكا، بل ويمتنع عنها تمامًا عندما يكون من الحِكمة ألا يشرب الكحول.

تبعًا التوأم باكستون للحفل، أما توم دريسكول فقد ذهب معهم دون أن يوجه إليه أحد الدعوة! من مسافة بعيدة استطاعوا أن يروا المشاعل والأضواء الصاخبة في نهاية الشارع الرئيس. كما تمكنوا من سماع صوت الطبول وضرب الصاجات وضجة المحتفلين. كما وجدوا حشودًا من الناس يرتقون الدرج للمنزل الذي فوق السوق. وعندما دخل التوأم القاعة شاهدا الأنوار والمصابيح المبهجة وسحبًا من دخان السجائر، وضجة الناس وحماسهم. أخذهما باكستون إلى المنصة، وتوم لا يزال يتبعهما، ثم قدمهما إلى رئيس مجلس إدارة الحزب، الذي رحب بهما بشدة كما احتفى بهما الجميع. وعندما هدأت الضوضاء وخفت الصخب قليلًا، قال الرئيس مُقترحًا:

- رحبوا بضيفينا اللامعين وانتخبوهما في الحال. فلينضما إلى حزبنا وليصيرا عضوين دائمين فيه. إنه جنة للأحرار، وهلاك للعبيد!

أشعل هذا الكلام الحماس في قلوب المحتفلين، وأعطوا أصواتهم بالإجماع للتوأم، وتعالت الصرخات التشجيعية تعصف بالمكان.

- أغرقهما بالمشروب يا رئيس. أعطهما المشروب الآن.

وفورًا كانت كؤوس مشروب الرُّم متاحة ومُقدمة للتوأم. أخذ لوجي كأسًا ولوَّح بها عاليًا، ثم شربها دفعة واحدة، بينما ترك أنجلو كأسه ولم يشربها.

صاح الجمع متعجبين ومستنكرين:

- ما مشكلة الأخ الآخر؟! لماذا لا يشرب الأشقر؟ نريد شرحًا. نريد تفسيرًا.

انفرد الرئيس بأنجلو قليلًا، ثم وجه كلامه للجمع موضحًا:

- لقد ارتكبنا خطأً مؤسفًا يا سادة. من الواضح أن الكونت أنجلو يعارض عقيدتنا. إنه يمتنع عن الشرب! ولم يكن ينوي أن يضم لعضوية حزبنا من الأساس. يريد أن نعيد النظر في الأصوات التي انتخبته. ما رأيكم في هذا؟

انفجرت القاعة بالضحك والصفير حتى استخدم الرئيس مطرقته عدة مرات لكي يهدأوا ويكفوا عن إحداث الشغب. ثم خرج صوت رجل من بين الحشد يقول إن هذا الخطأ لا يمكن تصحيحه في هذا الاجتماع الحالي؛ لأنه -وفقًا للوائح- يجب أن يتم اتخاذ إجراء ابتداءً من الاجتماع القادم. أما أنجلو فحاول الاعتذار للمكان وللحشد. وقال إنه لمن دواعي سروره أن يكون جزءًا من هذا الحزب وواحدًا من أبناء الحرية، وأن عضويته المؤقتة هذه هي شرف كبير له. قُوبل كلامه بالترحيب والتصفيق، وتعالت الصيحات:

- هذا هو الكلام. ممتاز. إنه عضو طيب، حتى لو كان لا يشرب.

- فلنشرب في صحته يا رفاق. هيا. شجعوه.

وفي صحة أنجلو، تناول كل رجل كأسه، حتى هؤلاء الذين على المنصة بدأوا يشربون ما في كؤوسهم، ثم تعالت أصوات الرجال يترنمون بأغنية لطيفة:

لأنه رجل طيب ومرح

لأنه مغرَم بالفرح

لأنه رجل نبيل

لا يمكننا الإنكار

شرب توم دريسكول كأسين حتى الآن. كأسه وكأس أنجلو التي شربها فور أن وضعها الأخير جانبًا. جعله الشُّرب يبدو أبله وهو يتحرك جيئة وذهابًا بمرح، وبدأ سكره يجعله يتصرف بطريقة حيوية زيادة عن اللازم. يتكلم مع هذا، يخبر الآخر بملاحظاته، يتحدث مع ثالث بشكل انفعالي، ويغني مع المغنيين. وكانا التوأم لا يزالان يقفان بجوار الرئيس، وعندما رآهما توم في هذه الحالة، أوحي له منظرهما وشكلهما المتطابق جدًّا بنكتة. وفور أن بدأ الرئيس في إلقاء خطابه، قاطعه توم بكل ثقة وقال:

- عذرًا سيدي، لا أفهم كيف ستكمل خطابك منتظرًا منا الإنصات والتركيز، بينما يستحوذ هذان البندقتان البشريتان على كل انتباهنا؟!

انفجرت القاعة بالضحك، وامتقع وجه لوجي، شعر أن دمه يغلي في عروقه؛ بسبب هذا الإذلال وهذه المهانة التي تعرض لها هو وأخوه في حضور أكثر من أربعمائة شخص. لم يعتَد لوجي أن يتنازل عن حقه. اقترب من توم ثم بأقصى قوته ركله بقدمه، لدرجة

جعلته يطير فوق الحشد ثم يسقط أرضًا فوق رؤوس بضعة رجال في الصف الأمامي. حملوه وألقوه للصف الذي يليه، ورجال الصف الثاني ألقوه للخلف، وهكذا ظلوا يتلقفونه ويُرَحِّلونه من صف إلى صف، ومن مقعد إلى آخر، حتى وصل إلى الباب الخلفي. وذلك بعد أن تهشمت بعض المقاعد وتكسرت كثير من المصابيح. شعر توم أنه يطير في الهواء ويتم قذفه من يد ليد بطريقة مهينة؛ فظل يسب ويلعن الناس جميعًا.

ارتفعت صيحات تقول:

- حريق. يوجد حريق.

سكت الجميع فورًا وساد الصمت في المكان فجأة! وعندما تأكدوا أن هناك فعلًا حريقًا، وأن ماسًّا كهربائيًّا قد حدث، تدافعوا إلى الباب كلهم مرة واحدة حتى سقط بعضهم فوق بعض. منهم مَن قفز من النوافذ ناجيًا بنفسه. ولأن مقر المطافئ كان خلف البناية تمامًا، وصلوا بسرعة غير مسبوقة إلى مكان الحريق. بيد أن رجال الإطفاء انقسموا إلى قسمين؛ رجال مناصرين لمشروب الرُّم، وآخرين مناهضين له! وهذا لم يكن ليحدث سوى بعد الموضة الأخلاقية التي تُدعى (شراكة وديموقراطية)، والتي كانت سائدة في البلدة هذه الأيام. قسَّموا أنفسهم أربع مجموعات، بعد أن ارتدوا قمصانهم الحمراء وخوذاتهم؛ فمن غير المسموح أبدًا أن يعملوا دون زيهم الرسمي. استعدوا لاستقبال كل مَن يقفز من النوافذ أو يخرج من الباب بمضخات المياه القوية التي يستخدمونها في إطفاء الحريق. انزلقت أقدام بعضهم بسبب كمية المياه الموجهة إليهم وكادوا

يغرقون، لكن المياه أفضل من النيران على أي حال! وبعد أن فرغت القاعة أخيرًا من الجميع، اقتحمها رجال الإطفاء وأغرقوها تمامًا بمياه تكفي لإطفاء أربعين حريقًا.

لا تسنح الفرصة كثيرًا لشركة إطفاء الحريق بالتباهي واستعراض قدراتها؛ لذلك، وعندما يجدون أي فرصة، يجتهدون في استغلالها وتحقيق أقصى استفادة منها. إلا أن ذلك لم ينطلِ على مواطني البلدة، الذين لديهم قدر كافٍ من الفطنة والقدرة على الحكم السليم، على الرغم من عدم تمتعهم بالحماية الكافية من أي حرائق.

الفصل الثَّاني عشر

عار القاضي دريسكول

"الشجاعة لا تعني عدم الشعور بالخوف، بل مواجهته والسيطرة عليه. وإذا كان الجهل بمشاعر الخوف شجاعة؛ لكان البرغوث أشجع المخلوقات! لأنه مستعدٌّ للهجوم عليك في أي وقت، مستيقظًا كنت أو نائمًا. لن يضع في حساباته حجمك الضخم مقارنةً بحجمه الصغير، ولن يضع اعتبارًا لمدى قوتك وكونك بالنسبة له كجيوش الأرض مجتمعة ضد رضيع صغير! البرغوث يعيش كل أيامه ولياليه في حُضن الخطر، ومع ذلك لا يشعر بالخوف إنه مثل رجل يمشي آمنًا في شوارع مدينة كانت مهددة بالزلازل قبل عشرة قرون. عندما نتحدث عن رجال (لا يعرفون الخوف) مثل كلايف ونيلسون وبوتنام، يجب أن نضع البرغوث في أول القائمة".

من مذكرات ويلسون المغفل

في سريره ليلة الجمعة، وفي تمام العاشرة، كان القاضي دريسكول يغطّ في النوم. وفور أن طلعت شمس الصباح استيقظ وجهز نفسه للذهاب مع صديقه بيمبروك هاوارد في رحلة للصيد. كانا صبيينِ صغيرينِ عندما كانت ولاية فيرجينيا لا تزال في المرتبة

الأولى من القوة والهيمنة. لا يزال الصديقان -كلما جاءت سيرة فيرجينيا- ينعتونها فيرجينيا القديمة بمشاعر ممزوجة بالفخر والعاطفة والحنين. في ميسوري، كل عائلة سلالتها تنحدر من فيرجينيا القديمة تحظى بمُعاملة خاصة واحترام فائق. يصير هذا الاحترام والتبجيل أشد خصوصية إذا ثبت أنهم من نسل العائلات الأولى لذلك الكومنولث[1] العظيم! وعائلتي هاوارد ودريسكول يمتازان بهذه الدرجة الرفيعة من الأرستقراطية والنُّبل. لطالما اعتبروا هذا شرفًا كبيرًا بالنسبة لهم.

لهذه المكانة النبيلة قوانين لم تُكتَب، لكنها مثل ميثاق الشرف بين النُبلاء، واضحة، صارمة، مثلها مثل القوانين المكتوبة في الدستور. من ضمن هذه القوانين: إبقاء هذا الإرث نظيفًا لا تشوبه شائبة. وإذا اختلّ هذا القانون ولو بمقدار أنملة، هذا يعني ضياع الشرف وتلويث اسم العائلة. يترتب على ذلك تدهور رتبة الرجل النبيل ليصير رجلًا عاديًّا! فلم يجازف القاضي دريسكول يومًا بما قد يعرض مكانته ومكانة عائلته للتدهور والزوال. ولكي يحافظ على رتبته هذه، كان عليه أن يفعل أشياء تكون أحيانًا ضد التعاليم الدينية؛ لذلك آمن أن حتى دينه يأمره بتطبيق القانون مهما كان ودون أي تهاون، حتى لو كان هذا التهاون بغرض التوافق مع الدين أو أي اعتبارات أخرى.

---

(1) اتحاد سياسي يضم أربعة وخمسين دولة، كانت أقاليم سابقة للإمبراطورية البريطانية. (المترجم).

الشرف أولًا والقوانين تحدد ماهية هذا الشرف، وتحدد متى يكون هناك خلاف على الشرف بين عقائد الكنيسة والقوانين الاجتماعية والأعراف.

إذا كان القاضي دريسكول هو المواطن الأول المعترف به والأهم بين مواطنين داوسون لانديغ؛ فإن بيمبروك هاوارد هو المواطن الذي يليه في هذه المنزلة الكريمة. أطلقوا عليه لقب المحامي الكبير. تجاوز الصديقان الستين بسنة أو سنتين. لشخصيتيهما صفات متباينة ومختلفة، لم يؤثر ذلك على صداقتهما المتينة؛ فكان القاضي دريسكول مفكرًا حُرًّا، أما هاوارد فكان أكثر تزمُّتًا، وشديد الصرامة. لم يجرؤ أحد -بما في ذلك أصدقاؤهم المقربون- أن يعترض على آرائهم الخاصة، أو حتى ينتقدها.

في آخر اليوم، وبعد انتهاء رحلة الصيد، حملت مياه النهر زورقهما الشراعي إلى المرسى. نزلا منه وهما يتحدثان في أمور سياسية ويتناقشان في شؤون البلدة، كما تطرقا إلى غير ذلك من المواضيع المهمة. وبينما يتحدثان، وجدا قاربًا صغيرًا قادمًا من المدينة، على متنه رجل ينظر إليهما ويرفع صوته ويقول:

- أيها القاضي، هل تعرف أن واحدًا من التوأم ركل ابن أخيك الليلة الماضية؟

- فعل ماذا؟!

- أقول لك ركله بقدمه.

ابيضت شفتا القاضي العجوز وبدأت عيناه تزوغان. خنقه الغضب قبل أن يستفسر أكثر:

- حسنًا.. حسنًا.. أكمل! أخبرني بالتفاصيل!

حكى له الرجل كل ما حدث ليلة أمس. سكت القاضي هنيهة متخيلًا المنظر المخزي لابن أخيه وهو يُهان ويسقط أرضًا أمام الناس. قال كأنه يحدث نفسه:

- لا أفهم! كنتُ نائمًا في البيت أمس! وهو لم يأتِ ليوقظني بعد ما حدث! هذا يعني أنه عرف كيف يتصرف وحده في هذه المشكلة! أظن ذلك.

ثم لاحَت علامات البهجة والسرور على وجهه بفضل هذا الأمَل، وأردف يقول:

- نعم، بالطبع هذا ما حدث. فتوم ورث عن عائلتنا الدم الأصيل. صحيح يا بيمبروك؟

ابتسم هاوارد وأومأ برأسه موافقًا. لكن الرجل قاطعهما مرة أخرى وقال:

- لكن توم هزم التوأم في المحاكمة.

نظر القاضي للرجُل متعجبًا وسأله:

- محاكمة؟ أي محاكمة تقصد؟!

- لأن توم اشتكاه للقاضي روبنسون بتهمة الاعتداء والضرب.

اختل توازن القاضي دريسكول، صار لون كل ما يراه أسود، كأن ظلامًا قاتمًا حال بين عينيه والموجودات! مال جسده للأمام كمبنى آيل للسقوط، لولا أن هاوارد اندفع تجاهه وسنده جيدًا قبل أن يرتطم جسده بالأرض فاقدًا وعيه. يبدو كأن القاضي أُصيب بسكتة دماغية!

- حسنًا.. حسنًا.. أكمل! أخبرني بالتفاصيل!

حكى له الرجل كل ما حدث ليلة أمس. سكت القاضي هنيهة متخيلًا المنظر المخزي لابن أخيه وهو يُهان ويسقط أرضًا أمام الناس. قال كأنه يحدث نفسه:

- لا أفهم! كنتُ نائمًا في البيت أمس! وهو لم يأتِ ليوقظني بعد ما حدث! هذا يعني أنه عرف كيف يتصرف وحده في هذه المشكلة! أظن ذلك.

ثم لاحَت علامات البهجة والسرور على وجهه بفضل هذا الأمَل، وأردف يقول:

- نعم، بالطبع هذا ما حدث. فتوم ورث عن عائلتنا الدم الأصيل. صحيح يا بيمبروك؟

ابتسم هاوارد وأومأ برأسه موافقًا. لكن الرجل قاطعهما مرة أخرى وقال:

- لكن توم هزم التوأم في المحاكمة.

نظر القاضي للرجُل متعجبًا وسأله:

- محاكمة؟ أي محاكمة تقصد؟!

- لأن توم اشتكاه للقاضي روبنسون بتهمة الاعتداء والضرب.

اختل توازن القاضي دريسكول، صار لون كل ما يراه أسود، كأن ظلامًا قاتمًا حال بين عينيه والموجودات! مال جسده للأمام كمبنى آيل للسقوط، لولا أن هاوارد اندفع تجاهه وسنده جيدًا قبل أن يرتطم جسده بالأرض فاقدًا وعيه. يبدو كأن القاضي أُصيب بسكتة دماغية!

حمله هاوارد بين ذراعيه وجعله يستلقي على ظهره في الزورق. رش قطرات من مياه النهر على وجهه. ثم قال للرجل الذي بات خائفًا مما حدث:

- اذهب أنت الآن. لا تجعله يستفيق ويراك أمامه. أترى تأثير كلامك الطائش هذا عليه؟ كان يجب أن تفكر قبل أن تنطق بهذه الافتراءات المسيئة.

- آسف على كل ما قلته يا سيد هاوارد. لو فكرتُ قليلًا، لما تكلمتُ. لكن هذا ليس افتراء. كل ما قلته حدث فعلًا.. مثلما أخبرتكما تمامًا.

جدَّف الرجل بقاربه الصغير بعيدًا، واستفاق القاضي دريسكول من حالة الإغماء أخيرًا. بإشفاق وحزن قال مستجديًا:

- قل إن هذا الكلام غير صحيح يا بيمبروك. أخبرني أن هذا لم يحدث.

بحزم وثقة رد صديقه وقال:

- طبعًا هذه كذبة يا صديقي، وأنت تعرف هذا جيدًا. توم دمه أصيل ومن سلالة الأسياد في فيرجينيا القديمة. لا يمكن أن يفعل هذا أبدًا.

بحرارة وفخر قال القاضي:

- آه يا بيمبروك. بارك الله فيك على قولك هذا. لو كان هذا الكلام صحيحًا، لكانت الضربة القاضية.

بقي هاوارد بجانب صديقه حتى استعاد وعيه كاملًا، ثم أخذه للمنزل. أفَلَ كل نور في السماء وأسدَل الليل ظلامه الدامس على البلدة. ولَّى وقت العشاء. لكن القاضي لم يفكر في الطعام. كل همه أن يسمع دحضًا للافتراء الذي قيل عن ابنه المُتبنَّى، حرص أن يسمع وجهة نظر هاوارد المطمئنة. لكنه نادى توم ليتأكد بنفسه أن كل هذا كان مجرد كذب. لبَّى توم النداء فورًا وأقبل على عمه يعرُج، مصابًا بكدمات في مواضع متفرقة، ولا تبدو على وجهه أمارات السعادة. أمره عمه بالجلوس وقال:

- نحن سمعنا عن مغامرتك يا توم. ولكن هناك كذبة بسيطة أضافها مَن أخبرنا بالموضوع ليجعله حماسيًّا أكثر تقريبًا. وطبعًا لم أصدق هذه الكذبة أبدًا. والآن أخبرني يا توم ما الذي حدث بالضبط؟ وما الإجراءات التي اتخذتها؟ علامَ توقف الأمر؟

دون أن ينتابه أي شعور بالذنب، أجاب توم:

- انتهى الأمر تمامًا ولم يعد متوقفًا على شيء. اشتكيته في المحكمة وربحت القضية. ويلسون المغفل دافع عنه، وهي أول قضية له، ومع ذلك خسرها. فرض القاضي على ذاك الكلب المعتدي خمسة دولارات تعويضًا على هذا الاعتداء.

مع بداية كلام توم، وقف هاوارد والقاضي على قدميهما! ظلا يحدقان. وبعد أن انتهى توم من كلامه جلس هاوارد محزونًا لا يعرف ماذا يقول، وبدأ غضب القاضي المكتوم في الانفجار:

- أنت حقير! حثالة! أنت مجرد حشرة. تخبرني الآن أن شرف العائلة قد تمرَّغ في الطين؟ اشتكيت أجنبيًّا للمحكمة؟ ودماء عرقنا الأصيلة تدنَّست؟! انطق. جاوب.

نكَّس توم رأسه والتزم الصمت، ينظر إليه عمه بمزيج من الدهشة والإحباط والشعور بالعار، وأخيرًا سأله عمه:

- أي التوأم؟!

- الكونت لوجي.

- لم تَدْعُهُ للمبارزة؟

شاحب الوجه رد توم:

- لا.

- ستتحداه بالمبارزة الليلة، وهاوارد سيكون مسؤولًا عن هذا.

لم يستطع توم إخفاء شعوره بالإعياء والرعب. ظل يلف قبعته في يده بارتباك، أما عمه فمرَّت عليه الثواني بثقلها، واسود وجهه. تلعثم توم وخرج صوته مرتعشًا وهو يقول:

- من فضلك لا تطلب مني أن أفعل ذلك. عمي! إنه شيطان وقاتل. لن أستطيع مبارزته أبدًا. أنا خائف منه.

فتح العجوز فمه ثلاث مرات ليهمّ بالكلام، ثم سكت كاظمًا غيظه، لكنه لم يحتمل الأمر أكثر من ذلك، انفجر أخيرًا وظل يندب حظه ويقول:

- في عائلتي جبان! واحد من عائلة دريسكول جبان! آه يا رب. ماذا فعلت لأستحق هذا العار؟

وظل يكرر هذا الكلام متوجِّهًا إلى مكتبه. أخرج ورقة من الدرج ومزقها أشلاءً. بعثرها في الهواء وهو يمشي في الغرفة جيئة وذهابًا، يغلي دمه إثر الغضب. ثم مرة أخرى صاح:

- ها هي الوصية قطعتها مرة أخرى. أجبرتني ثانيةً أن أحرمك من الميراث. أنت يا مَن تنحدر من سلالة النبلاء والأسياد! ابتعد عن وجهي. اذهب قبل أن أبصق عليك.

وفي لمح البصر اختفى توم من أمامه. استدار القاضي يحدث هاوارد:

- سأكتب لك توكيلًا يا صديقي القديم.

- كما تشاء طبعًا.

- خذ ورقة وقلمًا، واكتب الاتفاق، ولا تضيع أي وقت.

وقال هاوارد:

يجب أن تكون هذه الورقة في يد الكونت في خلال خمس عشرة دقيقة.

شعر توم بثقل في قلبه، فقد شهيته للطعام مع فقدانه للوصية والممتلكات وفقدانه احترامه لذاته! خرج للشارع في الظلام وظل يتجول بين الأزقة، يفكر في مستقبله الذي ضاع، وهل -مهما حاول- يمكنه أن يقنع عمه بكتابة الوصية له مرة أخرى؟ تلك التي تمزقت أشلاء أمام عينيه؟! وفي النهاية اقتنع أنه يمكنه فعل ذلك. يمكنه إقناع عمه. قال لنفسه: لقد فعل ذلك مرة، عندما مزق عمه الوصية في المرة الأولى. طالما فعل ذلك مرة يمكنه أن يفعلها ثانيةً.

سيبدأ في تنفيذ هذه الخطة، سيبذل قصارى جهده لينجح، سيستغني عن رفاهياته وكل ما يريحه ويحبه في سبيل تحقيق هذا الهدف. سيروّض روحه المُحبّة للحرية والانطلاق، لن يسمح لنفسه بالتمادي. قال يحدث نفسه: "في البداية سأسدد الديون من المال الذي كسبته من الغارة الأخيرة. ثم بعدها سأتوقف تمامًا عن المقامرة. القمار نقطة ضعفي وأسوأ ما فيَّ، هذا من وجهة نظري طبعًا. لأن القمار هو أكثر شيء يمكن أن يكتشفه عمي بسهولة، هذا إذا نفد صبر الدائنين. وفي المرة السابقة استكثر أن يدفع لهم مائتي دولار دفعة واحدة. إنه أمر مكلف جدًّا.. كلفني هذا كل ثروته وليس مائتي دولار فقط. طبعًا عمي لم يفقه هذه الحقيقة أبدًا؛ فكل واحد لا يفكر سوى في الجزء الذي يخصه في الموضوع. وأنا الآن مديون بثلاثمائة دولار.. يا له من مبلغ كبير! لكن عمي لن يعرف أبدًا عن هذا. أنا ممتن عندما أقول ذلك. لن أجعله يعرف! وعندما أسدد هذا الدَّين، سأكون وقتها في أمان. ولن أقامر بعدها مطلقًا. على الأقل لن أقامر وهو حي. أقسم على ذلك. أنا الآن أُصلح من نفسي لمرة أخيرة. أعرف ذلك. نعم، وسأنجح؛ لأنني إذا فشلت مرة أخرى سيضيع مستقبلي".

الفصل الثَّالث عشر
توم يُحدِّق في الأطلال

"عندما أفكر في عدد البغضاء الذين ذهبوا إلى عالم أفضل، أسعى لأعيش حياة مُختلفة".

من مذكرات ويلسون المغفل

"أكتوبر.. ما أخطر المُقامرة في هذا الشهر!
يليه في المخاطرة يوليو ويناير وسبتمبر و إبريل ونوفمبر ومايو ومارس ويونيو وديسمبر وأغسطس وفبراير".

من مذكرات ويلسون المغفل

ظلّ توم يحدّث نفسه مهمومًا طوال الطريق. مرّ بمنزل ويلسون المغفل، ومن بعده السور في نهاية البلدة، حتى وصل إلى المنزل المسكون، وعاد مرة أخرى مُغتمًّا يُفكر في حاجته لصُحبة تؤنسه. تذكر روينا فخفق قلبه. ماذا لو زارها؟ لكنه تراجع تمامًا عن الفكرة عندما تذكر أنه سيجد التوأم البغيضين هناك. عندما عاد وصار بالقُرب من منزل ويلسون مرة أخرى، لاحظ أن غرفة الجلوس مُضاءة. تذكر كيف صار غير مرحب به من جميع الناس، ما عدا

ويلسون المغفل! الوحيد الذي يعامله بودّ ولُطف، ويراعي مشاعر مَن يتعامل معهم، حتى لو لم يعبر عن هذا الترحيب بالكلام.

سمع ويلسون سُعال أحدهم على عتبة بابه؛ كأنه ينقي أحباله الصوتية قبل أن يتكلم. استغرب وتساءل مَن جاءه الآن؟ قال في نفسه: "آه. إنه ذاك الشاب المزاجي المُشتت. الشيطان المسكين! لعله لم يجد مَن يصاحبه الآن بعد وصمة العار التي تسبب فيها لنفسه، عندما رفع قضية اعتداء شخصي في المحكمة".

دقّ توم الباب وأمره ويلسون بالدخول. جلس توم إلى أحد الكراسي ساكتًا لا يقول شيئًا، ويلُطف سأله ويلسون:

- لماذا وجهك شاحب هكذا؟ لا تصعب على نفسك الأمر. حاول أن تنسى أنه ركلك.

خرج صوت توم بائسًا وهو يرد:

- لا ليست هذه هي المشكلة يا مغفل.. الموضوع أسوأ من ذلك ألف مرة! نعم.. بل أسوأ بمليون مرة.

- ماذا تقصد يا توم؟ هل روينا...؟

- كرهتني؟ طردتني؟ لا.. لم يحدث شيء من هذا. عمي العجوز هو الذي فعل كل ذلك فيَّ.

تذكر ويلسون المرأة الغريبة التي رآها في غرفة نومه ثم قال:

- يا توم، المقامرة ليست...

ولكن توم قاطعه قائلًا:

- لا.. لا.. ليس لهذا علاقة بالمقامرة.. إنه يريدني أن أبارز ذاك الوَحش المهووس الإيطالي. ومستحيل أن أفعل ذلك.

ورد ويلسون متفكرًا:

- نعم.. طبعًا كان سيأمرك بهذا. ولكن ما يحيرني في الأمر، لماذا لم يطلب منك مبارزته ليلتها؟ وقبل أن تشتكيه في المحكمة؟ لا أفهم ذلك!

- لأنه لم يعرف عن الأمر شيئًا. لم يعرف أنني اشتكيته من الأساس. كان نائمًا عندما عدت ليلة أمس للمنزل.

- ولم توقظه؟ معقول يا توم؟

لم يرتَح توم لهذا السؤال. تململ في جلسته وقال:

- لم أرد إخباره. هكذا ببساطة! كان ذاهبًا للصيد مع بيمبروك هاوارد قبل الفجر، واعتقدت أنني لو اشتكيت التوأم في المحكمة سيدخلان السجن. كنت متأكدًا أنني أستطيع فعل ذلك. لم أعرف أن القاضي سيحكم عليهما بمبلغ تافه مثل هذا! ظننت أن بمجرد دخولهما السجن سيشعران بالعار والندم على فعلتهما، ولن يأمرني عمي بمبارزة أناسٍ موصومين بالعار مثلهما، بل ولن يسمح لي بذلك أصلًا. هذا ما ظننته.

- عار عليك يا توم! معقول؟ لا أفهم كيف تعامل عمك الطيب بهذه الطريقة! رغم أنك ابن أخيه إلا أنني أقرب إليه منك! لو كنت مكانك، لذهبت وأخبرته أولًا عمّا حدث وطلبت رأيه، ولم أكن لأذهب للمحكمة أبدًا. كنت سأترك له حرية التصرف في أمر كهذا؛ لأنه حتمًا سيتصرف بنبالة.

مُنفعلًا قال توم:

- تريدني ألا أشتكيه في المحكمة؟ إنها أول قضية لك يا رجُل! وإذا لم ألجأ للمحكمة، لكنت متّ قبل أن تجيئك قضية واحدة. أما الآن فأنت محام مُعترف به على الأقل! ومع ذلك تلومني أنني اشتكيته في المحكمة؟

- طبعًا.

نظر توم إليه بحزن للحظة، وقال في أسى:

- أصدقك. لا أعرف لماذا أصدقك، ولكنني أصدقك يا ويلسون المغفل. أعتقد أنك أكبر مغفل رأيته في حياتي.

- شكرًا.

- لا عليك.

مُستنتجًا قال ويلسون:

- حسنًا إذنْ.. لقد طلب منك عمك أن تبارز الشاب الإيطالي وأنت رفضت، رغم أنك من نَسل عائلة نبيلة. أليس كذلك؟ عار عليك!

- لا يهمني هذا في شيء بعدما تمزقت الوصية أشلاء أمام عينيَّ.

- أخبرني صراحة يا توم. ألم يعاقبك بسبب أي شيء آخر سوى أنك رفضت المبارزة وأحلت القضية إلى المحكمة؟!

امتقع وجه توم وخرج صوته كسيرًا:

- لا. لا يوجد أي شيء آخر. لو كان هناك أي سبب آخر لمعاقبته إيايَ لقاله أمس. لكن أذكُر أنه عندما رافَق التوأم في جولة ليعرفهما على البلدة، عاد ليلتها إلى البيت ولم يجد ساعة أبيه الفضيَّة القديمة. ساعة غير مضبوطة على أي حال! قال إنه لا يذكر متى رآها آخر مرة، وكان ذلك قبل ثلاثة أيام أو أربعة. وعندما قلتُ له إنها ربما سُرِقَت، غضَب ونعتني بالغبي! هذا لأنه يخشى أن يكون كلامي صحيح. يريد تصديق أن الساعة ضاعت؛ فالأشياء الضائعة يمكن أن نجدها، أما المسروقة فلن نجدها مرة أخرى. لعله غضب من ذلك أيضًا!

أطلق ويلسون من فمه صفارة، وقال:

- يا إلهي! وهذه سرقة أخرى نضيفها إلى القائمة.
- أي قائمة؟!
- قائمة المسروقات.
- مسروقات؟
- نعم. هذه الساعة لم تضِع. بل سُرقت فعلًا. كان هناك غارة على البلدة، وما حدث من قبل تكرر! تذكُر؟
- غير معقول!
- بل متأكد مثلما أنا متأكد أنني وُلدتُ. هل فقدت شيئًا أنت أيضًا؟
- لا. مجرد مقلمة أعطتها لي العمة ماري برات في عيد ميلادها الماضي.

- ستجد أن هذه المقلمة مسروقة. سترى.
- لا.. ليست مسروقة؛ لأنني عندما أخبرت عمي أن الساعة من المحتمل أن تكون قد سُرقت ذهبتُ وفتشت غرفتي جيدًا، وكانت المقلمة ضائعة وقتها، لكنني وجدتها بعد ذلك.
- متأكد أنك لم تفقد شيئًا آخر؟
- لا أعتقد. لا شيء معين. فقدت خاتمًا ذهبيًّا صغيرًا قيمته دولاران أو ثلاثة، لكنني متأكد أنني سأجده، سأبحث عنه مرة أخرى.
- أعتقد أنك لن تجده. كانت هناك غارة. صدقني. ألا تصدق؟!

وبينما يتحدثان، جاء القاضي روبنسون، وتبعه باكستون، وشُرطي البلدة جيم بليك، وانضموا للجلسة. وبعد أحاديث ولغو لا طائل منه قال ويلسون:

- بالمناسبة، أريد أن أضم لقائمة المسروقات شيئًا، أو ربما شيئين. ضاعت ساعة القاضي دريسكول الفضية القديمة، وكذلك خاتم توم الذهب.

قال القاضي مستاءً:

- الأمر يزداد سوءًا مع مرور الوقت. المنازل المحيطة ببيت باتسي كوبر جميعها تعرضت للسرقة. فقدوا أشياء مثل الحُلي والملاعق وبعض الأشياء الثمينة صغيرة الحجم التي يسهُل حملها. واضح جدًّا أن اللص استغل فرصة تجمع

الجيران في منزل باتسي كوبر للترحيب بالتوأم، وجميع خدمهم يتسكعون هنا وهناك حول سور المنزل ليتفرجوا على الحفل، استغل هذه الفرصة وسرق المنازل المجاورة. داهمها دون أن يتعرض لأي عائق. باتسي حزينة جدًّا بسبب ما حدث، مشفقة على الجيران المسروقين، ومشفقة أكثر على ضيفيها التوأم الأجنبيين.

قال ويلسون:

- إنه نفس اللص القديم.

وقال القاضي:

- الضابط بليك لا يعتقد ذلك.

رد بليك:

- أنت مخطئ. ليس اللص القديم. وقتها كان اللص رجلًا، وكان هناك كثير من الدلائل التي تشير إلى ذلك. بطبيعة مهنتنا نحن تحرينا وعرفنا هذا. أما هذه المرة؛ فاللص امرأة.

فورًا فكر ويلسون في المرأة الغامضة التي رآها في غرفة توم. هي من الأساس لم تفارق ذهنه.

استطرد بليك قائلًا:

- هي امرأة عجوز منحنية الظهر، معها سلة مغطاة، ترتدي حجابًا أسود كأنها في حداد. رأيتها على متن عبَّارة أمس. تعيش في إلينوي، حسبما أعتقد. لكن أنا لا يهمني أين تعيش. سأجدها مهما كان الثمن.

- لماذا تعتقد أن اللص امرأة هذه المرة؟

- لأن بعض الزنوج الذين صادف ومروا بالجوار ليلتها رأوها وأخبروني. وكلما صادَف ورأوها كانوا يفقدون شيئًا من ممتلكاتهم أو أمتعتهم في اليوم نفسه.

وافق الجميع أن هذه الأدلة الظرفية كافية وجيدة. بعدها - ولبضع لحظات- التزم الجميع الصمت مُتأملين، قطعه صوت ويلسون حين قال:

- هناك شيء إيجابي واحد على أي حال؛ لا يمكنها أن تبيع خنجر الكونت لوجي الثمين.

قال توم وهو يمثل أنه تفاجأ:

- أوه! هل سرقت المرأة الخنجر أيضًا؟

- نعم.

- معقول؟ ولكن لماذا لا يمكنها أن تبيعه؟

- لأن التوأم عندما عادا من حفل أبناء الحرية بالأمس، وجدا أن خبر الغارة انتشر في كل مكان، وكانت العمة باتسي قلقة جدًا وخائفة من أن يكونا فقدا أي شيء، وعندما فتشوا غرفتهما وجدا أنهما فقدا الخنجر؛ فأبلغا الشرطة والبائعين والمرتهنين في كل مكان، وإذا حاولت هذه اللصة العجوز بيع الخنجر، سيتم القبض عليها فورًا.

سأل باكستون:

- هل عرضوا مكافأة لمَن يعيد الخنجر؟

- نعم. خمسمائة دولار لمَن يجد الخنجر، ومثلهم لمن يبلغ عن السارق.

صاح الشرطي:

- ما أغبى هذه الفكرة! طبعًا لن يجرؤ أحد أن يسلّم الخنجر بعد الآن؛ لأنه بذلك يسلّم نفسه كلصّ. ومستحيل أيضًا أن يرهن الخنجر أو يبيعه بعد انتشار الخبر.

إذا نظر أحدهم لتوم في هذه اللحظة، لَلاحظ امتقاع وجهه الذي صار يشبه أوجه الموتى بجلدهم الرمادي الضارب للأخضر! لكن أحدًا لم يلحَظ. وقال توم بينه وبين نفسه: "أنا ضعت. ضعت تمامًا. لن أستطيع أن أسدد ديوني. بقية المسروقات لا تكفي لتسديد ما عليَّ. مستقبلي تحطم هذه المرة، وللأبد! لا أعرف ماذا أفعل! ولا إلى أين أذهب؟!".

رد ويلسون على كلام بليك وقال:

- خُذ الأمور بهدوء. لقد جلست مع نفسي ليلة أمس من منتصف الليل وحتى الثانية صباحًا، ووضعت خطة في غاية الإحكام. سيستعيد التوأم خنجرهما، وسأشرح لكم كيف، ولكن ليس الآن.

فضول عارم تلبَّس الجميع، وقال باكستون:

- حمستنا يا ويلسون! أخبرنا أرجوك.

- لا يمكنني. لا يزال الوقت مبكرًا على ذلك يا باكستون. وطالما اتفقتُ مع التوأم ألا أخبر أحدًا؛ عليَّ الالتزام

بكلمتي. لكن وعد مني، لن تنتظر أكثر من ثلاثة أيام لتعرف. خلال هذه المدة، هناك مَن سيذهب ويسلّم الخنجر ويطلب المكافأة، وبعدها سأعرفكم من هو اللص.

بخيبة أمل وحيرة رد الشرطي:

- نعم.. فهمت. آمل أن يحدث ذلك. لكنني ألومك إن كان ما تخفيه عني سيسهل عليَّ الطريق. هذا الحمل كثير عليك وحدك يا ويلسون.

وبعد أن تناقشوا حتى لم يعُد هناك للحديث بقية، أخبر القاضي ويلسون أنه جاء بصحبة باكستون والشرطي في الأساس ممثلين للحزب الديموقراطي؛ ليقترحوا عليه الترشح لمنصب رئيس البلدية؛ فالبلدة الصغيرة أوشكت أن تصبح مدينة، واقترب موعد أول انتخابات دستورية. بالنسبة لويلسون، كان هذا أول اهتمام يحظى به من أحد في هذه البلدة. استقبل الفكرة بتواضعه المعتاد، وعلى الرغم من ذلك، وفي قرارة نفسه، امتن جدًّا للاعتراف به أخيرًا كفرد مهم يمكنه أن يشارك في الانتخابات! واعتبرها خطوة فارقة في مشواره المهني. ثم غادر فريق الحزب، ومعهم غادر توم.

الفصل الرَّابع عشر

روكسانا مصممة على الإصلاح

"ثمرة البطيخ الجنوبي لا تُقارن بأي فاكهة أخرى. هي الملكة على كل الثمار، والرفاهية الألذ من بين رفاهيات الحياة. عندما يذوقها المرء، سيعرف ماذا تأكل الملائكة في الجنة. لم تكُن الثمرة التي قطفتها حواء من الشجرة ثمرة بطيخ جنوبي. نعرف ذلك لأنها تابت!".

من مذكرات ويلسون المغفل

في الوقت الذي ودع ويلسون فيه ضيوفه، كان بيمبروك هاوارد يُخبر القاضي دريسكول بالمستجدات.

- حسنًا يا هاوارد.. ما الأخبار؟

- كل شيء ممتاز.

- وافق.. أليس كذلك؟

- وافق؟ بل رحب بالأمر كأنه يغتنم فرصة حياته!

لمعت عينا القاضي بنظرة مَن ظفر في الحرب، فرحًا قال:

- وافق فعلًا؟ ممتاز.. بدأ يعجبني. متى سيكون الميعاد؟

- الآن! هذه الليلة! إنه رجل غريب! مثير للدهشة والإعجاب!

- مثير للإعجاب؟ بل هو رجل شريف على ما يبدو. سعيد أنني سأقف أمام رجل مثله. حسنًا، هيا اذهب أنت ورتب كل شيء، وبلغه أطيب تحياتي. هو رجل رائع فعلًا ومحترم، ومن النادر أن يكون هناك محترمون مثله.

- سأقابله بعد ساعة في الساحة الخالية، تلك التي بين منزل ويلسون والمنزل المسكون. سآخذ المسدسات معي.

ظل القاضي دريسكول يروح ويجيء في قلق بمشاعر صاخبة. يفكر في توم. يذهب ليكلم سكرتيره ثم يتراجع في آخر لحظة. وقال في نفسه: "قد تكون هذه ليلتي الأخيرة في هذا العالم. وتوم لا يستحق ثقتي. لكن أخي أوصاني عليه عندما كان يحتضر في فراشه. لعلي بالغت في معاقبته بدلًا من تعليمه وتوجيهه كيف يصبح رجلًا مسؤولًا. هو خان ثقتي أكثر من مرة، ولكن لا يجب أن أهجره وأتركه هكذا وأزيد من ذنوبي! لقد غفرت له مرة من قبل، ولن أسامحه مرة أخرى قبل أن أعلمه الأدب؛ هذا إذا عشت. ولكن ماذا لو مت؟ يجب أن أعيد كتابة الوصية. وإذا نجوت من المبارزة سأخفيها. لن أخبره أنني كتبتها من جديد حتى يصلح من نفسه. وهو لن يعرف. وعندما أتأكد أنه لن يعود لضلاله ثانيةً، وقتها سأخبره".

أعاد القاضي كتابة الوصية، وأصبح ابن أخيه المزيف وريثًا شرعيًا لثروته من جديد. أما توم فكان شارد الفكر مرهقًا. عاد للمنزل ومر بغرفة الجلوس. لمح عمه فاختفى بسرعة من أمامه؛ رؤيته تسبب له الرعب، وهذا آخر ما يريده الليلة. استعجب عندما لمح عمه يكتب شيئًا. ليس من عادته أن يكتب في هذه الساعة المتأخرة

من الليل! اقشعر بدنه وسرت رعشة في قلبه. هل يكتب شيئًا يخصه؟ شعر بخوف غريب؛ فهو يعرف جيدًا أن المصائب لا تأتي فُرادى، ونوى أن يفتش مكتب عمه في وقت لاحق ليعرف ماذا كتب وما السبب. وعندما سمع صوت خطوات تقترب، فر مبتعدًا. كان هذا هو بيمبروك هاوارد. ماذا أتى به الآن؟

بارتياح شديد قال بيمبروك للقاضي دريسكول:

- كل شيء جاهز كما أردنا بالضبط. توجَّه هو وتوأمه لساحة المعركة، ومعهم الطبيب. رتبت كل شيء مع ويلسون. كل واحد سيطلق ثلاث رصاصات.
- ممتاز. والقمر؟
- مشرق كأنه النهار. لا توجد رياح، ولا حتى نفَس. الجو حار وثقيل.
- ممتاز. كل شيء مثالي. اقرأ هذا يا بيمبروك. واشهد على المكتوب.

قرأ بيمبروك الوصية، هز رأسه وقال:

- عرفت أنك ستفعل ذلك. لا يمكنك أن تذهب وتقاتل وتترك خلفك هذا الشاب المسكين غير مؤمَّن، بلا وصية ولا وظيفة، مع مستقبل مظلم لا محالة. أعرف أنك لم تكن لتسمح بهذا أبدًا. ليس من أجله، ولكن من أجل والده.

- نعم. من أجل أخي المتوفي. أفعل ذلك من أجل بيرسي المسكين. أنت تعرف كم كنت أحب أخي. لكن احذر أن يعرف توم بهذا الأمر إلا إذا مت الليلة.

- أتفهم ذلك. سأحافظ على السر.

وضع القاضي الوصية في مكان آمن وذهب وصديقه إلى ساحة المعركة. في الدقيقة التالية كانت الوصية في يد توم! انتهى البؤس الذي كان منغمسًا فيه فجأةً. بحذرٍ أعاد الوصية إلى مكانها. وأطلق لنفسه العنان كي يفرح. انزاح همّ ثقيل عنه. صار يلعب بقبعته ويلفها مرة ومرتين فوق رأسه. قال في نفسه:

- حصلت على الثروة مرة أخرى. لكن لن أخبر أحدًا أنني عرفت. سأحافظ عليها هذه المرة. لن أجازف ولن أخاطر من جديد. لن أشرب بعد الآن. لماذا؟ لأنني لن أذهب من الأساس إلى أماكن بها خمور. هذا أسلم حلّ. نعم. هذه هي الطريقة الأكيدة لتجنب الشرب. لقد خفت فعلًا هذه المرة، وكنت على وشك الضياع. ولن أخاطر أبدًا مرة ثانية ولن أهدر الفرصة. وإذا أخبرني أنه كتب الوصية، لا بأس، أما إذا لم يفعل، لا يهم أيضًا. حسنًا. أريد أن أخبر ويلسون المغفل. لكن لا. سأفكر قبل أن أتصرف. لا لن أخبره.

هز توم رأسه وقال في نفسه:

منذ هذه اللحظة قد انصلح حالي.

وقبل أن يرتاح إلى هذه الأفكار التي تجول في رأسه وهذا الخبر العظيم، اغتم مرة أخرى عندما تذكر أنه لن يستطيع بيع الخنجر

الثمين بسبب ويلسون، وأن دائنيه يمكن أن يسببوا له مشكلة إذا لم يسدد ما عليه وينفضح أمره أمام عمه، وأنه لا يزال في خطر كبير وفظيع لم ينتهِ. خاب أمله وشعر بالتعاسة. تلاشت فرحته ولم يهنأ بها. خرج من غرفة عمه وجر نفسه للطابق العلوي، حبس نفسه في غرفته لمدة طويلة مستسلمًا لليأس، ومعه خنجر لوجي الهندي. تنهد وقال في نفسه: "عندما ظننت أن هذه الأحجار الثمينة مجرد زجاج كنت مرتاحًا. لم يكن هذا الخنجر يهمني من الأساس؛ لأنه عديم القيمة ولا يمكنه حل مشكلتي. أما الآن، فأنا أعرف أنه ثمين جدًّا. ثمين لدرجة مذهلة! لدرجة أن به يمكن أن أنقذ نفسي من الدائنين وأحل كل مشاكلي. كأنني الآن أمسك ذهبًا تحول في يدي إلى تراب أو رماد! هذا الخنجر يمكن أن يحل مشكلتي وينقذني ومع ذلك يجب ألا أبيعه ويجب أن أظل في خطر! إن ذلك مثل أن أغرق بينما طوق النجاة في يدي. الحظ يأتي برجله إليَّ، بينما يحالف التوفيق آخرين! حتى ويلسون المغفل بدأ يكون ذا شأن في البلدة! ماذا فعل ليستحق ذلك؟ أريد أن أعرف. نعم.. هو فتح لنفسه طريقًا جديدًا، ولم يكتفِ بذلك، بل أغلق الطريق في وجهي! هذا العالم قذر وأناني. أتمنى أن أموت".

انعكس على أحجار الخنجر الكريمة ضوء خافت، جعلها تلمع وينبعث منها ألوانًا آسرة. كل لمعة كانت بمثابة طعنة في قلبه. تمتم يقول: "يجب ألا أخبر روكسي عن هذا الخنجر. إنها جريئة جدًّا. لو أخبرتها ستنزع هذه الأحجار وتبيعها، سينكشف أمرنا بعدها ويلقون القبض علينا، وسيتحفظون على الأحجار".

فكرة كهذه أثارت الرعب في نفسه. أخفى الخنجر بسرعة وهو يتلفت حوله كأن أحدًا قد كشف أمره. حاول أن ينام ولم يعرف. النوم ليس لأمثاله. مشكلته أصعب من أن يجد حلًّا لها. يريد بشدة مشاركة أحزانه مع أحد يهون عليه. سيذهب إلى روكسي ويشاركها همومه.

في الطريق سمع طلقات نارية مدوية. ورغم أن هذه الأشياء لا تحدث في البلدة إلا نادرًا، إلا أنه لم يهتم بذلك. خرج من الباب الخلفي للمنزل وتوجه ناحية الغرب. مر بمنزل ويلسون ومضى على طول الممر. من خلال الأزقة الجانبية رأى أناسًا كثيرين يقتربون من منزل ويلسون. هؤلاء هم المبارزون العائدون من القتال. لم يعرفهم توم، ولأنه لم يُطِق أن يقابل أحدًا من الأسياد ذوي البشرة البيضاء الآن، اختبأ خلف السياج كيلا يراه أحد، وبقي كذلك حتى ابتعدوا جميعًا عن الطريق.

وعندما وصل للبيت المسكون وجد روكسي بخير حال. قالت:

- أين كنت يا بُنيّ؟ ألم تكن هناك؟

- هناك أين؟

- في المبارزة.

- هل كانت هناك مبارزة؟

- طبعًا! القاضي العجوز كان يبارز أحد التوأم.

- ممتاز.

ثم قال في نفسه: "هذا ما جعله يكتب الوصية إذنْ. اعتقد أنه سيُقتَل الليلة. لذا رق قلبه عليَّ. وهذا إذنْ ما انشغل في الحديث عنه مع صديقه هاوارد. آه لو يقتله التوأم! وقتها ستنتهي كل...".

قاطعت روكسي تفكيره متسائلة:

- فيمَ تفكر يا تشامبر؟ أين كنت؟ ألم تكن تعرف أن هناك مبارزة فعلًا؟

- لم أكن أعلم. الرجل العجوز حاول أن يجبرني على الذهاب ومبارزة الكونت لوجي ولكنني رفضت؛ لذلك أعتقد أنه قرر غسل شرف العائلة بنفسه.

ضحك ساخرًا، وحكى لها حديثه مع القاضي، وصدمته عندما اكتشف أن في عائلته جبانًا. فاجأته روكسانا بأن ضمته إلى صدرها في حنان بالغ وشغف مكبوت. ثم تبدلت ملامحها وحدقت في وجهه بازدراء شديد، وقالت:

- رفضت إذنْ أن تحارب الرجل الذي ركلك أمام الجميع؟ هذا بدلًا من انتهاز الفرصة لتبارزه؟ وجئت لتخبرني بهذا بلا أي خجل أو ندم؟ إذنْ قد أنجبت أرنبًا جبانًا! مجرد التفكير في ذلك يُمرضني. إن هذه لهي تصرفات الزنجي الموجود في دمك. عار أنني أنجبت ولدًا مثلك! إذا عرف أبوك ذلك سيموت موتة أخرى!

أغضب هذا الكلام توم، وقال لنفسه إن أباه لو كان حيًّا، وتعرض لخطر القتل، كان سيفديه بحياته، وستعرف والدته قيمته وقتها،

وستفهم أنه ليس جبانًا. لم يقُل أيًّا من هذا الكلام. احتفظ بأفكاره لنفسه؛ فمزاجها لم يسمح بهذا الجدال الآن.

استطردت أمه تقول في حنق:

- لا أصدق أنك تهربت من تلك المبارزة. يبدو أن مذلة العبيد تسري في دمك. لست مثل أجدادك الكبار أحفاد الكابتن الكبير جون سميث! وأحفاد الملكة الهندية بوكاهونتاس*[1]، زوجها كان ملكًا زنجيًّا خارج إفريقيا. أما أنت فعار على العائلة، مثلك مثل كلب صيد جبان! إنه الزنجي بداخلك الذي يتصرف بهذه الطريقة المخزية.

استغرب توم من تقلبات أمه المزاجية المفاجئة! تغضب ثم يتلاشى غضبها فجأةً، تضمه بحنان ملؤها العاطفة، وفي اللحظة التي تليها تثور كمَن سيهدم الدنيا بما فيها، ثم لا تلبث أن تهدأ من جديد! تتمتم بينها وبين نفسها بكلمات لا يسمعها بين الحين والآخر. جلست إلى صندوق الشمع مستغرقة في التفكير، ثم بدا كأنها طردت كل الأفكار من رأسها، وعرف توم أن أمه متقلبة المزاج تلبَّستها روح الدعابة الآن. لاحظ كيف تلمس طرف أنفها كل لحظة فقال: "هل أنفكِ مصاب يا ماما؟ كيف حدث ذلك؟".

خرجت ضحكتها مرحة بهيجة لا يضحك مثلها سوى الملائكة في السماء، وهذه الأمَة الزنجية المُصابة بالكدمات في الأرض.

---

(1) امرأة أمريكية من السكان الأصليين، ابنة زعيم أحد قبائل الأمريكان القدماء. تنتمي إلى شعب بوهاتان، ومعروفة بارتباطها بالمستوطنة الاستعمارية في جيمس تاون، فيرجينيا.

قالت بحماس:

- إصابة من المبارزة. كنت حاضرة هناك بنفسي.

- فعلًا؟ وهل أصابتكِ رصاصة في أنفكِ؟

- نعم. تراهن على هذا؟

- أصدقكِ. ولكن كيف حدث هذا؟

- كنت جالسة هنا في الظلام، ثم سمعتُ بووم.. صوت طلق ناري! فورًا وقفت بجوار النافذة القديمة التي تطل على منزل ويلسون المغفل، ووجدت التوأم يتسابان في الساحة بالأسفل. يتشاجران، ولكن مشاجرة خفيفة. بدا أن ذا الشعر البني غاضب لأن عيارًا ناريًّا قد أصاب كتفه، والطبيب كلايبول كان يُعالجه، وويلسون وقف يساعده. أما القاضي العجوز دريسكول، وهاوارد فيقفان في الخارج ينتظران البقية أن يستعدوا للجولة الثانية. بعد لحظات سُمعت طلقات رصاص.. بانج بانج! بوم.. بوم.. ثم صاح واحد من التوأم! هذه المرة اخترقت يده رصاصة ثم ارتطمت بجدار المنزل لتستقر تحت الشباك! وعندما أطلقوا الرصاص في المرة التي تليها، صرخ الأخ الآخر؛ لأن رصاصة خدشت عظمة وجنته ومرت من جانبه لتمر من أمام وجهي بالضبط ثم سقطت تحت قدمي! أصابت أنفي. لو كنتُ أقرب للنافذة من ذلك لكانت ذهبت بأنفي كله وتركتني مشوهة! ها هي الرصاصة. احتفظتُ بها.

- كنتِ واقفة أمام النافذة طوال الوقت؟

- وهل هذا سؤال؟ طبعًا وقفت هناك! هل تحدث مبارزة في البلدة كل يوم؟

- كنتِ قريبة جدًّا من الرصاص! ألم تشعري بالخوف؟

بازدراء نظرت إليه قائلة:

- أخاف؟ عائلة سميث وبوكاهونتاس لا تخاف من شيء على وجه الأرض، وليس فقط من مجرد إطلاق رصاص!

- أظن أنهم تحاربوا بما فيه الكفاية، وينقصهم الإعلان عن الفائز! لم أكن لأقف هناك أبدًا.

- لم ينادِ أحد عليك أصلًا!

- وهل أُصيب أحد آخر؟

- كلنا أصِبنا. أنا والتوأم والطبيب، أما القاضي فلم يُصِبه شيء، وسمعت ويلسون يقول إن رصاصة طائشة حفَّت جزءًا من شعره.

قال توم في نفسه: "يا إلهي. لم يمُت القاضي ولم يُصبه مكروه. سيظل حيًّا حتى يبيعني في بلاد جنوب النهر في نهاية الأمر! سيبيعني لأحد التجار الزنوج، ولن يتردد في ذلك لحظة".

وبنبرة مَن أصابته مصيبة للتو قال:

- ماما، نحنُ في مأزق مروِّع!

التقطت روكسانا أنفاسها قبل أن تقول:

- أي مأزق الذي تتكلم عنه؟! لماذا أصابك الهلع فجأة يا ولد؟!

- حسنًا. هناك شيء واحد لم أخبرك به. عندما رفضت الذهاب للمبارزة مزق عمي الوصية مرة أخرى، و.."

قاطعته روكسانا التي انسحب الدم من وجهها وقالت:

- يا للمصيبة! لقد انتهيت! هذه هي النهاية. سنموت جوعًا عمّا قريب.

- دعيني أنهي كلامي! انتظري واسمعيني. أعتقد أنه عندما قرر أن يخوض هذه المبارزة بنفسه، وعرف أنه ربما لا يعود إلى بيته حيًّا هذه الليلة، وقد لا تسنح له فرصة ثانية ليسامحني؛ من أجل ذلك كتب الوصية من جديد، ورأيتها بنفسي، وكل شيء على ما يرام ولكن...

- آه يا ربي! الحمد لله! نحن في أمان إذنْ. وطالما نحن في أمان لماذا تتفوه بمثل هذا الهراء عديم الجدوى وتخيفني؟!

- قلتُ لكِ انتظري ودعيني أنهي حديثي! افهمي. الغنيمة التي جمعتها من الغارة الأخيرة لا تكفي لسداد نصف ديوني. والدائنون طبعًا سيطالبون بمالهم قريبًا. وتعرفين ما سيحدث وقتذاك.

نكَّست روكسانا رأسها وطلبت من ابنها أن يخرس ريثما تفكر جيدًا. بتأثر بالغ قالت:

- يجب أن تكون حذرًا بشكل رهيب من الآن فصاعدًا. تسمعني؟ عمك لم يُقتَل، ولو أعطيته سببًا بسيطًا هذه المرة سيمزق الوصية ولن يكتبها مرة أخرى مهما حدث. هذه فرصتك الأخيرة. اسمع!

ستذهب وتثبت له ولاءك طوال الأيام التالية. ستريه كم صرت إنسانًا جيدًا وجديرًا بالثقة. ستفعل كل شيء ليؤمن بك من جديد. ويجب أن تتودد للسيدة الكبيرة برات؛ لما لها من تأثير قوي على القاضي. ستكون أفضل مُعين لك. وبعد أن تكسب ودهم وتعاطفهم معك، ستسافر بعيدًا إلى سانت لويس؛ وبهذا تضمن وجوده في صفك. ثم ستذهب وتساوم هؤلاء الدائنين. أخبرهم أن عمك لن يعيش طويلًا، وهي حقيقة، وقل لهم إنك ستعطيهم فوائد.. فوائد كبيرة.. عشرة في المائة. ما رأيك؟

- عشرة في المائة فائدة كل شهر؟

- نعم. ثم ستذهب وتبيع غنيمتك.. في كل مرة ستبيع منها جزءًا وتسدده لهم كفائدة. إلى متى سيكفيك المال الذي معك لتنفذ هذه الخطة؟

- أعتقد أن هناك ما يكفي لدفع فوائد خمسة أو ستة أشهر.

- عظيم. ستظل في أمان طوال هذه المدة على الأقل، ليس من المعقول ألا يموت خلال هذه الستة أشهر. الله سيحميك. ستكون في أمان إذا أحسنت التصرف.

ثم نظرت إليه بحزم وصرامة وقالت:

- ستحسن التصرف. أليس كذلك؟

ضحك وقال إنه سيحاول؛ لكنها قالت بجدية أكبر:

- لن تحاول، بل ستنفذ! لن تسرق ولو حتى قلمًا بعد الآن؛ لأن هذا يعرضك للخطر. لن ترافق أصدقاء السوء، ولا حتى

لمرة واحدة. أتفهم؟ لن تشرب ولو قطرة من الخمر. لن تقامر مهما حدث. ولا مرة! لن تحاول، بل ستفعل ما آمرك به. وإذا أخطأت ولو خطأ صغيرًا، سأعرف. كيف سأعرف؟ لأنني سأزورك كثيرًا في سانت لويس، وبشكل مفاجئ، ولو فشلت فيما أمرتك به سأذهب مباشرة إلى القاضي وأخبره بنفسي أنك زنجي وعبد. سأثبت لك ذلك!

ثم سكتت لتتأكد أنه صدق كلامها واقتنع به تمامًا، وبعدها أضافت: "تشامبر، تصدقني عندما أخبرك بذلك؟".

ببؤس رد توم:

- نعم يا ماما. أصدقكِ. سأنفذ كل كلامكِ. لقد انصلح حالي من الآن وللأبد، ولن يغريني مخلوق لأفعل شيئًا خاطئًا.
- عُد إلى البيت إذنْ، وابدأْ في تنفيذ الخطة.

الفصل الخامس عشر
وسُرِقَت الغنيمة!

"لا شيء يحتاج إلى إصلاح مثل عادات الآخرين".

من مذكرات ويلسون المغفل

"يقول الغبي: لا تضع بيضك كلَّه في سلة واحدة.
وليس هذا إلا تشتيتًا للانتباه وللمال!
أما الحكيم فيقول: ضعْ بيضَك كله في سلة واحدة، وانتبه إليها جيدًا".

من مذكرات ويلسون المغفل

تمر بلدة داوسون لاندينغ بوقتٍ عصيبٍ! كانت بلدة هادئة لا مشاكل فيها. أما الآن؛ فبالكاد لا تمر عليها ساعة راحة! ومنذ صباح الجُمعة، سرعان ما توالت المصائب والمفاجآت والأحداث المزلزلة. لمحة من النُّبل الحقيقي، حفل استقبال كبير عند العمة باتسي كوبر، غارة لصّ في المساء، ثم ركلة جبارة لوريث كبير المواطنين بحضور أربعمائة شخص، وممارسة ويلسون المغفل مهنته مُحاميًا لأول مرة، وليلة السبت تقام مبارزة بين كبير المواطنين وأجنبي ذي شأن.

وبين كل هذه الأحداث كانت المبارزة هي الأهم بالنسبة لأهالي البلدة، اعتبروها مجدًا لبلدتهم الصغيرة لا يتحقق كل يوم، ووصل المبارزان إلى مكانة عالية، سكنا في قلوب الجميع، ونالا شرفًا عظيمًا واستحسانًا من الناس، وصار ويلسون فجأةً رجلًا مرئيًّا ومسموعًا! وعندما طُلِب منه ليلة السبت أن يترشح في الانتخابات، وعلى الرغم من خوفه من الخسارة، فقد لبَّى الطلب صباح الأحد! أما التوأم فصارا من عظماء البلدة. الجميع يكوِّن معهما صداقات ويدعوهما في زيارات مرحبين ومهللين ومقدمين لهما شتى أنواع الطعام. موهبتهما الموسيقية الأخاذة كانت سببًا إضافيًّا في ترسيخ شعبيتهما ومحبتهما في قلوب الناس، صارا محط أنظارهم وإعجابهم. وبدورهما كان التوأم سعيدين لأنهما تقدما قبل ثلاثين يومًا بأوراقهما الرسمية لطلب المواطنة؛ يريدان أن يصيرا مثل المواطنين الأصليين في البلدة. حتى لقد قررا أن يعيشا ما تبقى من عمرهما في هذا المكان اللطيف المفعم بالحب والترحيب.

كانت هذه الذروة، عندما تكاتف الجميع بقلب رجل واحد وطلبوا من التوأم أن يشغلا مقعدين في مجلس المعمودية القادم، ووافقا، وقتها صارت الحياة وردية بالنسبة للجميع. إلا توم، لم يكُن فرحًا بما يحدث. رأى التوأم يتوغلان في البلدة كأنهما من أهلها الأصليين! يكره الأول لأنه ركله أمام الناس، والثاني لأنه أخوه!

كلما تذكر الناس أمر الغارة، تساءلوا أين اختفى اللص؟ ولماذا لم يظهر حتى الآن؟ مر أكثر من أسبوع ولا يزال أمره لغزًا محيِّرًا.

الضابط بليك وويلسون المغفل التقيا يوم الأحد في أحد شوارع البلدة، وفي الوقت المناسب انضم إليهما توم دريسكول ليفتح هو الحديث. سأل الضابط بليك:

- لا تبدو على ما يرام يا بليك! هل هناك مشاكل في التحقيق؟ أسمع أنك محترف في مثل هذه القضايا، وسمعتك في هذا المجال طيبة. أليس كذلك؟

شعر بليك بالرضا وأعجبه هذا الإطراء، بينما أردف توم:

- رغم سمعتك الجيدة إلا أنك لم تتوصل إلى شيء؟!

مما جعل بليك يشعر بإحساس مناقض للأول! خانه صوته المرتبك وهو يقول:

- طبعًا سمعتي طيبة، مثلي مثل أي زميل في المهنة، في هذه البلدة أو غيرها.

- آه.. أرجوك اعذرني، لم أقصد أي إهانة صدقني. ما قصدته أن أسأل فقط عن المرأة العجوز التي داهمت البلدة، المرأة منحنية الظهر تلك، التي قلت إنك ستقبض عليها. أعرف بالطبع أنك ستفعل ذلك؛ فأنت لست من النوع الذي يتفاخر بما ليس فيه.. مطلقًا. هل ألقيت القبض عليها؟

- اللعنة على هذه المرأة!

- لماذا؟ لا تقُل إنك لم تقبض عليها بعد!

- لا. لم أقبض عليها. إذا كان هناك مَن يستطيع القبض عليها، لاستطعتُ أنا أيضًا. لكن أحدًا لم يستطع!

- أنا آسف فعلًا.. أنا أتكلم من أجل مصلحتك؛ لأنه عندما يقول محقق هذا الكلام بثقة تامة ثم لا ينفذه.. أنت تعرف ماذا أقصد.

- لا تقلق، لا عليَّ ولا على البلدة. هذه المرأة هي شغلي الشاغل الآن، وسأقبض عليها. بدأت أتوصل إلى أدلة جديدة.

- ممتاز! وإذا أردت أن أعرّفك على محقق مخضرم قديم من سانت لويس يعرف إلى أين يقود كل دليل، ولديه خبرة واسعة، أنا تحت أمرك.

- أنا مخضرم بما يكفي. شكرًا. لست بحاجة لمساعدة من أحد. سأقبض عليها بنفسي. سأقبض عليها خلال أســـ... خلال شهر. أقسم على ذلك.

غير مبالٍ رد توم:

- ممتاز. ولكنها امرأة كبيرة في السن، وهؤلاء المسنون ليسوا على دراية كافية بألاعيب المحققين، ولن يكونوا حذرين بما يكفي، وحتمًا ستخرج من مخبئها. خاصة عندما يكون المحقق قد جمع أدلة؛ فذلك يسهل عليه الأمر جدًّا.

احمرّ وجه بليك من أثر هذه السخرية من قدراته، وقبل أن يتمكن من كظم غيظه بما يكفي للرد، وجه توم الكلام إلى ويلسون قائلًا:

- مَن الذي حصل على المكافأة يا مغفل؟

جفل ويلسون وقال:

- أي مكافأة؟

- المكافأة التي كانت لمن يبلّغ عن اللص، والأخرى لمن يسلّم الخنجر!

مترددًا أجاب ويلسون:

- حسنًا.. امممم.. لم يسلّم أحد لا اللص ولا الخنجر حتى الآن.

مثّل توم أنه متفاجئ وقال:

- معقول؟ لماذا؟

منزعجًا رد ويلسون:

- هذا ما حدث. ولكن لماذا تسأل؟

- أوه! لا شيء. ظننت أنك ابتكرت فكرة جديدة، واخترعت مخططًا سيُحدث طفرة في مجال التحقيق وأساليب المحققين القديمة و...

استدار توم ليوجه كلامه إلى بليك الذي كان مرتاحًا الآن؛ لأن غيره أخذ مكانه في تحمل كل هذه السخرية اللاذعة. قال توم:

- بليك، ماذا قال ويلسون المغفل بخصوص فكرته العبقرية؟

- قال إنه سيجد اللص والخنجر في غضون ثلاثة أيام، وكان هذا قبل حوالي أسبوع من الآن! وقلتُ أنا وقتها إن هذا من المستحيل أن يحاول اللص أن يبيع أي شيء من المسروقات؛ لأنه بهذا سيفضح نفسه بنفسه، وأنه لن يرهن المسروقات حتى، ولن يغامر ليأخذ المكافأة. تلك هي فكرته العبقرية التي اقترحها!

بدأ ويلسون يشعر بالغضب. قال:

- ستغير رأيك عندما تعرف الخطة كلها، لا جزءًا منها فقط.

قال الضابط:

- على أي حال، كنت أعرف أن خطتك هذه لن تنجح، وفعلًا كلامي صحيح حتى الآن.

- ممتاز! دع الأمر يقف عند هذا الحد. على الأقل أسلوبي في التحقيق نجح حتى الآن مثلما نجح أسلوبك أنت بالضبط. إذا كنا سنعتبر أسلوبك هو الناجح!

زفر الضابط ساخطًا ولم يتفوه بكلمة. لا شيء يمكن أن يقال في موقف كهذا. وبعد هذا اليوم ظل توم يفكر في بقية الخطة التي ذكرها ويلسون! ترى ماذا تكون؟ لم يستطع أن يخمن أبدًا. ثم خطرت على باله فكرة. لماذا لا يلجأ لروكسانا التي تفوقه ذكاءً ودهاءً لعلها تستطيع تخمين بقية الخطة؟ ذهب إليها وحكى لها حكاية غير حقيقية ليعرف رأيها في الأمر، وأصدرت هي حُكمها.

قال توم في نفسه:

- بالتأكيد صدقتني ولم تفهم أنني أكذب.

وعندما قابل توم وبليك مرة أخرى، قرر أن ينفذ تعليمات روكسانا، ويراقب وجه ويلسون.

قال له:

- ويلسون، أنت لست مغفل. هذا ما اكتشفته حديثًا! أنا متأكد أن خطتك ستنجح، بغض النظر عن رأي بليك، ولن أطلب

منك إخباري بالخطة. بدلًا من ذلك أريد أن آخذ رأيك في حالة ما. فكرة أريدك أن تخبرني برأيك فيها، وهي مجرد بداية للنقطة التي أريد أن أوضحها لك. هذا كل ما أطلبه منك. أنت عرضت خمسمائة دولار مقابل الخنجر، ومثلها لمن يدل على السارق. سنفترض على سبيل المثال أننا أعلنَّا عن المكافأة الأولى في الجرائد، والثانية كتبناها في خطابات سرية خاصة نوجهها للدائنين وأصحاب الرهونات و..

ضرب بليك فخذه بيديه صائحًا:

- لماذا لم نفكر في هذا من البداية؟! لماذا لم تخطر على بالي هذه الفكرة أنا أو أي غبي آخر؟!

فكر ويلسون بينه وبين نفسه:

- أي شخص -لديه نسبة من الذكاء- سيفكر في هذه الفكرة. لستُ مندهشًا أنها لم تخطر على بال بليك، ولكنني مستغرب جدًّا أن توم هو مَن فكر فيها! هذا الشاب لديه شيء يخفيه.

لم يفصح ويلسون عن أفكاره، بينما أردف توم:

- وقتها لن يشك اللص في شيء. لن يعرف بوجود فخّ. سيحضر الخنجر ويقول إنه وجده في الطريق مثلًا، وجاء ليأخذ المكافأة، ووقتها سيتم القبض عليه. أليس كذلك؟

رد ويلسون:

- بلى.

وتابع توم كلامه:

- نعم، وهذا ما أعتقده أيضًا. لا شك أن هذه الخطة ستنجح. هل رأيت هذا الخنجر بنفسك من قبل؟

- لا.

- ولا تعرف صديقًا قد رآه؟

- ليس على حد علمي.

- حسنًا. أعتقد أنني بدأت أفهم لماذا فشلت خطتك.

لم يعُد ويلسون مرتاحًا لهذه المناقشة، سأل بريبة:

- ماذا تقصد يا توم؟ ما الذي تريد أن تصل إليه؟

- أقصد أنه لا يوجد خنجر من الأساس.

متحمسًا قال بليك:

- معقول؟ معقول يا ويلسون؟ يبدو أن توم دريسكول على حق فيما يقول! أراهنك مقابل ألف دولار -إذا كنت أحتكم على هذا المبلغ- أنه فعلًا لا يوجد خنجر!

غلى الدم في عروق ويلسون وبدأ يشك أن التوأم الأجنبيين يمكن أن يكونا قد خدعاه! لكن لماذا سيفعلان ذلك؟ ما مصلحتهما؟ ثم طرد هذه الشكوك من رأسه غير مقتنع.

قال توم:

- ولو كان على استفادتهما من هذا الادعاء؛ فليس شرطًا أن تكون استفادة كبيرة! إنهما أجنبيان وغريبان في هذه البلدة! لعلهما يريدان أن يبهرا أهالي البلدة بأغانيهما الساحرة

وممتلكاتهما التي ليس لها مثيل مثل هذا الخنجر. ويلسون.. لا يوجد خنجر بهذه المواصفات. وخطتك هذه لن توصلك إلى شيء. في اعتقادي أنهما رأيا خنجرًا مثله من قبل؛ لأنَّ أنجلو رسمه بسرعة وبسهولة بطريقة تؤكد أنه لم يبتكره من خياله. ولا داعيَ أن أقسم أنه ليس هناك مثل هذا الخنجر من الأساس، ولنفترض أنه موجود فعلًا وكان معهما عندما جاءا ليستقرا هنا في البلدة؟ سيكون لا يزال عندهما في البيت!

قال بليك:

- نعم، يبدو كلامك معقولًا.

وبينما استدار توم ليغادر، أنهى النقاش قائلًا:

- الأَولى أن تجد المرأة العجوز يا بليك، وإذا لم تجد الخنجر معها، ابحث عن التوأم!

وبينما يبتعد توم شيئًا فشيئًا حتى اختفى، شعر ويلسون باكتئاب شديد. اختلط عليه الأمر ولم يعُد يعرف فيما يفكر! مقت فكرة أن التوأم خدعاه، وقرر ألا يشك فيهما إلا إذا وجد دليلًا حاسمًا على هذا، لكنه على أي حال سيظل يفكر حتى يفهم كل شيء. سيتصرف. سأل بليك:

- ما رأيك في هذا الكلام؟

- حسنًا يا مغفل، أظن أن توم على حق. لا يوجد خنجر وإذا كان موجودًا، فهو لا يزال في منزلهما.

افترق الرجلان وقال ويلسون في نفسه:

- أعتقد أن الخنجر عندهما فعلًا؛ لأنه لو سُرِق لأعاده اللص كي يحصل على المكافأة حسب خطتي. أنا متأكد من هذا. إذنْ فالخنجر لا يزال معهما.

قبل أن يبدأ توم في هذا النقاش، كان هدفه أن يغضب الرجلين ويستفزهما قليلًا، لكنه عندما انصرف شعر بسعادة عارمة لأن أثر كلامه عليهما كان أكثر مما يتوقع. تركهما خلفه في حيرة من أمرهما، وشتت تفكيرهما بكلمة منه! يا لحظه الجميل وقدرته الخبيثة على تحقيق ما يريد! لقد بث الشك في قلب ويلسون الذي يحب التوأم بشدة، وهذا بطُعم صغير منه رماه له بلؤم، ولن يستطيع ويلسون نزع هذا الطُّعم من فمه مدة طويلة. والأفضل من هذا أنه سلب من التوأم الحُب الجماهيري الذي تمتعا به؛ لأن بليك سيظل يمشي في البلدة ويخبر الجميع بشكوكه هذه، وفي خلال أسبوع سيصير التوأم أضحوكة البلدة كلها. رضي توم عن نفسه تمامًا، وأخيرًا شعر بالارتياح.

اعتدل توم خلال هذا الأسبوع في تصرفاته وأسلوبه لدرجة المثالية. حتى أن عمه وعمته اندهشا من هذا التحسن الكبير! لم يصدر عنه خطأ واحد. ثم توَّج هذه المثالية ليلة السبت عندما قال لعمه:

- أريد أن أعترف لك بشيء يا عمي، طالما أنا مسافر ولن أراك فترة طويلة.. شيء لم أعُد تحمل إخفاءَه أكثر من ذلك. جعلتك تعتقد أنني خائف من مبارزة ذاك الأجنبي الإيطالي، واضطررت للتهرب من هذه المبارزة بكل طريقة،

وربما فعلت ذلك بشكل سيئ وغير مقبول؛ لأنني فُوجئت بقرارك هذا. لكن لا يمكن لأي شخص شريف أن يقبل مواجهة هذا الشاب في ميدان المعركة إذا عرف ما أعرفه عنه.

مستغربًا سأل عمه:

- فعلًا؟ ما الذي تعرفه عنه؟

- الكونت لوجي قاتل.

- نعم؟!

- كما سمعت تمامًا. اكتشف ويلسون هذه الحقيقة عندما قرأ كفه، وصارحه بما رأى في خطوط يده، وحاصره بالأسئلة بحيث لم يستطع الآخر أن يتملص من هذه الجريمة الشنعاء، واضطر أن يعترف في النهاية! لكن كلا التوأم ركع على ركبته وتوسل إليه أن يحفظ السر وألا يفشيه، وأقسما أنهما سيعيشان حياة شريفة في هذه البلدة. كانا مثيرين للشفقة لدرجة أننا أعطيناهما كلمة شرف ألا نفضحهما، طالما سيفيان بوعدهما. ولو كنتَ مكاني يا عمي، كنت ستفعل مثلي.

- أنت محق يا بني. فعلًا كنت سأفعل مثلك. كلمة الرجل دَين في رقبته، والسر أمانة مُقدسة. أنا فخور بك يا توم.

وأضاف القاضي محزونًا:

- لكنني الآن أتمنى التخلص من هذا العار! لقد بارزت قاتلًا وتلوث شرفي!

- لا يمكن أن نلغي ما حدث يا عمي. إذا كنت أعلم أنك ستبارزه، لشعرتُ أن عليَّ أن أخلف وعدي من أجل إيقاف هذه المبارزة. أما ويلسون فلم يكن من المتوقع أن يفعل شيئًا سوى الالتزام بالصمت.

- آه فعلًا. لكن ويلسون على حق. لم يفعل إلا الصواب، ولا يمكنني أن ألومه على أي حال. آه يا توم! لقد أزلت عن كتفي حملًا ثقيلًا! كنتُ حزينًا ومكسورًا؛ لأنني اعتقدت أن في عائلتنا جبانًا.

- لك أن تتخيل ما تحملته من عناء لأقوم بهذا الدور يا عمي!

- نعم.. أعلم ذلك يا بني. أيها الفتى المسكين! يمكنني أن أفهم كيف تحملت أن توصَم بالعار ظُلمًا كل هذا الوقت. لكن لا بأس الآن. لقد استعدت راحة بالي ومعها راحتك أنت. المهم أنك بخير. قد عانى كلانا بما فيه الكفاية.

جلس الرجل العجوز متفكرًا لحظة، ثم نظر إلى توم وفي عينيه نور الرضا وقال:

- هذا المخادع سمح لنفسه أن يقاتلني في ميدان الشرف كأنه من النبلاء، ولم يخبرني أنه قاتل! سأحسم هذا الأمر معه، ولكن ليس الآن. سأقتله بالرصاص، لكن ليس قبل الانتخابات. وسأجد طريقة لأدمره تمامًا قبلها. وأيضًا لا يجب أن ينتخب الأهالي التوأم. سأتصرف في هذا الأمر. أعدك بذلك. أنت متأكد من حقيقة أنه قاتل؟

- متأكد طبعًا يا عمي.

- نقطة جيدة لصالحنا. سألمّح بهذا يوم الاقتراع، لن أقولها بشكل مباشر. وبذلك ستنهدم الأرض تحت أقدامهما.

- لا شك في ذلك يا عمي. ستقضي عليهما تمامًا.

- أما بالنسبة للناخبين، فأريدك أن تأتي بين الحين والآخر وتعمل بسرية تامة، سنعطيهم بعض الأموال لنضمن ولاءهم.

جولة أخرى ربحها توم ضد التوأم اللذين يكرههما بشدة. يا له من يوم رائع بالنسبة له! ضرب عصفورين بحجر واحد عندما أخبر عمه أيضًا بشأن الخنجر وقال:

- تعرف الخنجر الهندي الخلاب الذي يتفاخر التوأم به؟ ليس هناك أي أثر له حتى الآن. وبدأ أهالي البلدة يتهامسون عن هذا الأمر في سخرية وضحك. يعتقد نصفهم أنه لا يوجد خنجر من الأساس، ونصفهم الآخر يعتقدون أنه لا يزال في بيت التوأم. سمعت حوالي عشرين شخصًا يتكلم في هذا الموضوع اليوم.

أعاد الأسبوع الخالي من الأخطاء توم إلى أحضان عمه وعمته. ووالدته روكسانا كانت راضية عنه أيضًا. أمرته أن يسافر إلى سانت لويس، وأخبرته أنها ستتبعه. فتحت قنينة ويسكي وقالت:

- والآن يا تشامبر سأجعلك تلتزم بما بدأته من إصلاح واستقامة. لن تفعل أي شيء يجلب العار لأمك ولك. وكما أخبرتك من قبل، ممنوع أن تصاحب أصدقاء السوء، ستصاحبني أنا، وترافقني أنا! وسأدبر لك كل شيء من الآن فصاعدًا.

صعد توم على متن أحد القوارب الكبيرة في تلك الليلة، حاملًا معه حقيبة ثقيلة ممتلئة عن آخرها بما نهب من مسروقات ثمينة متنوعة. نام ليلتها نوم الظالم الذي كان أكثر هدوءًا وسلامًا من نوم المظلوم! وعندما استيقظ في الصباح، انقلب الحظ ضده ثانيةً! لأنه اكتشف أن لصًّا مثله قد سرق كل مسروقاته في أثناء نومه، وفر هاربًا إلى أحد الشواطئ البعيدة!

الفصل السَّادس عشر
بَيعٌ في بلاد جنوب النهر

"إذا أطعمت كلبًا جائعًا، لن يعضَّك.
هذا هو الفرق بين الكلب والإنسان".

من مذكرات ويلسون المغفل

"نعلم عادات النملة، كما نعلم كل شيء عن عادات النحلة.
لكننا لا نعرف أي شيء عن عادات المحار!
يبدو أننا نختار الوقت الخطأ لدراسته".

من مذكرات ويلسون المغفل

عندما وصلت روكسانا إلى ابنها في سانت لويس، وجدته بائسًا كئيبًا فاقدًا الأمل في الحياة بما فيها. أيقظ ذلك في قلبها مشاعر الأمومة والحُب. لقد دمر مستقبله بيده، وسيصبح منبوذًا عما قريب بلا أصدقاء. كانت هذه أسبابًا كافية لترقق قلب روكسانا عليه؛ لذلك غرفت من حنانها وأعطته، أخبرته كم تحبه! اقشعر بدنه من هذا الاعتراف؛ لأنها زنجية. شعر بالقرف والاشمئزاز. ومعرفته بحقيقة أنه زنجي مثلها لم تجعله يتصالح في قرارة نفسه مع هذا العِرق المُحتقَر.

حاول ألا يظهر اشمئزازه من مشاعرها الجياشة، شعر بعدم راحة تجاهها. حاولت مواساته بلا فائدة، وسرعان ما أصبحت علاقتها الحميمة به لا تُحتَمل بالنسبة له. وفي خلال ساعة واحدة استجمع شجاعته كلها ليخبرها عن مدى استيائه هذا، ويطالبها بإيقاف هذه المهزلة فورًا؛ لكنَّه تراجع.. خاف منها. وعندما استغرقت في التفكير ارتاح منها قليلًا وعم الهدوء المكان. كانت تفكر في ابتكار خطة ادخار جيدة، وبعد قليل أخبرته أنها وجدت مخرجًا. قفز توم فرحًا لهذا الخبر البهيج. قالت روكسانا:

- هذه هي الخطة، ويجب أن تنجح. هذا أكيد. بما أنني زنجية، ولن يشك أحد في هذه الحقيقة عندما يراني ويسمعني أتكلم، خذني وبعني! ثمني ستمائة دولار. ستسدد بهذا المبلغ ديون المقامرة.

لم يفهم توم مقصدها في البداية، وأصاب رأسه دوار خفيف. قال مستغربًا:

- تقصدين أن أبيعكِ كأمَةٍ لأنقذ نفسي؟
- ألست ابني؟ ألا تعرف ما الذي يمكن للأم أن تفعله من أجل ابنها؟ الأم السيدة ذات البشرة البيضاء تفعل أي شيء من أجل أبنائها. من الذي زرع هذه الطبيعة فيها؟ الله فعل! ومن خلق المرأة الزنجية؟ الإله نفسه! في صميم الروح، الأمهات كلهن سواسية. الله الرحيم هو الذي خصَّهن بهذه الطبيعة. ستبيعني كأمَة، ثم تعود وتشتريني بعد عام من الآن. سأخبرك كيف.

بدأ الأمل يدب في قلب توم من جديد. قال:

- هذا لطف منكِ يا ماما، ولكن...

قاطعته روكسانا:

- قلها مرة أخرى! قلها دائمًا وكثيرًا! ماما.. إنها كل ما تحتاج الأم أن تسمعه في هذه الحياة! وهي أكثر من كافية. بارك الله فيك يا عزيزي. سأذل وأهان كأمة زنجية، لكن إن عرفتُ أنك ستنطق بهذه الكلمة ولو على بعد أميال، سأتحمل كل شيء وسيهون العذاب. سيشفى جرحي وألمي. سأتمكن وقتها من أن أتحمل أكثر.

- سأظل أقولها وأرددها دومًا يا ماما. لكن كيف سأبيعكِ؟ أنتِ حرة الآن! تعلمين ذلك جيدًا.

- وما الفرق؟ بناءً على القانون، يمكن للأسياد ذوي البشرة البيضاء أن يبيعوني إذا أمروني بترك البلدة خلال ستة أشهر ولم أستجب. اكتب ورقة، فاتورة بيع، وبعني لأحد التجار عند نهر كينتوك. ووقع على الفاتورة بأي اسم كان، وقل إنك ستبيعني بثمن بخس لأنك مللت مني وطفح بك الكيل. لن تواجهك أي مشكلة في ذلك مطلقًا. ستأخذني في البداية إلى البلدة، وهناك ستبحث عن مُشترٍ يأخذني إلى الريف، والأهالي هناك لن يسألوا عن أي شيءٍ.

زوَّر توم فاتورة بيع، وباع والدته لمُزارِع قُطن في أركنساس بمقابل أكثر من ثمنها الحقيقي الذي كان ستمائة دولار. لم يشأ أن يخونها ويبيعها له، لكن الحظ أوجَد الرجل في طريقه! وفَّر عليه

ذلك مشقة البحث عن مُشترٍ يأخذها للريف. وغامر بالكذب عليها عندما صارت تحاصره بأسئلة تخص هذا الموضوع. ومن جانبه، كان المُزارع سعيدًا أيما سعادة بروكسانا، لدرجة أنه لم يطلب منها أي شيء أبدًا. كما صمم المُزارع ألا يخبر روكسي إلى أين سيأخذها في البداية، ومع مرور الوقت، شعرت روكسانا بالرضا والارتياح.

أرضى توم ضميره وأراح فكره من الانشغال بروكسي؛ فيكفي أن سيدها حريص على إرضائها، وأنه رجل طيب ولن يؤذيها. وبالتدريج صار يعتقد أنه لم يرتكب أي خطأ من الأساس، بل على العكس! لقد خدمها خدمة عمرها عندما سلمها لرجل ذاهب لبلاد جنوب النهر. وقال لنفسه بجدية تامة:

- لن يستمر هذا الوضع أكثر من عام على أي حال. بعدها سأشتريها وأحررها مرة أخرى. وهي تعرف ذلك، ووقتها سأعوضها. هذه الكذبة الصغيرة لا يمكن أن تضر أحدًا. وكل شيء سيكون على ما يرام في النهاية. اتفق توم مع المزارع أن يكذب عليها كذبة بيضاء؛ فدارت مناقشة بينه وبين روكسانا عن مزرعة الرجل الرائعة في الريف الواقع في شمال البلد، ومدى سعادة العبيد هناك ورضاهم التام وجمال المكان! وبذلك تم خداع روكسي المسكينة. لم تتخيل أن يكذب عليها ابنها بهذه الطريقة المشينة، وبسهولة شديدة. لم تتوقع أن يخون ابنٌ أُمَّهُ بأيِّ طريقة كانت، ويسلمها بيده لما هو أسوأ من الموت.

ودعت روكسانا ابنها بقبلات حارة ودموع صادقة، وذهبت وقلبها كسير مبتعدة. مع ذلك شعرت بالفخر لما قدمته لابنها من تضحية نبيلة.

أما توم؛ فقرر أن يلتزم بوعده. سينصلح حاله، ولن يعرض نفسه إلى الخطر مرة أخرى. التزم بتعليمات أمه في ادخار ثلاثمائة دولار، وفقًا لخطتها. سيضيف على هذا المبلغ معاشها التقاعدي الشهري، وفي خلال عام واحد، سيشتريها بهذا المال ويحررها من العبودية من جديد.

جافى النوم عينَي توم. ضميره أوجعه لما فعله بأمه، ولم يستطع أن ينسى أو يطرد هذا التفكير السيئ من رأسه. استمر إحساسه بالذنب أسبوعًا كاملًا، بعده عاد لراحته القديمة، وصار يغط كل ليلة في نوم عميق!

***

في الساعة الرابعة بعد الظهر، في اليوم الذي حملت فيه السفينة روكسي بعيدًا عن سانت لويس، كانت تقف خلف المجذاف، تنظر إلى توم من خلف دموعها المنهمرة حتى اختفى الشاطئ تمامًا عن عينيها. ظلت تبكي حتى حل الليل، بعدها ذهبت لتنام على سريرها الرديء الذي وضعوه لها خلف محركات السفينة المزعجة. مددت جسدها على الرغم من معرفتها مسبقًا أنها لن تنام. بحزن انتظرت الصباح بفارغ الصبر.

حسب الخطة، كان من المتوقع أنها لن تعرف الخدعة التي تعرضت لها. ظنت أن السفينة تبحر شمالًا. ولكن امرأة مثلها عملت على متن باخرة، وأبحرت لسنوات طوال، من البديهي أن تكتشف الأمر! بحلول الفجر تركت فراشها وجلست في مقدمة السفينة تتأمل الأفق. لم تنتبه في البداية للاتجاهات التي تتبعها السفينة في الإبحار؛ لأن عقلها منشغل بشيء آخر. لكن عينيها المتمرستان وقعتا فجأة على اتجاه اندفاع المياه! تحجرت نظراتها لوهلة عند نقطة محددة في مياه النهر، قبل أن يخفق قلبها في هلع! قالت:

- يا رب يا رحيم! ارحمني يا رب برحمتك الواسعة! ارحم أمَتَك الضعيفة المذنبة يا رب! السفينة متجهة إلى بلاد جنوب النهر!

الفصل السَّابع عشر
نبوءة القاضي الغريبة!

"نُبالغ في تقدير الشهرة!
في روما، شعر الناس بالأسف على وفاة مايكل أنجلو في البداية. ولكن مع مرور الزمن تحول شعورهم إلى الندم؛
فقط لأنهم لم يروه وهو يموت!".

من مذكرات ويلسون المغفل

"أفادت الإحصاءات أننا نفقد كثيرًا من الحمقى في الرابع من تموز كل عام، وذلك أكثر من أيام السنة مجتمعة. وبناءً على العدد المتبقي من الحمقى في العالم الآن، فهذا اليوم وحده لم يكن كافيًا!".

من مذكرات ويلسون المغفل

مرت أسابيع الصيف بسرعة، وبدأت الانتخابات وصراعاتها التي تزداد مع الوقت. اشتغل التوأم بإخلاص وتفانٍ، على الرغم من أنهما خسرا الشعبية التي يتمتعان بها. شهرتهما الكبيرة كانت سببًا رئيسًا في خسارتهما! تهامس الجميع بجدية حول مسألة اختفاء الخنجر. وتساءلوا إذا كان هناك خنجر من الأساس. انتشر الهمز واللمز،

مما أثَّر على نجاحهما في الانتخابات تأثيرًا بالغًا. اعتبر التوأم أن نجاحهما مسألة حياة أو موت؛ فإذا فازا سيُرَد لهما اعتبارهما، أما إذا حدث غير ذلك؛ فلن يستطيعا إصلاح الضرر المترتب على خسارتهما. عملا بجد، لكن ليس مثل القاضي دريسكول وتوم اللذين اجتهدا في إسقاطهما بكل الطرق في الأيام الأخيرة. أما توم فكان سلوكه مثاليًا طوال الشهرين المنصرمين وحتى الآن، لدرجة أن عمه لم يستأمنه على ماله فقط، بل صار يطلب منه أن يذهب ويجلب له المال من الخزنة بنفسه.

ألقى القاضي دريسكول خطابًا ختاميًا لحملة الانتخابات، وحرص أن يتضمن تلميحات سلبية ضد التوأم. ما قاله أثر على الجميع، ونتيجته كانت كارثية. سخر القاضي منهما؛ فلم يسع الحضور إلا أن يضحكوا ضحكًا هستيريًا ويصفقوا بشكل متواصل. بيَّن كيف أنهما يدعيان المغامرة والبطولة، وأنهما متحذلقان يحبان الظهور والشهرة، على الرغم من أنهما في الحقيقة سيئا السمعة وغير مرغوب فيهما. سخر من ألقابهما بلا رحمة، وقال إنهما في الأصل حلاقان يعملان في الزقاق الخلفي ومتنكرنا في زيّ نبلاء! وأنهما بائعا فول سوداني، ومتنكران في زيّ السادة! ولعلهما أيضًا يتاجران في الأعضاء، ولكن أعضاء أشقائهما القرود! ثم سكت وانتظر أن يخفت الصخب ويتوقف الجميع عن الضحك والكلام، بعدها ختم خطابه بالكارثة الأكبر، حريصًا كان على توضيح كل كلمة وكل حرف، مؤكدًا على هذه الحقيقة الدموية المريعة. قال إنه يعتقد أن المكافأة المالية المقدمة من أجل العثور على الخنجر مجرد هراء وعبث، وأن صاحبه سيظهر عندما تكون هناك مناسبة ليغتال شخصًا ما!

قال ذلك ونزل عن المنصة، تاركًا خلفه صمتًا مريبًا ودهشة تطل من أعين الجماهير. لم يضحكوا ولم يصفقوا أو يهتفوا ويصرخوا كالمعتاد. نزلت الجملة الختامية عليهم كالسهام الساقطة من السماء! أخرست الجميع وتركتهم في حالة حيرة.

- ماذا يقصد بكلامه هذا؟!

سؤال تردد في أذهانهم وتناقلوه فيما بينهم، لعلهم يفهمون ما يرمي القاضي إليه، وعبثًا ما فعلوه؛ فوحده القاضي يعرف ما الذي يتحدث عنه بالضبط. لم يزِد في كلامه عن التلميح.

أما توم؛ فقال للمستفسرين إنه لا يعرف ماذا يقصد عمه. وعندما يذهب أحد ليسأل ويلسون عما يعتقده بشأن ذلك، يرد عليه بسؤال عما يعتقده هو!

فاز ويلسون في الانتخابات، هزم التوأم هزيمة سحيقة، وصارا منبوذين بلا أصدقاء. عاد توم إلى سانت لويس فرحًا. تلا ذلك أسبوع كامل هادىء لبلدة داوسون لاندينغ كان بمثابة راحة في أمس الحاجة لها.

لكنها مجرد هدنة مؤقتة. فهناك شائعة انتشرت أن هناك مبارزة ثانية وشيكة. قالوا إن القاضي دريسكول كان متعبًا من الشغل الذي بذله في الانتخابات، وفور أن يسترد عافيته سيتحدى الكونت لوجي. انسحب التوأم من أنشطة المجتمع تمامًا، ورضيا بالذُّل وحيدين في عُزلة. تجنبا الاحتكاك بالناس، ولم يخرجا من غرفتهما إلا لممارسة الرياضة في وقت متأخر من الليل، ليضمنا أن الناس نيام والشوارع فارغة كالصحاري.

الفصل الثَّامن عشر

أوامر روكسانا

"الامتنان والخيانة ليسا سوى مجرد طرفَي نقيض في ذات المسيرة، حين ينتهي كل شيء لا يبقى سواهما".

من مذكرات ويلسون المغفل

"إنه عيد الشكر! دعونا بكل تواضع ومحبة نشكر كل شيء عدا الديوك الرومية!
في جزيرة فيجي لا يشكرونها، لكن يشكرون السباكين!
لا يحق لنا أن نسخر من فيجي!".

من مذكرات ويلسون المغفل

أمطرت سماء سانت لويس طوال يوم الجمعة الذي تلا الانتخابات، وبغزارة. لعلها محاولة حثيثة من السحب أن تغسل كل هذا السخام المتراكم، الذي جعل المدينة غارقة في السواد الداكن. بالطبع لم تنجح المحاولة. وصل توم دريسكول إلى بيته في منتصف الليل وتحت كل هذه الأمطار المتساقطة فوق رأسه، بعد أن كان قبلها في المسرح. لم يغلق مظلته إلا عندما وصل إلى بوابة

المبنى، وبينما همَّ بالدخول وجد أن غريبًا يزاحمه ويمر بجانبه. لم يُلقِ له بالًا، ظن أنه نزيل آخر، ولكن هذا الغريب لحق به إلى الطابق العلوي! وفي الظلام الحالك، عندما حاول توم أن يفتح باب غرفته بالمفتاح ودخلها أخيرًا، سمح الغريب لنفسه بالدخول إلى غرفته! ليس هذا فقط بل، وأغلق باب الغرفة خلفه! أشعل توم مصباح الغاز ليرى أمامه رجلًا -في ملابس قديمة بالية- مبللًا تقطر منه المياه، له وجه يبدو أسود في الظلام تحت القبعة القديمة المترهلة التي يرتديها. خائفًا حاول توم أن يأمر الرجل بالخروج من غرفته فورًا، فخانه صوته ولم يستطع التفوه بحرف. خرج صوت الغريب دافئًا وخافتًا وهو يقول:

- اهدأ. أنا أمك.

ألقى توم جسده على أقرب كرسي، وزفر بارتياح، ثم أخذ يلهث في محاولة منه لالتقاط أنفاسه.

مرتعبًا قال توم:

- أعرف أن هذه حركة لئيمة مني، ولكنني فعلت ذلك لمصلحتك. أقسم لكِ بذلك.

بصرامة نظرت إليه روكسانا للحظة، بينما يتلوَّى من الخجل مثل البائس، وصار يلقي مبررات لما فعله بها، محاولًا أن يخفف من قبح جريمته بلا جدوى. جلست روكسانا وخلعت قبعتها؛ فانسدل شَعرها البني الطويل على كتفيها.

محزونة قالت:

- هذا ليس خطأك.

- أعرف أنني حقير ونذل، لكن أقسم لكِ أنني فعلت ذلك لمصلحتكِ. أخطأتُ وأعترف. لكنني اعتقدت أن هذا هو الحل الأفضل. هذا ما حدث صدقيني.

انسالت دموع روكسانا على وجنتيها، وصارت تحاول الحديث بصوتها الكسير. لم تكُن غاضبة هذه المرة، بل حزينة.

- تبيع إنسانًا في بلاد جنوب النهر لمصلحته؟ لم أكن لأعامل حتى الكلب بهذه الطريقة! على أي حال، لا يمكنني أن أنفجر غاضبة الآن، مثلما اعتدتَ مني أن أفعل إذا ما تعرضتُ للإهانة. هذا لأنني عانيت بما فيه الكفاية هذا الصباح، ولا طاقة لديَّ لأغضب حتى!

كان يجب أن يتأثر توم دريسكول بهذا الكلام الذي تقوله أمه الجريحة، لكنَّ هناك إحساسًا أقوى سيطر عليه، وهو التحرر من الخوف! بدأت روحه المنهارة في الانتعاش رويدًا رويدًا، زال كل خوفه وشعر بالراحة. لكنه لم يغامر بالتعبير عن هذه المشاعر والتزم الصمت بحكمة وذكاء. غرق المكان في سكون لبعض الوقت، لا صوت إلا دقات المطر على الزجاج والألواح، وصوت الرياح، وتنهيدة مكتومة من روكسانا بين الحين والآخر، حتى هدأت تمامًا، وتوقفت عن البكاء. حينها بدأت تتحدث مرة أخرى:

- خفف هذا الضوء قليلًا، أكثر، أكثر بَعد.. الشخص المخدوع لا يحب الضوء؛ فهذا يجعلني أراك على حقيقتك. كفى.. سأحكي لك حكاية، وسأحاول أن أختصر بقدر استطاعتي. بعدها سأخبرك ما الذي يتوجب عليك فعله. الرجل الذي

اشتراني ليس رجلًا سيئًا، بل محترم مثله مثل أي مُزارع، ولو كان الأمر يتوقف عليه لكنت مرتاحة الآن كخادمة لعائلته، لكن زوجته هي المشكلة. إنها من يانك، قبيحة، وتحدق دائمًا في وجهي بغيرة؛ فأرسلوني لأعمل في الحقل بعيدًا عنها، على الرغم من ذلك لم تتركني وشأني! سلطت المشرُف عليَّ ليضايقني. لهذه الدرجة تكرهني وتغار مني! بسببها ظل المشرف يجهدني بالعمل طوال النهار وحتى آخر بقعة ضوء في السماء. تلقيتُ ضربًا وإهانة عندما لم استطع حمل أشياء لا يمكن أن يحملها سوى الأقوياء ذوي العضلات المفتولة!

هذا المشرف من يانك أيضًا، تقع في إنجلترا الجديدة، وأي شخص في الجنوب يمكنه أن يخبرك بمعنى هذا. إنهم يعرفون كيف يستنزفون الزنجي بالعمل حتى الموت. محترفون في ضربهم حتى تنحني ظهورهم. وعندما يمدحني السيد، ويقول للمُشرف أشياء إيجابية عني، يكون هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لي؛ لأن الخبر يصل إلى زوجته ووقتها لا يرحمونني.

حقد توم على زوجة المُزارع وقال في نفسه: "ولكن الأحمق الآخر كان جيدًا معها على الأقل!".

ظهرت علامات الضيق والغضب على وجه توم؛ حتى أن أمه لاحظت ذلك وشعرت بالسعادة. ولمَ لا؟ على الأقل ابنها شعر بالاستياء من أجلها عندما عرف أنها تعرضت للإهانة والذُّل وسوء المعاملة. لكنها سعادة عابرة، وسرعان ما انطفأت روحها من جديد

عندما تذكرت خداعه لها، قالت في نفسها: "شعوره بالاستياء هذا لن يدوم طويلًا. لقد باعني في بلاد جنوب النهر! لن يستطيع أن يعطف عليَّ وقتًا طويلًا".

ثم أكملت حديثها معه مرة أخرى وقالت:

- قبل عشرة أيام، قلتُ لنفسي إنني لن أتحمل الاستمرار في هذا العمل المهين القاسي أسبوعًا آخر، خاصة وأنا مكسورة النَّفس وجريحة القلب. حياتي كلها صارت بلا معنى، فعلامَ أخاف؟! إذا كان أيُّ أحدٍ في مكاني، يتعرض لكل ألوان العذاب التي تعرضت لها، ماذا سيهمه في الدنيا؟ هناك طفلة زنجية عمرها عشر سنوات، لطيفة جدًّا معي، لا أم لها. فتاة يتيمة مسكينة أحببتها وبادلتني هذا الشعور. بينما كنتُ منغمسة في العمل الشاق، جاءت ومعها بطاطس مشوية سرقتها سرًّا. تعرف أن المشرف لا يعطيني ما يكفي من طعام، حاولت أن تساعدني. اكتشف المشرف ما فعلته، فضربها على مؤخرتها بعصا سميكة كمقبض المكنسة. سقطت البنت تتلوى على الأرض مثل عنكبوت أصابه الشلل! ولم يكتفِ بذلك، بل طردها من العمل. لم أستطع السكوت عما حدث. كل الغل والحقد في قلبي اشتعل نيرانًا حارقة. نزعت من يده العصا وضربته، فسقط أرضًا فاقدًا عقله تمامًا. ظل يسب ويلعن كالمجنون، وارتعب بقية الزنوج وركضوا نحوه محاولين مساعدته. أما أنا فانتهزت الفرصة وقفزت فوق أحد أحصنته وهربت متجهة نحو النهر.

ابتعدت بقدر ما استطعت؛ لأنني أعرف ما ينوي أن يفعله بي عندما يستعيد قوته. سيجعلني أعمل حتى الموت، أو يبيعني لآخَر أشد منه قسوة. فضلت الغرق في النهر على كل هذا. على الأقل وقتها لن يصبح لديَّ أيُّ مشكلات. بدأت الشمس في المغيب عندما وصلت إلى النهر. حينها لمحت قاربًا، وفكرت أنه ليس من الحكمة أن أُغرِقُ نفسي قبل أن أجرب حظي على متن ذاك القارب. ربطت الحصان في طرف خشبة، ثم ركبت القارب وجدفت بطول النهر. كنتُ مرتاحة لأنني ابتعدتُ بما فيه الكفاية عن بيت السيد، وصار بيني وبينه ما لا يقل عن ثلاثة أميال. بالطبع كان سيرسل عبيده ورائي ليمسكوا بي ويعيدوني إليه، وسيركبون البغال البطيئة؛ لأنه غير مسموح لهم بركوب الأحصنة، كنت متأكدة أنهم سيبطئون في الحركة كي يعطوني فرصة للهرب. وقبل أن يصل إليَّ أحدٌ منهم سيكون الظلام قد حلّ، ولن يستطيعوا تعقب الحصان واكتشاف الطريق الذي سلكته سوى في الصباح التالي. الزنوج سيزودون السيد بمعلومات خاطئة بقدر ما يستطيعون.

وبعدما حل الظلام، جدفت حوالي ساعتين متواصلتين بالقارب، ثم ارتحتُ أخيرًا وزال عني القلق. تركتُ التجديف وتركت القارب يطفو فوق سطح المياه بهدوء. بدأتُ أفكر فيما سأفعله إذا لم أترك نفسي للغرق والموت. وضعت بعض الخطط، وفكرت كثيرًا. وعندما قطعت نحو خمسة عشر ميلًا أو عشرين، لمحت أضواء

منبعثة من سفينة راسية عند الميناء. ظللتُ أدقق النظر حتى لمحت امرأة، فسعدتُ أيما سعادة! إنها واحدة ممن كنت أخدمهم عند نهر سينسيناتي وأورليانز، عندما كانت تبحر للتجارة كنت خادمتها لمدة ثمانية فصول. جدفت بقاربي قليلًا حتى اقتربت منهم وصار بيني وبينهم مسافة بسيطة جدًّا، استطعت حينها سماع أصواتهم. صعدتُ إلى سفينتهم ووقتها عرفتُ ما حدث. يبدو أن محرك القارب أو آلة ما تعطلت. المحركات ساخنة حد الغليان. ورأيت رفيقًا آخر أعرفه -وهو جيم بانجز- يحاول إصلاح العطل، وزميلًا آخر يقف بجواره يشاهد ما يفعله، وبيلي هاتش العجوز كان هناك أيضًا. عرفتهم جميعًا، ولكن بدا عليهم التعب والإرهاق. شعرت وقتها أن عندي أصدقاء قدامى! تقابلنا وتحدثنا وجلست مع النساء حارسات المقصورة. كنا سعداء مثلما اعتدنا في الأيام الخوالي. كأنني عدت إلى وطني مرة أخرى! هذا ما شعرت به وقتذاك.

وبعد ساعة سمعتُ صوت جرس السفينة، إشارة معناها (كونوا متأهبين)؛ ففهمتُ أننا سنبحر من جديد، ولاحظتُ أننا مبحرون باتجاه سانت لويس! وقتها طردت فكرة الانتحار وإغراق نفسي من عقلي تمامًا. بعدها رأيت سالي جاكسون، وهي واحدة من الخدم الذين عملا معي، هي الآن رئيسة الخدم. استقبلتني بترحاب بالغ، وكذلك قباطين السفينة. حكيت لهم حكايتي وأخبرتهم أنه تم اختطافي وبيعي في بلاد جنوب النهر، وفورًا جمَّعوا عشرين دولارًا من أجلي وأعطوني المبلغ. وأعطتني سالي ملابس جديدة نظيفة.

عندما وصلنا إلى سانت لويس، جئت إلى هنا فورًا. أخبروني في الاستقبال أنك لستُ موجود في البيت وأنك ستغيب، ولا تأتي كل يوم. فانتظرتك ولم أسافر إلى داوسون لاندينغ؛ خوفًا من أن أفقد أثرك. وبينما أمر من فورث ستريت حيثُ يبيعون ويشترون الزنوج، سمعتُ رجلين يتبادلان بعض الفواتير، يطلب أحدهما منهم من الآخر أن يعثر له على زنجية معينة مقابل مكافأة مالية. فهمتُ أنني المقصودة! ألم تلاحظ ذلك؟

تملك الرعبُ توم الذي دق قلبه بعنف وقال لنفسه: "أنا ضعت. بغض النظر عما ستؤول إليه الأمور في النهاية، أنا ضائع في كل الأحوال! لقد قابلني ذاك الرجل وأخبرني بشكوكه أن هناك خطأ ما بشأن بيع هذه الزنجية بالذات، وقال إنه تلقى رسالة قادمة من سفينة كبيرة تقول إن روكسي كانت على متنها، وكل ركاب السفينة يعرفون أنها كانت موجودة، وأخبرني أن هذه السفينة توجهت إلى سانت لويس، وهذا معناه أنها موجودة هنا، وهددني أنني إذا لم أجدها وأخبره عن مكانها في القريب العاجل سيسبب لي مشكلة كبيرة. وأنا لم أصدق هذه القصة أبدًا، ولم أصدق أن غريزة الأمومة عندها ميتة إلى هذه الدرجة! لدرجة أن تجيء إليَّ وهي تعرف أنها مراقبة، وتعرضني لهذا الخطر الفادح. هي تعرف جيدًا أن وجودها سيسبب لي مشاكل لا يمكن حلها أبدًا! ورغم كل ذلك، ها هي جالسة أمامي الآن! وقد أقسمتُ أنا بكل غباء للرجُل أنني سأساعده في العثور عليها. وكنتُ أظن أن قسمي هذا سيشتري لي الأمان، ولكن أي أمان! ماذا أفعل الآن؟ يجب أن أنقذ نفسي. إما أن أسلمها إليه وإما

أن أدفع إليه المال. ولكن من أين لي بالمال! ماذا أفعل؟ ألم تقل هي بنفسها أن سيدها رجل صالح؟ لقد أقسم أنه سيعاملها بلطف ولن يسمح لأحد أن يسيء معاملتها مرة أخرى، ولن يسمح أن تتعرض لسوء التغذية أو...

شحب وجه توم إثر هذه الأفكار المُقلِقة، أما روكسانا فخرج صوتها حادًّا حين قالت:

- افتح النور. أريد أن أرى وجهك بوضوح. والآن دعني أتأملك جيدًا يا تشامبر. ما بال وجهك أبيض تمامًا مثل لون قميصك؟ هل رأيت ذلك الرجل الذي حدثتك عنه؟ هل رآك هو؟

- نـــ.. نعم.

- متى؟

- ظُهر الاثنين.

- ظُهر الاثنين؟ كان يتعقبني إذنْ؟

- إنه.. حسنًا.. يظن ذلك، أو يأمل في ذلك. ها هي الفاتورة التي تكلمتِ عنها.

وأخرج الفاتورة من جيبه.

- اقرأها لي.

تلاحقت أنفاسها، وتوهجت عيناها ببريق مخيف لم يستطع توم فهم معناه، لكنه شعر أن في نظراتها خطرًا يهدده. رُسِم على الفاتورة صورة لامرأة زنجية من ظهرها، تركض بينما ترتدي عمامة

وفوق ظهرها حمولة ما، وكُتِب أعلى الورقة مكان العنوان (مكافأة 100 $). قرأ توم المكتوب في الفاتورة بصوت عالٍ، ركز على الجزء الذي يكتبون فيه اسم العبد وصفاته الشكلية، كما قرأ لها العنوان وهوعنوانه في سانت لويس، وعنوان وكالة فورث ستريت. لكنه تجنب قراءة الجزء الذي يوضح ماذا يجب أن يفعل المتقدمون للحصول على الجائزة من السيد توم دريسكول!

- أعطني الفاتورة.

طوى توم الورقة ووضعها في جيبه. برودة غريبة سرت بطول ظهره، تحكم في أعصابه وقال بنبرة جعلها تبدو غير مبالية بقدر المستطاع:

- الفاتورة؟ لماذا؟ لن تنفعكِ الفاتورة؛ فأنتِ لا تستطيعين القراءة. ماذا تريدين أن تفعلي بها؟!

- قلتُ لك أعطني الفاتورة.

بيدٍ مُرتعشة سلمها توم الفاتورة والقلق قد تملك منه تمامًا.

- قرأتها كلها؟

- طبعًا!

- احلف.

أقسم لها توم أنه قرأها كلها، وضعت الفاتورة بحرص في جيبها وهي تنظر في وجهه بتركيز شديد، ثم قالت:

- أنت كذاب.

- ولماذا سأكذب في شيء كهذا؟!

- لا أعرف. لكنك تكذب. هذا رأيي. لكن لا تقلق سأعرف بطريقتي. عندما رأيت ذلك الرجل كنتُ خائفة لدرجة أنني فقدت اتزاني، وصلت للبيت وأنا أترنح ولم أستطع أن أصلب طولي. دفعت دولارًا لعبد زنجي ليعطيني هذه الملابس التي أرتديها، وحرصتُ ألا أظهر بجوار المنزل، ووضعت مادة على وجهي لتبدو بشرتي سوداء كما ترى، واختبأت في منزل قديم يبدو أن حريقًا قد اندلع فيه من قبل، وفي النهار كنت أسرق السكر وأكياس الحبوب من رصيف الميناء؛ حتى أجد شيئًا لآكله في الليل. لم أفكر مجرد التفكير في شراء أي شيء، كنتُ مفلسة وجائعة، لم أغامر وآتي إليك هنا إلا في هذه الليلة الممطرة؛ لأن أحدًا لن يراني، ولا يوجد بشر في الشوارع. ظللت واقفة بجوار البيت منتظرة أن تأتي، وها أنا ذا أمامك.

سكتت روكسانا قليلًا تفكر بعمق ثم قالت:

- تقول إنك رأيت ذلك الرجل ظهر الاثنين الماضي؟

- نعم.

- ورأيته ظهر اليوم أيضًا؟ أليس كذلك؟

- نعم.

- وأعطاك الفاتورة عندما رآك اليوم؟

- لا. لم يطبعها بعد.

نظرت له روكسانا بريبة وشك وقالت:

- ساعدته في كتابة الفاتورة؟

لعن توم غباءه عندما ذل لسانه وقال هذا الكلام. حاول أن يصلح موقفه وقال إنه تذكر الآن أن الرجل أعطاه الفاتورة يوم الاثنين الماضي ظهرًا وليس اليوم.

- تكذب مرة أخرى.-

وفجأةً وقفت روكسانا ورفعت سبابتها وقالت:

- والآن، سأسألك سؤالًا أريد أن أعرف كيف ستراوغه في الإجابة. كنت تعرف أنه يلاحقني، ولو هربتَ بدلًا من مساعدته والمكوث هنا، سيعرف أن ثمة خطأ في هذا الأمر. وقتها سيتحرى عنك، وسيعرف عمك، سيعرف كيف يصل إليه. وعمك سيقرأ الفاتورة وسيعرف أنك بعت زنجية في بلاد جنوب النهر. وأنت تعرف عمك جيدًا، إذا عرف سيمزق الوصية ويطردك من بيته. والآن جاوب على هذا السؤال. ألم تخبر ذلك الرجل أنني حتمًا سآتي إليك هنا؟ وأنك ستخبره فور وصولي ليأتي ويمسك بي؟

فهم توم أن لا مجال للكذب ولا الجدال بعد الآن. إنه في موقف لا يحسد عليه. اسودَّ وجهه وخرج صوته يائسًا وهو يقول:

- حسنًا.. ماذا كنت سأفعل؟ رأيتِ بنفسكِ أنني واقع تحت سيطرته، ولا يمكنني التخلص منه.

ساخرة قالت روكسي:

- ماذا كنت ستفعل؟ تخدع أمك لتضمن سلامتك، وتظل مختبئًا في مخبئك القذر. هل يمكن لأحد أن يصدق هذا؟ حتى الكلب لن يصدق. أنت أضعف من أي كلب صيد رأيته في حياتي! وأنا السبب في هذا.

ثم بصقت عليه، ولم يتجرأ أن يبدي استياءه. سكتت روكسانا دقيقة ثم قالت:

- والآن سأخبرك ماذا تفعل. ستذهب وتعطي هذا الرجل المال الذي ادخرته، ثم ستطلب منه أن ينتظر ريثما تذهب لعمك القاضي وتجلب له بقية المبلغ، وتشتريني مرة أخرى.
- ما هذا الجنون الذي تفكرين فيه؟ اذهبي أنت واطلبي من عمي ثلاثمائة دولار. لماذا سأخبره أنني أحتاج كل هذا المبلغ؟ وما الذي سأفعله به؟

بهدوء ردت روكسانا:

- ستخبره أنك بعتني كي تسدد ديون المقامرة، وأنك خدعتني وكذبت عليَّ، وأنك نذل، وأنني أطلب منك أن تستعيد هذا المال لتحررني مرة أخرى.
- أنتِ مجنونة؟! إذا فعلت ذلك سيمزق الوصية أمام عيني مرة أخرى. ألا تعرفين هذا؟
- بلى. أعرف.

- إذنْ تعرفين أيضًا أنني لست بهذا الغباء كي أذهب وأخبره بذلك!

- بل أعرف أنك ستذهب وتخبره؛ لأنك لو لم تفعل، ولم تجلب هذا المال، وقتها سأذهب إليه بنفسي وأخبره بكل شيء، ووقتها سيبيعك في بلاد جنوب النهر. وسنرى كيف سيعجبك هذا وقتها.

قام توم من مكانه مرتجفًا. لمعة شر انبثقت من عينيه. اتجه نحو الباب وأخبرها أنه يجب أن يخرج من هذا المكان الكئيب الخانق ليفكر في هدوء ويعرف ما يتوجب عليه فعله. لكن الباب لم يفتح! ابتسمت روكسي في سخرية وقالت:

- المفتاح معي يا عزيزي. اجلس مكانك. لا تحتاج أن تخرج لتصفي ذهنك وتعرف ماذا يجب أن تفعل. أنا أعرف ما الذي يجب عليك فعله.

جلس توم قليل الحيلة في توتر شاعرًا باختناق شديد، يدلك رأسه بأصابعه لعله يهدأ. قالت روكسي:

- أهذا الرجل موجود الآن في بيته؟

متفاجئًا نظر إليها وسألها:

- ما الذي جعلكِ تفكرين في هذا؟

- أنت. لأنك لا تريد الخروج لتصفي ذهنك وتفكر بهدوء كما تقول. عيناك الخبيثتان تفضحانك. أنت أكثر جبنًا حتى من كلب الصيد، قلت لك ذلك قبل قليل، وها أنا أكرر كلامي.

اليوم هو الجمعة، لا يزال تستطيع أن تدبر أمورك مع ذلك الرجل وتخبره أنك ستسافر وتجلب بقية المبلغ ثم ستعود مرة أخرى يوم الثلاثاء القادم أو الأربعاء. هل تفهم؟

متجهِّمًا رد توم:

- نعم.

- ثم تجلب فاتورة بيع جديدة وتبيعني لنفسي. وبعدها ستأخذ هذه الفاتورة وترسلها إلى السيد ويلسون المغفل، وتكتب له في ظهرها أن يحتفظ بها حتى أعود. هل تفهم؟

- نعم.

- هذا كل ما في الأمر. هيا.. خذ المظلة وضع قبعة على رأسك.

- لماذا؟

- لأنك ستأتي معي وتدلني على منزل هذا الرجل. أترى هذه السكين؟ صرت أحملها معي منذ رأيت ذلك الرجل؛ حتى إذا استطاع الإمساك بي قتلتُ نفسي به. والآن، هيا لنذهب. سأمشي خلفك، لا تسرع الخُطى.. تمهل، وأرشدني لطريق بيته. لا تحاول أن تهرب مني أو تفعل أي شيء مريب أو تستنجد بأحد في الشارع، وإلا غرزت هذه السكين في كبدك. تشامبر.. هل تصدقني عندما أخبرك بذلك؟

- لا تسألي أسئلة لا داعيَ لها. أعرف جيدًا أنكِ تنفذين كلامكِ.

- نعم. على عكسك أنت. أطفئ الأنوار وهيا لنذهب. ها هو المفتاح.

لم يتبعهم أحد. ارتجف توم كلما رأى شخص يمر بجواره في الشارع، قشعريرة تسري في جسده، أما روكسي فكانت وراءه مثل ظله، ملتصقة به، وبعد أن سارا مسافة ميل وصلا إلى ساحة فارغة ومهجورة، وفي هذا المكان الممطر والمظلم افترقا.

وبينما كان توم في طريقه للبيت، كان عقله مزدحمًا بالأفكار المقيتة، شعر باكتئاب شديد وظل، يفكر في خطط جامحة خطيرة؛ لكنه قال في نفسه بعد أن شعر بالضجر:

- لا يوجد إلا مخرج واحد. يجب أن أنفذ خطتها، ولكن مع تعديل بسيط. لن أطلب منه المال، ولكن سأسرق هذا العجوز البخيل.

الفصل التَّاسع عشر
النبوءة تتحقق

"تراكم الأشياء -مهما صغرت- أصعب كثيرًا من تحمل إنسان مثالي في كل شيء".

من مذكرات ويلسون المغفل

"ليس من الجيد أن يفكر الجميع بالطريقة نفسها. اختلاف الرأي هو الذي صنع سباقات الخيول!".

مذكرات ويلسون المغفل

استعدت بلدة داوسون لاندينغ لإنهاء الهُدنة وموسم الراحة، وتحضَّرَت للمبارزة الجديدة. أفادت بعض الشائعات أن الكونت لوجي ينتظر هذه المبارزة جَزِعًا لا يحتمل صبرًا. وفي يوم الأحد أخبر الكونت لوجي ويلسون بعزمه الشديد على خوض المبارزة. حمل ويلسون هذه الرسالة للقاضي؛ الذي رفض مبارزة قاتل! وقال إن هذا "مبدأ أساسي في عُرف النبالة والشرف". وفي ظروف أخرى كان أول مَن سيستعد للمبارزة.

أخبره ويلسون أنه لو كان حاضرًا عندما حكى لهم أنجلو عن جريمة القتل التي ارتكبها لوجي، لتعاطف معه وشعر أنه على حق وصادق. لكن العجوز العنيد لم يقتنع أبدًا بهذا الكلام.

عاد ويلسون إلى لوجي وأبلغه أنه فشل في إقناع القاضي بالمبارزة. شعر لوجي بالغضب الشديد، وتساءل كيف يمكن للقاضي -الذي كان ظريفًا ولطيفًا معهما- أن يصدق كلام ابن أخيه التافه غير الصحيح؟ ويكذّب ويلسون المعروف بصدقه ونزاهته؟!

لكن ويلسون أخبره ضاحكًا:

- تفسير هذا بسيط جدًّا. أنا لست ابنه ولا طفله المحبوب، ولست من نسل عائلته. لم ينجب القاضي وزوجته الراحلة أطفالًا، وكانا قد تجاوزا منتصف العمر عندما وقع هذا الكنز في حضنهما! على مدار خمسة وعشرين عامًا أو ثلاثين، تم إثارة غريزة الوالدين فيهما وتجويعها لأقصى درجة، حتى صار من السهل إرضاء هذه الغريزة بأي شيء يشبعها مهما بلغ من سوء. حاسة الغريزة هنا صارت ضامرة، لا تفرق بين قطة حقيقية وقطة مصنوعة من الطين! إذا رُزِق وَالدان في مقتبل العمر طفلًا شيطانًا، سيعرفانه على حقيقته من البداية، أما الزوجان الكبيران في السن، سيعتبران تبينهما شيطانًا تبنّيًا لأجمل ملاك خُلِق في الأرض! وسيظل بالنسبة لهما ملاكًا في السراء والضراء ومهما حدث. القاضي مفتون بتوم، وبالتالي يستطيع توم إقناعه بأشياء كان من المستحيل أن يقتنع بها من أحد غيره. ولا أقصد هنا أنه

يستطيع إقناعه بكل شيء، لا، بل أقصد الأشياء المتعلقة بالتحيزات الشخصية. القاضي يحبكما، أنت وأخاك، ولكن عندما غضب توم عليك ونقل كراهيته هذه لعمه، كان هذا كافيًا ليكرهك القاضي فورًا، بل وكافيًا لينهي أقوى روابط الصداقة التي دامت لسنوات بينه وبين أي أحد إذا أغضبت ابنه المُتبنَّى.

قال لوجي متعجبًا:

- يا لها من فلسفة!

- ليست فلسفة، بل حقيقة. ليست هذه الحقيقة قبيحة تمامًا. هُناك شيء جميل فيها؛ فليس هناك أجمل من رؤية أحد هؤلاء الأزواج المُسنين والمحرومين من نعمة الأطفال يضم كلبًا صغيرًا إلى قلبه بكل حُب! هو شيء فعلًا مثير للشفقة ويحرك المشاعر. تجدهم أيضًا يربّون ببغاوات تتكلم وتسب، تلك التي تشبه في أصواتها أصوات الحمير، وطيورًا تغريدها صراخ! وأحيانًا بعض الخنازير يجلبونها من غينيا، وأرانب نتنة، وقططًا تعوي وعددها يكفي لتكوين مستعمرة! هم يبذلون جهدًا غير عادي لتعويض ما حرمتهم منه الطبيعة. هو شيء من الاستبدال. يستبدلون حُب الطفل بمحبتهم الحيوان. المهم، في هذه البلدة، هناك قانون غير مكتوب، يشبه العُرف.. أهالي البلدة يتوقعون منك أن تقتل القاضي دريسكول، وهو أيضًا ربما سيقتلك إذا رآك. رصاصة منه ستفي بالغرض.

- إذا هاجمني، طبعًا سأرد.

أنهى ويلسون كلامه وقال وهو يغادر:

- لا يزال القاضي متعبًا من الجهد الذي بذله في الانتخابات، لن يخرج من بيته قبل يوم على الأقل؛ وقتها يجب أن تكون مستعدًّا.

عندما هبط الظلام على بلدة داوسون لانديغ، وحجبت السحب ضوء القمر، خرج التوأم لممارسة الرياضة. وقتها مر توم بمتجر هاكيت، على بُعد ميلين من داوسون. ولم يكُن هناك مارة غيره. سار على طريق الشاطئ، ومنه وصل إلى منزل القاضي دريسكول دون أن يلمحه أحد سواء على الطريق أو بجوار المنزل.

أسدل ستائر نافذة غرفته، وأشعل شمعة، ثم خلع معطفه وقبعته، وبدأ يستعد لما سيفعله. فتح صندوقه، والتقط منه بذلة نسائية ووضعها جانبًا. ثم أخذ قطعة من الفلين المحروق ودعك بها وجهه فصار أسودًا، وأعاد قطعة الفلين إلى جيبه. خطته كانت أن يتسلل إلى غرفة الجلوس التي يجلس عمه فيها دائمًا، في الدور السفلي، ومنها يدخل إلى غرفة نومه، ويسرق مفتاح خزانة الملابس الخاصة بالرجل العجوز، ثم يسرق الخزنة الموجودة بالداخل.

حمل الشمعة واستعد لتنفيذ الخطة. وثق تمامًا من نفسه وتشجع قبل أن تتلاحق الأفكار الكارثية في رأسه. ماذا لو أصدر صوتًا؟ أو تسبب في حدوث ضوضاء وهو يتسلل إلى الغرفة؟ ماذا لو رآه أحد وهو يفتح الخزنة مثلًا؟ ربما من الحكمة أن يحمل سلاحًا معه للضرورة والاحتياط. أخرج توم الخنجر الهندي من المخبأ الذي

وضعه فيه وأخذه معه، وقتها شعر بالارتياح وعادت إليه ثقته في نفسه، تشجع مرة أخرى وبدأ يهبط الدرج الضيق بخطوات بطيئة. انتفش شَعر جلده عندما سمع صريرًا بسيطًا، ولوهلة توقف النبض في قلبه. عندما وصل إلى منتصف السلم لمح وهجًا منبعثًا من الضوء من غرفة الجلوس بالأسفل. انزعج توم وبدأ يتساءل عن معنى هذا! هل يُعقَل أن عمه لا يزال مستيقظًا حتى هذا الوقت المتأخر من الليل؟ لا. هذا غير محتمل. لعله ترك الشمعة في مكانها إذنْ قبل أن يذهب وينام في غرفته. تسلل توم إلى الدور السفلي ووقف أمام الباب يسترق السمع. كان الباب مفتوحًا، فتجرأ وأطلَّ برأسه ينظر إلى الداخل. أسعده جدًّا ما رآه؛ فعمه يغط في نوم عميق على الأريكة، وعلى المنضدة بجواره وضع مصباحًا هو مصدر الضوء في المكان، وبجوار المصباح رأى توم صندوق عمه الصغير الذي يحتفظ فيه بنقوده ومستنداته. كان الصندوق مغلقًا، وبجواره كومة من النقود، وورقة مكتوب ومرسوم عليها بالقلم الرصاص. فهم أن عمه كان غارقًا في مراجعة حساباته حتى أرهق نفسه ونام ليرتاح قليلًا.

ترك توم شمعته في الخارج على الدرج، ثم بدأ يتسلل إلى غرفة الجلوس، قاصدًا كومة النقود بجانب الصندوق، انحنى وهو يسير بخفة، ومر بجوار عمه؛ فتقلَّب العجوز في نومه. توقف توم عن الحركة فجأةً كأنه تجمد في مكانه، وسحب الخنجر برفق من غمده، بينما تسارعت نبضات قلبه. وثبت عينيه على وجه الرجل الذي تبناه. وبعد أن استقر عمه في وضعية نومه بعد دقيقة أو اثنتين، غامر توم بالتحرك للأمام خطوة واحدة. وأخيرًا أخذ كومة النقود.

وبينما يعيد الخنجر إلى غمده، فُوجئ بقبضة قوية تمسك يده، ثم صيحة مدوية تقول: "ساعدوني! ساعدوني!" رنَّت في أذنه. بلا تردد غرس الخنجر في جسد عمه، فسال دمه على الأرض، وسقطت الأوراق النقدية من يده مغطاةً بالدم. رمى توم الخنجر، ومن فرط خوفه وارتباكه أخذه ثانيةً! لكنه عندما فكّر للحظة رماه مرة أخرى؛ لأنه دليل يدينه، ولا يجب أن يحتفظ به. هرب من الغرفة بسرعة وأغلق الباب خلفه، وبينما يأخذ شمعته التي تركها على السلم، سمع صوت خطوات متعجلة في الاقتراب من المنزل بددت سكون الليل! في لمح البصر كان في غرفته. جاء التوأم المذعوران ووقفا أمام جثة القاضي مفجوعين! بدل توم ملابسه مرة أخرى وارتدى ملابس امرأة، وضع حجابًا فوق رأسه، وأغلق مصباح غرفته كما أغلق الباب، تسلل من الباب الخلفي للمنزل. لم يتوقع أن يراه أحد؛ لأن الناس تجمعوا كلهم عند الباب الرئيس. وكان توقعه صحيحًا. وبينما يسلك طريقه في الفناء الخلفي، كانت السيدة برات وخدمها وعشرات من الجيران قد وصلوا إلى المنزل بملابس نومهم. توافد الجمع أمام باب البيت الرئيس.

خرج توم من البوابة الخلفية مرتعشًا كأن مرضًا أصابه، لمح ثلاث نسوة يخرجن من أحد المنازل مندفعين باتجاهه. سألوه عما يحدث، لكنهن لم ينتظرن منه إجابة، اندفعن باتجاه البوابة فورًا.

قال توم في نفسه:

- يبدو أن تلك الخادمات المسنات انتظرن حتى يبدلن ملابسهن قبل أن يخرجن ليعرفن ما يحدث. لقد فعلن

الشيء نفسه في الليلة التي احترق فيها منزل ستيفن في البيت المجاور!

وصل توم إلى البيت المسكون في خلال دقيقة.

أشعل شمعة وخلع ملابس النساء التي يرتديها. وجد آثار دماء على الجانب الأيسر من ملابسه وفي يده. انسحقت الأوراق النقدية الدامية بين يديه. لكن عدا ذلك لم يكن هناك أي دليل بحوزته. أخذ حفنة من القش نظف بها يده ووجهه، ثم أحرق ملابس النساء التي ارتداها وملابسه الخاصة أيضًا، حتى تحولت الملابس رمادًا منثورًا. وارتدى ملابس مهترئة لمتشرد. وفورًا أطفأ الشمعة وترجل إلى أقرب قارب، جدف به إلى القرية المجاورة، حيث اختبأ هناك حتى جاءت سفينة متجهة إلى سانت لويس. يريد الذهاب إلى أمه. وعندما صارت داوسون لانديغ خلفه بدأ يشعر بالارتياح. قال لنفسه: "لن يتمكن أي محقق على وجه الأرض من تتبعي الآن. لا يوجد أثر لأي دليل ضدي. ستظل هذه الجريمة لغزًا دائمًا لا حل له. وسيظل الجميع يحاولون تخمين هوية القاتل لمدة خمسين عامًا.

وبينما هو في سانت لويس، وصلته برقية تقول:

"تم اغتيال القاضي دريسكول، وهو مواطن عجوز محترم، في منتصف الليل هنا في داوسون لانديغ، على يد قاتل فاسق، ربما بسبب خلافات حدثت في الانتخابات الأخيرة. من المحتمل إعدام القاتل دون محاكمة".

مناجيًا نفسه قال توم: "واحد من التوأم! أنا محظوظ! وأنا الذي كنتُ ألعن ويلسون المغفل؛ لأنه منعني من بيع الخنجر. مَن يصدق أن هذا الخنجر سيسدي إليَّ معروفًا؟".

أصبح توم ثريًّا ومستقلًّا. تواصل مع المُزارع واشترى منه روكسانا، كتب فاتورة تفيد ببيعها لنفسها، ثم أرسلها إلى ويلسون. وبعدها أرسل برقية إلى السيدة برات: "**قرأت الخبر الفظيع في الصحف، وكدت أموت حزنًا. تماسكي حتى أعود**".

عندما وصل ويلسون إلى المنزل الذي أقيم فيه الحداد، وعرف التفاصيل من السيدة برات وكل الموجودين، تم تعيينه فورًا رئيس البلدية، وأمر الجميع بعدم لمس أي شيء. بقي الوضع على ما هو عليه، حتى وصل القاضي روبنسون، واتخذ الإجراءات المناسبة. أخرج الجميع من مكان الجريمة باستثناء توم، وسرعان ما وصل الضابط وقبض على التوأم وأرسلهما إلى السجن. أخبرهما ويلسون أن يتحليا بالصبر، وأنه معهما وسيدعمهما، ووعد ببذل قصارى جهده للدفاع عنهما إذا أحيلت القضية إلى المحكمة.

فحص القاضي روبنسون الغرفة جيدًا ومعه الضابط بليك. تفحصوا الخنجر والغمد. لاحظ ويلسون أثرًا لبصمات أصابع على مقبض الخنجر. جعله هذا مرتاحًا إلى حدٍّ ما؛ لأن التوأم كانا من أوائل مَن طلب بفحص أيدي الجميع وملابسهم، ولم يكن هناك أي أثر لدماء على أحد من الحضور. هناك احتمال إذنْ أن التوأم قالا الحقيقة عندما أخبرا الجميع أنهما عثرا على الرجل ميتًا عندما هرعا إلى منزله بعدما سمعوا صرخة رجل يطلب المساعدة!

وفورًا تذكر المرأة الغامضة التي رآها مرة في غرفة توم، لكن هذه الجريمة ليست من النوع الذي يمكن لامرأة أن تقوم به. يجب أن يفتش غرفة توم دريسكول.

وعندما وصل فريق الطب الشرعي وتفحصوا المكان والجثة، اقترح ويلسون عليهم أن يفتشوا الطابق العلوي، وهذا ما فعلوه. ولم يجدوا شيئًا بالطبع عندما فتشوا غرفة توم. قرر فريق الطب الشرعي أن لوجي هو مَن ارتكب جريمة القتل، وأن أنجلو يعتبر شريكه فيها.

وقعت البلدة في سوء حظ عاثر. الأيام التي تلت الجريمة كانت مريرة على الجميع، وصار التوأم يواجهان خطر الإعدام بلا محاكمة. تم نقلهما من سجن البلدة إلى سجن المقاطعة في انتظار الحُكم عليهما.

أما ويلسون؛ ففحص بصمات الأصابع الموجودة على مقبض الخنجر، وقال في نفسه: "بصمات التوأم لا تظهر على الخنجر. هناك شخص ثالث متورط في الجريمة. إما أنه قتل لمصلحة شخصية، وإما أنه قاتل مأجور".

ولكن مَن هذا الشخص؟ يحاول جاهدًا أن يعرف. لم يحاول أحد فتح الخزنة! والصندوق الذي على المنضدة ظل مغلقًا وبداخله ثلاثة آلاف دولار. إذنْ لم تكن السرقة هي الدافع. لعله الانتقام. ومَن عدو القتيل غير لوجي؟ لا أحد عنده ضغينة ضد القاضي دريسكول غيره! المرأة الغامضة!

اعتبر ويلسون هذه المرأة قاتلة محتملة، إذا كان الدافع هو السرقة. أما إذا كان الدافع هو الانتقام؛ فلا يوجد فتاة لديها ضغينة تجاه القاضي وتريد قتله. لم يكن للقاضي خلافات مع النساء؛ فهو رجل نبيل!

لدى ويلسون آثار واضحة جدًّا لبصمات أصابع القاتل على مقبض الخنجر، ولديه في مكان التسجيلات الخاص به مجموعة كبيرة من الشرائح الزجاجية التي تحمل بصمات أصابع النساء والفتيات في البلدة، والتي جمعها خلال خمسة عشر عامًا أو ثمانية عشر. فحص كل هذه الشرائح بلا جدوى. لا يوجد نسخة متطابقة مع البصمات على الخنجر.

وجود الخنجر في مسرح الجريمة جعل توم مُرتابًا. هناك مَن اعتقدوا أن لوجي لا يزال محتفظًا بالخنجر على الرغم من ادعائه أنه مسروق. والآن ها هو الخنجر قد ظهر في الوقت الذي ظهر فيه التوأم في مسرح الجريمة. نصف أهالي البلدة يتكلمون عن التوأم اللذين يشتكيان طوال الوقت أنهما لا يستطيعان العثور على الخنجر رغم أنهما كاذبان، والآن هؤلاء الأهالي فرحون بصحة تخمينهم، قالوا لويلسون كلما رأوه:

- ألم نخبرك بذلك؟

إذا كانت البصمات الموجودة على الخنجر تخصهما، لارتاح وكف عن التفكير، ولكن هي ليست بصماتهما، وهو متأكد من هذا.

رفض ويلسون الشك والاشتباه في توم. أولًا؛ لأن توم لا يستطيع أن يقتل أحدًا، فهو عديم الشخصية وجبان. وثانيًا؛ إذا أراد أن يقتل شخصًا، فلن يختار ضحيته من أقرب الناس إليه. الرجل الذي تبناه! وثالثًا؛ لأن مصلحته الشخصية لا تتنافى مع إبقاء عمه على قيد الحياة؛ فوجود عمه يجعله محميًّا ومحصّنًا من جميع المشاكل. فالرجُل يدعمه دون مقابل، وينقذه من الوحل الذي يغرق فيه كل مرة. ومع رحيل عمه لن يجد هذا الظهر الذي يسنده دومًا. صحيح أن الوصية كتبها عمه له من جديد، وهذا ما اكتشفوه منذ قليل، لكن توم لم يعلم بشأن الوصية شيئًا. لو عرف أن عمه أعاد كتابة الوصية، لتحدث في الأمر ونشر ثرثرته هنا وهناك. وأخيرًا؛ توم كان في سانت لويس وقت وقوع الجريمة. وعرف الخبر من الجرائد الصباحية، وهذا الكلام تؤكده البرقية التي أرسلها إلى السيدة برات.

كل هذه مجرد تخمينات وأفكار في رأس ويلسون، وهي طبعًا تخمينات غير أكيدة، جعلت ويلسون يضحك على فكرة ربط توم بجريمة القتل من الأساس.

اعتبر ويلسون أن قضية التوأم ميؤوس منها؛ لأنه إذا لم يتم العثور على الشريك أو الطرف الثالث؛ فإن هيئة المحلفين ستأمر بشنقهما. وإذا عثروا عليه، فهذا لن يحسن من موقفهم في شيء، بل سيزيد عددَ مَن سيُحكم عليهم بالإعدام واحدًا. لا شيء سينقذ التوأم من حبل المشنقة سوى اكتشاف مجرم وقاتل جديد نفذ الجريمة وحده لمصلحته الشخصية. وهو احتمال شبه مستحيل. ومع ذلك يجب أن يستمر في البحث عن صاحب البصمات الموجودة على الخنجر.

ربما لن يفيد التوأمَ وجودُ طرف ثالث في شيء، ولكن الأكيد أنه لا يوجد احتمال بسيط لنجاتهما بدونه.

ظل ويلسون يفكر ويفكر، يخمن، ويعصر عقله ليصل إلى أي معلومة مفيدة. وكلما مر بفتاة أو امرأة لا يعرفها، يطلب منها أن يأخذ بصمات أصابعها بحجة أو بأخرى، وعندما يعود إلى بيته يقارن هذه البصمات بالأخرى الموجودة على مقبض الخنجر، ودائمًا يشعر بخيبة أمل؛ لأن البصمات ليست متطابقة.

وعندما سأل ويلسون توم عن المرأة الغامضة التي رآها في غرفته، أقسم أنه لا يعرف امرأة بهذه المواصفات! وأنه لا يغلق باب غرفته في كثير من الأوقات، وأن الخدم غالبًا ينسون إغلاق أبواب المنزل. وقال إنه يظن أن هذه المرأة لم تأتِ إلى منزلهم سوى مرات قليلة جدًّا، وإلا لرآها وعرفها.

وعندما ربط ويلسون هذه المرأة بالسرقة، جاء في باله أنها ربما تكون شريكة المرأة العجوز، ولعلها هي المرأة نفسها ولكن متنكرة في زي امرأة عجوز! تعقد الأمر أكثر أمام ويلسون. شعر بحيرة بالغة واختلطت الأفكار في رأسه، لكنه وعد نفسه أنه سينتبه أكثر في الأيام القادمة، وأنه سيظل في غاية انتباهه ليمسك هذه المرأة اللصة، لكنه خاف أن تكون هي والعجوز من الذكاء بحيث لا تغامران بعمل غارات على هذه البلدة مرة أخرى.

أشفق الجميع على توم الذي فقد عمه وبدا حزينًا، هادئًا، ومكلومًا إثر خسارته الفادحة.

لم تكُن حالته هذه كلها تمثيلًا؛ إذ إن صورة عمه المقتول تظهر له كثيرًا في الظلام! وفي أحلامه يسمع صوته يناديه. تجنب توم دخول الغرفة التي قُتِل عمه فيها، ظل في أحضان السيدة برات التي اكتشفت الآن - والآن فقط - مدى حب توم لعمه وتقديره له، وكيف أنه شاب ذو طبيعة حساسة!

الفصل العشرون

القاتل يضحك ساخرًا

"حتى الدليل الأكثروضوحًا وكمالًا، والذي تم اكتشافه بمُنتهى الحذر والتركيز، من المحتمل أن يكون خاطئًا.
فمثلًا القلم الرصاص، إذا برته امرأة، وكان لديك شهود، سيقولون إنها استخدمت سكينًا!
أما إذا نطق القلم الرصاص؛ سيقول إنها فعلت ذلك بأسنانها!".

مذكرات ويلسون المغفل

مرت أسابيع، ولم يزُر التوأم في سجنهما إلا محاميهما والعمة باتسي كوبر. وجاء يوم المحاكمة، الذي مرَّ عصيبًا على ويلسون؛ لأنه حتى الآن -رغم جهده وعمله الدؤوب- لم يجد أي دليل جديد أو علامة تكشف الطرف الثالث في الجريمة. أطلق ويلسون على هذا الطرف الثالث لقب "الشريك"؛ ليس لأنه متأكد من كونه شريكًا، ولكن لأنه الاحتمال الأكبر؛ رغم أنه لم يفهم لماذا هرب الشريك ولم يهرب معه التوأم؟ لماذا بقيا في موقع الجريمة؟ لماذا ظلا واقفين هناك بجوار القتيل حتى جاء الجيران ورأوهما هناك؟!

تزاحم الناس في قاعة المحكمة حتى امتلأت عن آخرها، البقية تجمعوا في الساحة الخارجية، التي لم تكفِ لاحتواء هذا الكم الهائل من المتفرجين؛ امتدَّ وقوفهم من القاعة وحتى أميال تصل إلى الريف المجاور للبلدة! ولأن المحاكمة كانت حديث الناس الوحيد وشغلهم الشاغل؛ ظلوا واقفين على أقدامهم يتابعونها حتى النهاية.

جلست السيدة برات الحزينة، أما توم؛ فوضع على قبعته ورد الحداد وجلس بالقرب من بيمبروك هاوارد. جلس خلفهم جَمع كبير من أصدقاء العائلة.

لم يكُن أحد في صف التوأم سوى صاحبة البيت التي شعرت بالأسى عليهما، كان شعورها نابعًا من قلب صادق ووفي. جلست بالقرب من ويلسون. أما في الركن المخصص للزنوج، جلس تشامبر الحقيقي، وروكسي التي ارتدت ملابسًا تبدو بحالة جيدة، وتحمل فاتورة تحريرها من العبودية في جيبها. كانت هذه الفاتورة أثمن شيء تملكه في حياتها، لا تنفك تتركها ليلًا أو نهارًا، ولا تروح أو تجيء بدونها.

بعدما ورث توم ثروة عمه الطائلة، التزَم بإعطائها خمسة وثلاثين دولارًا شهريًّا. أخبرها أنه ممتن للتوأم؛ لأنهما السبب في جعله ثريًّا. لم تستسغ كلامه هذا واستنكرته؛ فلم يُعد المزاح بهذه الطريقة مرة أخرى. أخبرته أن القاضي العجوز -ورغم كل شيء- عامله بلُطف ونُبل عشرات أضعاف ما يستحق! لم يُسئ الرجل إليها في حياته. شعرت بالعرفان تجاه الرجُل، دفعها ذلك إلى كُره ومقت التوأم الخبيثين غريبي الأطوار اللذين قتلاه، بل لن تهدأ، ولن يرتاح بالها

حتى ترى رقبتيهما معلقتين في حبل المشنقة، وجسديهما يتدليان بعد طلوع الروح منهما! وهذا هو سبب مجيئها للمحاكمة من الأساس.

في البداية شرح بيمبروك هاوارد ما حدث ليلة الجريمة بإيجاز، ثم قال إنه سيقدم كل الأدلة الأكيدة التي لا خطأ يشوبها للمحكمة، وأن المتهم الرئيس ارتكب الجريمة بدافع الانتقام أولًا، وبدافع إنقاذ نفسه وحياته من الخطر ثانيًا، وأن أخاه هو شريكه في الجريمة؛ لأنه شهد عليها ووافق على فعلها ولم يُبدِ أي اعتراض، بل وكان حاضرًا وقت ارتكاب الجريمة ولم يحاول منعها. وقال إن هذه الجريمة تعتبر من أبشع الجرائم التي حدثت في البلدة، وأن القتل هو الجريمة الأسوأ في تاريخ البشرية، ولا يمكن لشخص أن تسول له نفسه ويقتُل إنسانًا آخر مثله إلا إذا كان جبانًا ذا روح ملأها الظلام. فهذه الجريمة حطمت قلب أخت مُحبة، أفسدت حياة ابن مُتبَنًّى بريء، أدمت قلوب أصدقاء كثيرين! وتسببت في خسارة فادحة للمُجتمع وللبلدة بأسرها. قال إنه يجب فرض أقصى عقوبة على المتهم، ويتم تنفيذ هذه العقوبة بلا أدنى شك، وأنه سيضيف ملاحظة أخرى في خطابه الختامي.

عندما انتهى بيمبروك من الكلام، تأثر الحضور أيما تأثُّر! بكت النساء ومعهن السيدة برات، ونظرات ملؤها الكراهية وجِّهَت إلى التوأم الواقفين خلف القضبان. استدعى القاضي شاهدًا تلو الآخر، واستجوب كل منهم مطوَّلًا. استنتج ويلسون بعدها أنه لا يمكنه إضافة أي شيء ذي قيمة لينقذ التوأم. شعر الجميع بالشفقة تجاه المُحامي الشاب الذي لم يكسب قضية من قبل، وستنتهي حياته المهنية تمامًا بعد هذه القضية الخاسرة.

أقسم بعض الشهود أنهم سمعوا خطاب القاضي دريسكول الأخير يوم الانتخابات، وقتذاك قال إن الخنجر سيظهر مرةً أُخرى عندما يحتاج القاتل أن يغتال أحدًا ما! اعتبروه يومها مجرد خبر أو تلميح غير مفهوم، لكنه الآن يعتبر نبوءة حقيقية حزينة تنبأ بها القاضي، وكان هو الضحية. إحساس عميق بالحزن والأسى اجتاح قلوب الحاضرين بعدما سمعوا هذا الكلام الكئيب.

نهض المدعي العام من مكانه، قال إنه كان على علم بهذا الكلام، وقد أخبره القاضي دريسكول به بنفسه في اليوم ذاته الذي قُتِل فيه، وأن محامي الدفاع سبق أن طلب من القاضي مبارزة المتهم، لكن القاضي رفض بشدة أن يبارز قاتلًا "في ميدان الشرف" كما يقول. ولا بُد أن المتهم قد تم تحذيره أنه في المرة القادمة عندما يرى القاضي دريسكول، إما أن يكون وقتها قاتلًا، وإما مقتولًا. وأضاف أنه إذا أراد ويلسون -محامي الدفاع- أن يكذبه في ذلك فليتفضل. رد ويلسون وقال إنه لن يعترض على هذا الكلام ولن ينكره؛ فارتفعت همهمات مستنكرة ومتسائلة في قاعة المحكمة، وازداد موقف ويلسون سوءًا.

وفي شهادتها، قالت السيدة برات أنها لم تسمع صراخًا، ولا تعرف ما الذي أيقظها تلك الليلة من نومها فجأة! قالت إن خطوات سريعة كانت تقترب من الباب الأمامي، وربما استيقظت عندما سمعتها، فزعت وخرجت من غرفتها للصالة بملابس نومها. قالت إنها سمعت خطوات تركض من السلم إلى غرفة الجلوس، وعندما دخلت الغرفة وجدت التوأم واقفين أمام جثة القتيل. في هذه اللحظة

انهارت السيدة واستغرقت في البكاء والنحيب. ضجت المحكمة بأصوات الحضور وهمهماتهم. بعد أن هدأت قليلًا، استأنفت كلامها؛ قالت إن السيد روجرز والسيد باكستون دخلا الغرفة خلفها، واستجوباها بعدما فعل ويلسون الشيء ذاته. قالت إن التوأم أخبرا الجميع أنهما بريئان، وأنهما كانا يتنزهان في الشوارع المجاورة، حتى سمعا صوت صراخ قادمًا من منزل القاضي، وقالوا إن صرخة الرجل كانت قوية ومدوية لدرجة أنهما سمعاها من مسافة بعيدة! وتوسلوا إليها وللسادة المذكورين أن يفحصوا أيديهما وملابسهما ليتأكدوا أن لا دخل لهما بارتكاب الجريمة، وهذا ما حدث فعلًا، ولكن أحدًا لم يجدْ أي أثر لبقعة دم على ملابسهما.

تحققت المحكمة من صحة هذا الكلام، سمعوا شهادة روجرز وباكستون، وتأكدوا من وجود سلاح الجريمة. قارنوا الخنجر الذي بين أيديهم بمواصفاته المكتوبة في الإعلان الذي نشروه من قبل ليقدموا مكافأة لمن يعثر عليه. وجدوه متطابقًا مع هذه المواصفات الدقيقة المذكورة. كما حققوا في بعض التفاصيل الصغيرة، واستعدوا لإنهاء المحاكمة.

قال ويلسون إن لديه شهودًا ثلاثة، خرجوا من منزل السيدة كلاركسون، سيشهدون بأنهم رأوا امرأة شابة محجبة تخرج من منزل القاضي دريسكول، وبالتحديد من البوابة الخلفية، وذلك بعد دقائق معدودة من سماع صرخات القتيل. قدم رجاءً للمحكمة أن يضعوا في الاعتبار على الأقل أنه لا يزال هناك شخص واحد شريك في هذه الجريمة لم يتم العثور عليه، ولذلك يجب أن تستمر المحاكمة

إنصافًا له، ورجاهم بعدم إيقاف الإجراءات حتى يكتشفوا مَن هذا الشخص. ولأن الوقت كان متأخرًا، طلب ويلسون الإذن بتأجيل المحاكمة لصباح الغد.

تدفقت الحشود من كل مكان ليحضروا الجلسة الثانية من المُحاكمة، وهم في غاية الحماس، شحذوا انتباههم لكل كلمة تُقال في الجلسة، وبدا أنهم قضوا ليلة هادئة، ممتعة، ومرضية جدًّا، على عكس المتهمين ومحاميهما ومستشارهما وصديقتهما السيدة العجوز. هؤلاء لم يستطيعوا الشعور بالحماس والابتهاج، ولم يكُن لديهم أمل كبير في ربح هذه القضية. انهارت العمة باتسي ولم تستطع تمالُك نفسها في المحكمة، حاولت في البداية أن تشجع التوأم وتحثهما على الصمود، لكنها فشلت في البقاء هادئة.

أما توم فشعر أنه في أمان تام. في بداية المحاكمة شعر بالقلق والتوتر؛ وهذا لأنه حساس وله طبيعة حذرة من أي ناقوس خطر، حتى لو كان بسيطًا. لكن عندما رأى بنفسه مدى ضعف موقف التوأم ومحاميهما ويلسون، صار مرتاحًا ومطمئنًّا لأقصى درجة، بل مبتهجًا!

عندما غادر قاعة المحكمة بالأمس كان يضحك على ويلسون ساخرًا وهو يقول بينه وبين نفسه: "التقى ثلاثة من عائلة كلاركسون بامرأة شابة مجهولة خارجة من البوابة الخلفية للمنزل. هه! هذا هو دليله؟ سأعطيه قرنًا كاملًا كي يعثر عليها. بل قرنين إذا أراد. هذه المرأة التي يتكلم عنها لم يعد لها وجود. والملابس التي ميزتها احترقت وتحولت رمادًا منثورًا. أوه! ما أسهل أن يجدها فعلًا! طبعًا

بالتأكيد". دفعه هذا التفكير الساخر إلى الإعجاب الشديد بنفسه وبذكائه الفذّ؛ لأنه حصَّن نفسه ببراعة غير عادية من الانكشاف، ولا يمكن لأحد أن يشك فيه.

في مثل هذه الحالات، دائمًا ما ينسى المجرم تفصيلة بسيطة أو أثرًا لم ينتبه إليه يتسبب في كشف أمره في النهاية، لكن توم لم يترك حتى هذا الأثر. صارت هذه السيدة كأنها طائر حلَّق بعيدًا في الهواء! واختفى في ظلمات الليل، وابتُلي ويلسون المغفل - دونًا عن جميع المُحامين في العالم- بإيجاد هذا الطائر وتعقب أثره. كم هو مضحك أن يبحث عن امرأة ليس لها وجود، بينما المجرم الحقيقي أمام عينيه طوال الوقت!

كلما فكر توم في ذلك أراد الضحك في سخرية. قال في نفسه: "كلما وجدت ويلسون المغفل بصُحبة أحد، سأسأله ببراءة عن هذه المرأة.. سأسأله بشفقة يشعُر بها كرصاص يخترق قلبه! استطعت أن تجد المرأة يا مغفل؟ سأحرجه بهذا السؤال كلما أرى وجهه وحتى يموت".

هكذا صار يسلي توم نفسه في وقت الحداد على عمه، سينظر إلى وجه ويلسون الممتقع وهو يتولى التحقيق في قضية مصيرها الخسارة والفشل. من وقت لآخر، سيثير غضبه بكلمة أو كلمتين، كأنه يواسيه ويتعاطف معه.

فَقَدَ ويلسون شهيته ولم يأكل شيئًا. حتى العشاء، امتنع عنه. في حزن وخيبة أمل ظل يحملق في بصمات النساء والفتيات التي جمعها طوال عمره، وظل على هذا الحال لساعات طويلة، يحاول أن

يجد بينهم بصمات تلك المرأة المجهولة، لكن دون جدوى. وضع يَدَهُ على رأسه في يأس، وأسند ظهره للكرسي، ثم استسلم لأفكاره المظلمة، وتأملاته الباهتة.

عندما حلّ الظلام، زار توم ويلسون في بيته. ضحك بلُطف وقال: "أهلًا يا مغفل! عُدنا إلى أيام المواساة.. أليس كذلك؟".

ثم أخذ توم أحد الشرائح الزجاجية ورفعها للضوء يتفحصها ثم أردف يقول: "تعال يا رجُل. تعال اجلس ولا تحزن مثل الأطفال هكذا. كل هذا سيمر، وستكون بخير من جديد.. صدقني".

وضع توم الشريحة الزجاجية على الطاولة واستكمل حديثه الساخر: "تعتقد أنك ستفوز دائمًا؟".

بأسف رد ويلسون: "لا. لكن لا أزال لا أصدق أن لوجي هو الذي قتل عمك. أشعر بالأسف تجاهه، وهذا يجعلني غير مرتاح. كنت ستشعر بإحساسي نفسه يا توم لولا أنك مُتحامل ضد التوأم".

تذكر توم الركلة التي تلقاها فامتقع وجهه وقال:

- لا أعلم، لكنني لا أستطيع أن أحسن النية عندما أفكر فيهما، خاصة بعد تلك الليلة. وبعيدًا عن تحيزي ضدهما أو تحاملي عليهما؛ فأنا لا أحبهما يا مغفل. وعندما يُحكَم عليهما بالإعدام لن أمشي في جنازتهما".

أخذ توم شريحة زجاجية أخرى ووجهها للضوء وهو يتفحصها وقال: "أليست هذه بصمات روكسي؟ حتى هذه الزنجية تحتفظ ببصماتها أيضًا؟ أنت أخذت منها هذه البصمات عندما كان عمري سبعة أشهُر. وقتها كانت مربيتي، تخدمني وتمرِّضني، وكنتُ بمثابة

ابنها الزنجي الصغير! أرى خطًّا مستقيمًا يمر في بصمة إبهامها. كيف يحدث ذلك؟".

مرر توم الشريحة الزجاجية إلى ويلسون، ورد الأخير عليه بضجر:

- هذا أمر شائع. يمكن أن يكون هذا الخط إما ندبة لجرح قديم أو خدش.

رفع ويلسون الشريحة الزجاجية للضوء بلا مبالاة ودقق النظر. فجأة تجمع الدم كله في وجهه، ارتجفت يداه، وأخذ يحدق في الشريحة الزجاجية كمن أصابه شلل.

- ما بك يا ويلسون؟ كأنك ستفقد وعيك!

لم يرد ويلسون بحرف؛ فهرع توم ليجلب كأس ماء ومد يده يعطيه لويلسون، لكن الأخير انكمش في مكانه وقد أصابه الهلع وقال:

- لا أريد ماء. ابعد هذه الكأس عني!

صار يتنفس بصعوبة كالمصعوق! صدره يعلو ويهبط، ورأسه صار ثقيلًا. لكنه تمالك نفسه أخيرًا وقال:

- سأكون بخير إذا نمت. أشعر بالإرهاق الشديد. عملت فوق طاقتي طوال الأيام الفائتة.

- حسنًا، سأذهب الآن وأدعك تأخذ قسطًا من الراحة. ليلة سعيدة أيها الرجل العجوز.

ولم يستطع توم أن يذهب دون أن يختم كلامه بجملة استهزاء بسيطة:

- لا تصعّب الأمر على نفسك يا مغفل، لا يمكن لأحد أن يفوز دائمًا. بالتأكيد يجب أن تخسر مرة. هوّن عليك.

جهز ويلسون كأسًا باردةً من الويسكي، وبدأ يعمل بحماس من جديد. لم يقارن البصمات التي تركها توم على الشريحة الزجاجية بدون قصد منذ قليل بالبصمات الموجودة على الخنجر، فعينه المدربة والمتمرسة استطاعت كشف الأمر في لحظة. لكنه انشغل بأمر آخر. تمتم قائلًا:

- كنتُ مغفل! لم يخطر ببالي أبدًا أن يتنكر رجل في ملابس امرأة!

بحث ويلسون عن بصمات أصابع توم عندما كان في الثانية عشرة من عمره، وجدها ووضعها على الطاولة أمامه بجوار الشريحة التي ترك عليها توم بصماته عن غير قصد منذ قليل، ثم أحضر أيضًا بصماته عندما كان رضيعًا ذا سبعة أشهر، وضمها للشريحتين الأخريين. شعر بارتياح غير عادي وقال في نفسه: "والآن اكتملت المجموعة". ظل يتفحص الشرائح في متعة وسعادة، ولكن شعوره بالمتعة لم يدُم طويلًا!

حملق في الشرائح الثلاثة مرة أخرى وأصابه الذهول! تركهم من يده وقال:

- لا يمكنني أن أستوعب ولا أفهم أبدًا! بصماته وهو رضيع غير متطابقة مع بقية البصمات!

ذرع الغرفة جيئة وذهابًا في قلق وحيرة، ثم ذهب وتفحص الشرائح الزجاجية مرة أخرى. جلس وحاول ترتيبها بشكل جيد، ونظر متفحصًا من جديد، وقال:

- لا فائدة! لا أستطيع أن أفهم! هناك شيء خاطئ. ومع ذلك أنا واثق أنني كتبت الأسماء والتواريخ بشكل صحيح، وبالتالي يجب أن تكون البصمات صحيحة! لم أكتب اسم صاحب البصمة بعدم تركيز أو لا مبالاة طوال عمري! هناك لغز غير مفهوم في الأمر!

شعر ويلسون بالتعب والإرهاق، ولم يعُد قادرًا على التركيز. قال إنه سينام حتى يستعيد نشاطه من جديد، وقتها سيفكر في حل لهذا اللغز الغريب! نام ساعة نومًا مضطربًا غير مُريح، وبعدها لم يشعُر بشيء. استغرق في نوم عميق بضع ساعات، وبعدها استيقظ، ونهض من فراشه بكسل، ثمً جلس وبدأ يتذكر: "ما هذا الحلم؟! أريد أن أتذكر ذاك الحلم! يبدو أنه.. أنه يكشف ذلك الـــ...".

قفز ويلسون من مكانه فجأة وهرع يشعل الضوء ويفحص سجلاته. صرخ قائلًا:

- هذا صحيح! يا ألله! يا له من وَحي! لم يشك أحد في ذلك طوال ثلاثة وعشرين عامًا!

الفصل الحادي والعشرون
حُكم أخير

"إنه عديم النفع فوق الأرض.
يجب أن يكون أسفلها، على الأقل سيصبح مصدر إلهام لنبات الملفوف".

من مذكرات ويلسون المغفل

"الأول من إبريل. هذا هو اليوم الذي يتم تذكيرنا فيه بحقيقتنا في الأيام الثلاثمائة والأربعة والستين الأخرى".

من مذكرات ويلسون المغفل

ارتدى ويلسون ملابس لائقة بالعمل، وبدأ يومه بنشاط وهِمَّة. كل مشاعر الكسل واليأس اختفت تمامًا بعدما اكتشف السر الخطير! وكل إحساس بالتعب تبدل انتعاشًا وأمَلًا. بحماسٍ قام بنسخ عدد مِن البصمات التي يحتاجها في المحكمة، كبرها عشرة أضعاف حجمها الأصلي بالناسخ الخاص به. طبع هذه البصمات المكبرة على ورق أبيض مقوى، وحرص أن تكون دقيقة لأقصى درجة. ثم بالحبر الأسود الداكن، أعاد تحديد كل انحناءة أو التواءة بارزة في

خطوط الأصابع الدقيقة؛ لأن بصمات الإنسان بحجمها الطبيعي، والموجودة على الشرائح الزجاجية، متشابهة ولن تميزها العين غير المُتمرسة، أما إذا تم تكبيرها عشرات المرات بواسطة الناسخ، سيتمكن غير الخبراء وضعاف النظر وكل من في قاعة المحكمة- حتى لو على مسافة عدة أقدام- من تمييز الخطوط العريضة بسهولة، سيلاحظون أنه لا يوجد بصمتان متطابقتان لشخصين مختلفين.

عندما انتهى ويلسون من هذا العمل الشاق، رتب ونظم أوراقه بتسلسل تدريجي معين، وضم الأوراق الخاصة بالبصمات للمستندات.

تناول وجبة إفطار خفيفة، وعندما شعر أنه مستعد للمحاكمة، دقت الساعة التاسعة صباحًا.

بدأت المحكمة في التجهيز للجلسة قبل حضور ويلسون؛ الذي وصل متأخرًا عن موعد المحاكمة اثنتي عشرة دقيقة، حاملًا في يده مستنداته الجديدة! جلس سريعًا في مكانه، بينما لمح توم هذه المستندات، همس لأقرب صديق بجواره غامزًا بعينيه:

- هذا المغفل لديه بُعد نظر في عمله. يظن أنه طالما القضية خاسرة لا محالة، على الأقل لينتهز هذه الفرصة التي لا تعوَّض ليعرض مجموعة من بصماته على هيئة المحكمة.

وقف ويلسون وقال إن شهوده على وصول، لكنه ربما لن يستفيد من شهادتهم في شيء!

تمتم بعض الحضور وقالوا:

- إنه يتراجع ولكن بالذوق! ينسحب! ها هو يستسلم أخيرًا!

تابع ويلسون كلامه وقال:

- ولكن لديَّ شهادة أخرى، وأفضل من شهادتهم.

زفر الحضور بخيبة أمل واضحة، بينما أردف ويلسون:

- ويجب عليَّ أن أوضح للمحكمة أنني لم أقدم إليكم هذه الأدلة من قبل؛ لأنني لم أكتشفها سوى أمس، وفي وقت متأخر من الليل. انشغلت في فحصها والعمل عليها منذ ذاك الوقت وحتى قبل أن آتي إلى هنا بنصف ساعة. سأقدم هذه الأدلة إليكم، ولكنني أريد أن أقول شيئًا في البداية. ولعل هذا الشيء سيرضي المحكمة، ومحامي الادعاء الأكثر صرامة وحزمًا. يمكنني أن أقر وأعترف، وأنا متأكد من كلامي وأتحدى أي شخص أن يكذبني فيه، أن الشخص الذي ترك بصمات يده على الخنجر الهندي هو القاتل.

سكت ويلسون لبرهة كي يعطي فرصة للمستمعين من استيعاب ما يقوله جيدًا، ثم أردف بهدوء:

- أوافق محامي الادعاء في هذا.

تفاجأ الحضور من كلام ويلسون، وارتفعت الهمهمات والصيحات داخل القاعة. أشارت الأصابع إلى المحامي المُرهَق وقالوا إنه فقد عقله. حتى القاضي المخضرم الذي اعتاد على سماع الخدع والألاعيب القانونية، الخبير في الإجراءات الجنائية، لم يكن متأكدًا أن ما سمعه صحيح!

لدرجة أنه سأل المحامي إذا كان يقصد ما يقوله فعلًا! أما هاوارد فلم يبدُ عليه أي ردة فعل. استأنف ويلسون كلامه قائلًا:

- لست أوافق على كلام محامي الادعاء وحسب، بل أستقبله برحابة صدر وسعادة بالغة. سأعود لأتكلم في هذا الأمر لاحقًا، ولكن دعوني الآن أناقش بعض النقاط الأخرى في القضية، والتي سأثبتها بالأدلة. دعوني أتكلم عما حدث من البداية وبالترتيب الصحيح.

قرر ويلسون أن يجرب شيئًا، يرى أنه لن يضر في شيء إذا لم يحقق النتيجة المرجوة منه، وهو أن يعطي الحضور فرصة لتخمين بعض الأمور الخاصة عن سبب القتل ودوافعه.

- ترى المحكمة أن الدافع وراء القتل في هذه القضية - والتي لها ظروف معينة- كان الانتقام، وهو ما أختلف معها فيه. في رأيي دافع القتل لم يكُن الانتقام، بل السرقة. كما قيل إن وجود التوأم في الغرفة التي حدثت فيها الجريمة، هو دليل دامغ على أن أحدهما هو القاتل، وقيل إن موكلي ارتكب هذه الجريمة ليدافع عن أخيه الكونت لوجي، والذي كان على خلاف مع القاضي دريسكول، وكان من المعروف أنه ربما سيفقد حياته إذا قابل هذا الرجل صدفة. وهي غريزة طبيعية بين الإخوة في حماية بعضهما. لكن سؤالي هُنا؛ لماذا بقيا التوأم في موقع الجريمة بعد أن قتلا القاضي؟ كان هناك وقت كافٍ للهرب، وخاصة أن السيدة برات لم تسمع صرخة النجدة التي أطلقها القاضي قبل وفاته، وعندما استيقظت وتوجهت للغرفة وجدت التوأم واقفين في مكانهما لا يبذلان أي جهد ليحاولا الهرب! إذا كانا

المذنبين، فمن الطبيعي أن يهربا بسرعة في الوقت الذي تهرع السيدة برات فيه لتلك الغرفة. لو أن لديهما غريزة البقاء المتأصلة في أي إنسان لهربا، ولم يقفا هكذا ليتم الإمساك بهما بعد قتلهما للرجل الأعزل. دعونا لا نقلل من ذكائنا إلى هذه الدرجة! إذا كان أي أحد من الحضور في مكانهما، هل سيظل واقفًا في مكانه أمام الجثة دون أن يحاول الهرب؟ كما أكدت المحكمة أنه تم عرض مكافأة كبيرة لمن يسلِّم الخنجر، ومع ذلك لم يتقدم أي لص بتسليمه. هذا ما جعل محامي الادعاء يقول إن الخنجر سُرق بدافع الانتقام، وبسبب الخطاب الختامي الذي ألقاه القتيل في الانتخابات الأخيرة. تقولون إنه تم العثور على هذا الخنجر في غرفة القتيل كسلاح للجريمة، ولم يكن هذا الخنجر- كما تقولون- سوى مع أصحابه! وهما التوأم الغريبان التعيسان، وأن هذا دليل لا يدع مجالًا للشك على تورطهما في هذه الجريمة. لكن يجب أن أقول شيئًا، لقد تم تقديم مكافأة سرية لمَن يدل على اللص أيضًا، والمحكمة تعرف ذلك وتم الإشارة إلى هذا من قبل، حتى لو بشكل غير مباشر، فعلى الأقل تم ذكره ضمنيًّا. وفي الحقيقة، ربما كان اللص حاضرًا الآن بيننا.

كان توم دريسكول ينظر إلى ويلسون في أثناء حديثه، لكنه أشاح بنظره بعيدًا بعدما سمع الجملة الأخيرة. وأكمل ويلسون كلامه:

- ربما كان اللص شخصًا آخر لا التوأم. شخص يعرف بشأن المكافأة وأنها ليست إلا كمينًا إذا وقع فيه، سيكون بذلك قد اعترف على نفسه بالسرقة؛ فلم يستطع هذا اللص أن يبيع الخنجر، ولا أن يرهنه في محل الرهونات.

أومأ الأغلبية برؤوسهم على سبيل الاعتراف بأن هذا التخمين يمكن أن يكون صحيحًا.

- سأثبت لهيئة المحلفين أن ثم شخصًا ثالثًا كان موجود في غرفة القاضي دريسكول قبل دخول المتهمين بعدة دقائق.

أثارت هذه الجملة انتباه الجميع، وكل مَن كان شاردًا بدأ يركز فيما يقال، واستعد الحضور للاستماع بانتباه.

- سأثبت أن الآنسات من عائلة كلاركسون قد التقين شخصًا يرتدي حجابًا -يبدو في ملابسه كأنه امرأة- خارجًا من البوابة الخلفية لمنزل القاضي دريسكول بعد وقوع الجريمة بعدة دقائق. هذا الشخص لم يكُن امرأة، بل هو رجل متنكر في ملابس نسائية!

زاد انتباه الحضور، بينما ألقى ويلسون نظرة على وجه توم ليرى تأثير هذا الكلام عليه، وكان راضيًا بالنتيجة. قال في نفسه:

- نجحَت هذه الضربة.

ثم استكمل كلامه لهيئة المحكمة قائلًا:

- هدف ذاك الشخص لم يكن القتل، بل السرقة. صحيح أن الخزنة كانت مغلقة، ولكن كان هناك صندوق فيه ثلاثة

آلاف دولار على الطاولة، وإذا كان اللص واحدًا من أهل المنزل، بالتأكيد سيعرف بشأن وجود هذا الصندوق، ويعرف عادة مالكه في السهر وعدّ نقوده وترتيب حساباته في الليل -إذا كان لدى القاضي دريسكول هذه العادة- وطبعًا لم يحاول اللص سرقة الصندوق إلا عندما نام القاضي، لكنه أحدث صخبًا أيقظه من نومه؛ فقام وأمسك باللص متلبِّسًا. لم يجد الأخير مفرًّا من سحب الخنجر من غمده وغرسه في لحم الرجل حتى سقط قتيلًا. وبالتالي أنقذ اللص نفسه من انكشاف أمره، وعندما سمع صوت خطوات تقترب من الغرفة فر هاربًا دون أن يأخذ غنيمته معه! انتهيتُ الآن من عرض نظريتي، وحان وقت تقديم الأدلة التي تثبت صحتها.

تناول ويلسون بعض الشرائح الزجاجية ليعرضها على المحكمة، وعندما رآها الحضور، تذكروا عادة ويلسون المغفل في جمع هذه الأشياء الغريبة، تلاشى الاهتمام البالغ الذي أبدوه من قبل، زالت علامات القلق والترقب من على وجوههم، وانفجرت القاعة بضحكات ساخرة هنا وهناك. ضحك توم مع الضاحكين بمرح واستهزاء. لكن يبدو أن ويلسون لم ينزعج أبدًا مما يحدث. رتب مستنداته على الطاولة التي أمامه وقال:

- أرجو من المحكمة أن تسمح لي بشرح بعض الملاحظات المتعلقة بالأدلة التي أنا على وشك تقديمها، إن كل إنسان له علامة تميزه يحملها معه منذ ولادته وحتى يستقر في قبره. علامة تميزه وحده، يتم التعرف عليه بواسطها دون

أن تترك متسعًا لشك أو تساؤل. هذه العلامة هي بمثابة توقيع الشخص الخاص به، وليس توقيعًا عاديًّا، بل توقيع فسيولوجي إذا جاز التعبير. لا يمكن لأحد أن يزور هذا التوقيع، أو يخفيه أو يبدله، ولا يمكن أيضًا لهذا التوقيع أن يتغير مع مرور الزمن! التوقيع الذي أقصده ليس وجهه؛ لأن الملامح تتغير بمرور الزمن، ولا شعره؛ لأنه يمكن أن يتساقط! ولا طوله؛ لأن هناك كثيرين لهُم الطول نفسه، ولا شكله؛ لأن هناك أشباهًا كثرًا، في حين أن هذا التوقيع لا يمكن أن يوجد شبيه له، ولا يمكن أن يتكرر مرتين، مهما زاد عدد السكان في العالم!

بدأ الحضور في الاهتمام مرة أخرى بالكلام، أصاخوا السمع بتركيز شديد:

- هذا التوقيع عبارة عن خطوط لها انحناءات وتموجات في منتهى الدقة في باطن اليدين والقدمين. إذا كنت ذا نظر حاد، سترى هذه الخطوط في أطراف أصابعك، بانحناءاتها وتقوساتها، تشبه الخطوط التي تحد المحيطات والبلاد المرسومة في الخرائط. ستلاحظ أن لها أنماطًا مختلفة، أقواس، دوائر متداخلة، خطوطًا منحنية، وهكذا. وكل نمط يختلف باختلاف الإصبع الذي تنظر إليه.

نظر مَن في القاعة كلٌّ إلى أصابع يديه بعد أن رفعوا أياديهم في الضوء. تفحص الحضور بدقة أطراف أصابعهم، سُمِعت الهمسات هنا وهناك وهم يقولون: "هذا صحيح! لماذا لم نلحظ ذلك من قبل؟".

وأضاف ويلسون:

- ستلاحظون أن العلامات الموجودة على أصابع اليد اليمنى مختلفة عن تلك الموجودة على اليد اليسرى.

همس الحاضرون:

- معقول؟ نعم! هذا صحيح.

قال ويلسون:

- وستجد أن هذه العلامات مختلفة عن التي في يد زميلك.

كل مَن في القاعة ظلوا يقارنون علاماتهم معًا، حتى القاضي وهيئة المحلفين بدأوا في إجراء هذه المقارنات!

استأنف ويلسون كلامه:

- وأيضًا نمط هذه الخطوط في يدي التوأم اليمنى تختلف عن اليسرى، ولا يوجد توأم يحملان نفس العلامات! ستجد هيئة المحلفين كلامي صحيحًا إذا قارنوا العلامات في أيدي التوأم.

تم فحص أيدي التوأم فورًا.

قال ويلسون:

- سمعتُ كثيرًا عن توأم يتشابهان لدرجة أنهما إذا ارتديا ملابس متشابهة لن يستطيع والداهما التعرف عليهما! ومع ذلك لا يوجد توأم لهما نفس هذه العلامات التي تعتبر بمثابة توقيع خاص وفريد لكل إنسان حينما يولد! ولا يمكن حتى لأخيك التوأم أن يزور توقيعك هذا.

سكت ويلسون برهة، وساد الصمت والسكون في أرجاء المحكمة؛ فشعر الجميع أن هُناك شيئًا سيحدث! كفَّ الجميع عن فحص أياديهم، واشرأبت الرؤوس، توجهت الأعين لتنظر في وجه ويلسون بترقب. لم يتكلم ويلسون فورًا، بل انتظر لحظات أُخرى، حتى يفرض تأثيره وتعويذته هذه على جميع الحضور. وعندما سمع دقات الساعة المعلقة على الحائط، أخذ الخنجر الهندي ورفعه للأعلى بحيث يراه كل مَن في القاعة، ويرون العلامات الدموية الموجودة على مقبضه العاجي؛ ثم قال بنبرة عاطفية:

- توقيع القاتل موجود على هذا السلاح، ومطبوع بدم ذاك الرجل العجوز الأعزل الذي لم يؤذِ أحدًا في حياته قط، أحبَّكم، وأنتم أيضًا أحببتموه واحترمتموه. ولا يوجد سوى رجل واحد له هذا التوقيع الموجود على الخنجر الآن بلون الدم!".

سكت ويلسون قليلًا، وقال ناظرًا إلى الساعة المعلقة على الحائط:

- بإذن الله سنعرف القاتل قبل أن تدق الساعة الثانية عشرة ظهرًا.

نهض الجميع من أماكنهم في ذهول، كأنهم يتوقعون دخول القاتل الحقيقي من الباب. ارتفع صوت القاضي عاليًا وهو يضرب الطاولة بمطرقته قائلًا:

- أمر من المحكمة، ليجلس الجميع في أماكنهم!

امتثل الحضور للأمر وجلسوا جميعًا، وساد الهدوء في القاعة مرة أخرى. ألقى ويلسون نظرة خاطفة على توم وقال بينه وبين نفسه: "لعل صدره ضاق الآن بما يُقال. حتى أعداؤه يشفقون عليه ويعتقدون أنه يمر بمحنة في غاية الصعوبة؛ لأنه فقد عمه الذي تبناه ورباه في صغره! ويظنون أنه مكلوم وموجوع!".

قال ويلسون مستأنفًا كلامه:

- طوال عمري كنتُ أستمتع بجمع هذه العلامات والتوقيعات الجسدية الفريدة -واسمها البصمات- لأهل البلدة. لديَّ في منزلي المئات من هذه الشرائح الزجاجية. أسمي كل شريحة باسم صاحبها وأدون عليها التاريخ الذي أخذت فيه العينة. لم أؤجل كتابة الأسماء والتواريخ ليوم ولا لساعة واحدة حتى. بل أدون كل هذه المعلومات في نفس اللحظة التي آخذ فيها البصمات. عندي بصمات كل فرد في هذه المحكمة، وعندي بصمات العمدة، بل وهيئة المحلفين أيضًا. ولا يوجد فرد واحد في هذه القاعة ليس عندي بصماته. ولا شك أنني أستطيع التعرف على بصمة كل فرد هنا، ويمكنني استخراجها من بين ألف بصمة أخرى.

ازداد اهتمام الحضور، واستكمل ويلسون كلامه:

- درست بعض هذه البصمات كثيرًا؛ لدرجة أنني حفظتها مثلما يحفظ أمين الصندوق في البنك توقيع أقدم عميل لديه! سأدير ظهري إليكم الآن، وأطلب من جميع الحضور أن يمرروا أصابعهم في شَعرهم، ثم يضغطوا بأناملهم على

زجاج النافذة الموجود بالقرب من هيئة المحلفين. وأريد من الماثلين في قفص الاتهام أن يفعلوا المثل.

أدار ويلسون ظهره للحضور، بينما امتثل الأغلبية لأوامره وطبعوا بصمات أيديهم على الزجاج الشفاف. بقع بيضاوية بيضاء تناثرت فوق الزجاج، لكن معظمها لم يكن واضحًا إلا عندما تلتصق أوراق الشجر الغامقة بالنافذة بفعل الهواء؛ فتتضح خطوط بعض البصمات. بعدها توجه ويلسون إلى النافذة، وأخذ يفحص البصمات جيدًا، ثم قال:

- هذه اليد اليمنى للكونت لوجي. وهذه يده اليسرى. هذه يد الكونت أنجلو اليمنى، وهذه يده اليسرى.

استدار ويلسون مواجهًا الحضور وسألهم:

- هل أنا على صواب؟

صفق الحضور بحماس شديد، بينما قال بعضهم:

- هذا أشبه بمعجزة!

التفت ويلسون إلى النافذة مرة أخرى، دقق النظر وأشار بإصبعه وهو يقول:

- هذا توقيع القاضي روبنسون [تصفيق]، وهذا توقيع الضابط بليك [تصفيق]. أما هذا لجون ماسون المحامي [تصفيق]، وهذا التوقيع للضابط [تصفيق]. لا يمكنني معرفة أسماء الآخرين، لكن أسماءهم جميعًا موجودة عندي في سجلاتي،

في منزلي، بالأسماء والتواريخ، ويمكنني التعرف عليهم جميعًا من خلال بصماتهم.

عاد ويلسون إلى مكانه وسط عواصف هادرة من التصفيق، لكن القاضي أمرهم بالجلوس في هدوء. اشرأبت الرؤوس وراقب الجميع -بما فيهم القاضي وهيئة المحلفين- مرافعة ويلسون باهتمام بالغ. قال ويلسون:

- والآن، ها هي البصمات الخاصة لطفلين، كبَّرت حجمها عشر مرات بالناسخ؛ حتى يتمكن الجميع من رؤيتها وتمييزها بوضوح. سأطلق على الطفلين اسم (أ) و (ب). ها هو توقيع أصابع الطفل (أ)، والتي أخذتها عندما كان رضيعًا عمره خمسة أشهر، وهذا توقيع الطفل نفسه عندما كان عمره سبع أشهر. إنهما متطابقان. هل ترون؟ أما هذا فهو التوقيع الخاص بالطفل (ب) في عمر الخمسة أشهر، وهذا توقيعه عندما بلغ من العمر سبعة أشهر. إنهما متطابقان أيضًا. وتوقيع الطفل (أ) مختلف تمامًا عن توقيع الطفل (ب) كما تلاحظون. سأعود لهذه النقطة مرة أخرى، ولكنني سأتخطاها الآن. ها هي توقيعات المتهمين بقتل القاضي دريسكول الماثلان أمامكما، لقد نسخت هذه التوقيعات ليلة أمس وكبرت حجمها عشر مرات، أطلب من هيئة المحلفين فحصها ومقارنتها بتوقيعهما الموجود على زجاج النافذة الآن، وإخبار المحكمة إذا كانا متطابقين.

مرر توم عدسة مكبرة لرئيس هيئة المحلفين، الذي بدأ هو وفريقه بمقارنة البصمات، ثم قال:

- سيادة القاضي. نحن جميعًا متفقون أن العلامات متطابقة.

قال ويلسون لرئيس هيئة المحلفين:

- من فضلك خذ هذه الورقة أيضًا، وقارنها مستخدمًا العدسة المكبرة بالبصمات الموجودة على الخنجر، وأبلغ المحكمة بالنتيجة التي توصلت إليها.

فحصت هيئة المحلفين العلامات بدقة، وقال رئيسهم النتيجة:

- سيادة القاضي. لقد وجدنا هذه البصمات متطابقة تمامًا.

التفت ويلسون لمحامي الادعاء وقال بنبرة تحذيرية:

- أتمنى أن ترضى المحكمة بالنتيجة؛ فقد زعمتم بكل قوة وإصرار أن البصمات الدموية الموجودة على مقبض الخنجر تعود إلى القاتل نفسه، وهو ما وافقتُ عليه ورحبت به بشدة.

ثم التفت ويلسون إلى رئيس هيئة المحلفين وقال:

- قارن بصمات المتهم بالبصمات الموجودة على الخنجر من فضلك، وأبلغ المحكمة بالنتيجة.

بدأت هيئة المحلفين بفحص البصمات، بينما سكت جميع الحضور، توقفوا عن الحركة تمامًا، ولم يصدر لهم أي صوت، منتظرين بفارغ الصبر أن ينطق الرئيس بالنتيجة! حتى قال أخيرًا:

- لا يوجد أي شبه بين البصمتين!

قفز الجميع واقفين في تهليل وصياح وصخب متزايد، ولكن سرعان ما أسكتهم القاضي وحل النظام مرة أخرى. كان توم يتقلب في جلسته يمينًا ويسارًا، لكن أيًّا من التغييرات في جلسته لم يجلب له الراحة. وعندما انتبه الجميع مرة أخرى، قال ويلسون بجدية مشيرًا إلى التوأم:

- التوأم بريئان. لم يعد هناك شك في ذلك.

صفق الحضور مرة أخرى وأسكتتهم المحكمة، استأنف ويلسون كلامه:

- أما الآن فسنعثر على القاتل الحقيقي.

برزت عينا توم من تجويفهما؛ فهو يمر بيوم عصيب فعلًا كما يعتقد الجميع!

قال ويلسون:

- سنعود إلى بصمات الطفلين (أ) و (ب). أطلب من هيئة المحلفين أن تقارن البصمات المأخوذة في عمر خمسة أشهر وتلك التي أخذت في عمر السبعة أشهر، وإبلاغ المحكمة إذا كانت متطابقة.

أجاب رئيس هيئة المحلفين:

- نعم. متطابقة.

- والآن قُم بفحص هذه البصمة التي التقطت للطفل (أ) عندما بلغ من العمر ثمانية أشهر. هل تتوافق مع بصماته الأخرى؟

وكانت الإجابة مُفاجأة للجميع!

- لا. مختلفة تمامًا!

- أنت على حق. والآن خذ هاتين النسختين لبصمة الطفل (ب) في عمر الخمسة أشهر والسبعة أشهر، هل هما متطابقان؟

- نعم. تمامًا.

- حسنًا، والآن خذ هذه النسخة الثالثة لبصمات الطفل (ب) وقارنها ببصماته الأخرى. هل تجدها متطابقة؟

- لا، ولا يوجد وجه شبه بينها حتى!

- بماذا تفسر هذه التناقضات الغريبة؟ أنا سأخبركم. لسبب غير معروف، ولعله سبب أناني جدًّا، قام أحدهم بتبديل هذين الطفلين في المهد!

ذُهِل جميع الحضور، وكذلك اندهشت روكسانا، ولكن هذا التخمين لم يزعجها؛ فمعرفة حقيقة أن هناك طفلين تم تبديلهما شيء، ومعرفة الفاعل شيء آخر. تعرفُ أن ويلسون المغفل ذكي ويمكنه فعل أشياء كثيرة، لكنه لن يستطيع فعل المستحيل! لذلك جلست وهي تشعر بالراحة والاطمئنان، كما ارتسمت على شفتيها ابتسامة.

استأنف ويلسون مرافعته:

- تم تبديل هذين الطفلين عندما كانا بين سن السبعة أشهر والثمانية، ومَن بدَّلهما موجود معنا في هذه القاعة.

وقف الجميع متلفتين حولهم، يريدون معرفة مَن بدل الطفلين! وصخبت المحكمة بأصوات الناس، تصفيقهم، صراخهم وحركاتهم، وبدا توم كما لو أن روحه تخرج من جسده. والآن فقط كاد قلب روكسانا أن يتوقف عن الدق!

قال ويلسون:

- تم وضع الطفل (ب) في مهد الطفل (أ). انتقل الطفل (ب) إلى المطبخ مع الخدم وأصبح زنجيًا وعبدًا [تهامس الحضور بغضب] لكنه في غضون ربع ساعة من الآن، سيعود أبيض حُرًّا من جديد! [تصفيق حاد تم إيقافه بأمر المحكمة]، ومنذ كان في عمر السبعة أشهر، كان الطفل (أ) مُغتصِبًا حق غيره، ينتحل اسم الطفل (ب) في السجلات الموجودة عندي. هذه هي بصماته عندما كان في الثانية عشرة من عمره، قارنها أيها الرئيس ببصمات القاتل الموجودة على مقبض الخنجر. هل تتطابق البصمتان؟

أجاب الرئيس:

- نعم! متطابقة في أدق التفاصيل!
- قاتل صديقك وصديقي -السيد يورك دريسكول ذي الروح الكريمة النبيلة- يجلس الآن بينكم. فاليت دي تشامبر، أيها الزنجي، العبد، يا مَن يدعونك خطأً باسم توماس بيكيت دريسكول، توجه الآن إلى النافذة واطبع بصمات يدك عليها. اطبع البصمات التي ستأخذك إلى حبل المشنقة!

وقف توم محاولًا أن يصلب طوله، نظر لويلسون باستجداء، حاول أن ينطق، فلم تخرج الكلمات من شفتيه، التي تحوَّل لونهما إلى الأبيض الشاحب، ثم سقط فاقدًا الوعي!

كسر ويلسون الصمت الناتج عن ذهول الآخرين، وقال:

- لا داعيَ لذلك. لقد اعترف القاتل.

ألقت روكسي جسدها إلى الأرض وجلست على ركبتيها، غطت وجهها المنتحب وعينيها الباكيتين بيديها، وخرجت من فمها الكلمات بصعوبة:

- يا رب ارحمني.. كم أنا تعيسة، ومسكينة، ومخطئة، وسيئة!

ثم دقت الساعة الثانية عشرة ظهرًا. رفعت المحكمة. تحرر التوأم ووضعت القيود في يدي السجين الجديد.

خاتمة

"غالبًا ما يظن الذي لا يستطيع أن يكذب، أنه أفضل محامٍ للكذبة".

من مذكرات ويلسون المغفل

"الثاني عشر من أكتوبر، الاكتشاف العظيم!
كان من الرائع اكتشاف أمريكا، لكن الأكثر روعة ألا تُكتشفَ مطلقًا".

من مذكرات ويلسون المغفل

جلس أهالي البلدة يتسامرون طوال الليل عما حدث في المحكمة، مندهشين من براعة ويلسون وكلمته في المرافعة! منتظرين بشغف مُحاكمة توم. ذهبوا أفواجًا إلى بيت ويلسون يحتفون به، طالبوه بإلقاء كلمة وألحوا في الطلب. كلما تكلم هتفوا وصفقوا وصرخوا بعلو أصواتهم مشجعين. اعتبروا أن كل ما تنطق به شفتاه كلمات من ذهب! انتهى كفاحه العسير والصعب ضد حظه العاثر والتنمر الظالم. ويلسون كان رجلًا خيّرًا. وعندما انتهى الخطاب وانفض الجمع مبتعدين، قال بعضهم بصوتٍ عالٍ سمعه ويلسون بوضوح:

- هذا هو الرجل الذي أطلقنا عليه لقب (مغفل) أكثر من عشرين عامًا؟! لم يعد مغفل بعد الآن يا أصدقاء! لقد استقال ويلسون من هذا المنصب.

- نعم. ولكن هذا المنصب لم يعُد شاغرًا. نحنُ جميعًا مُرشحون لنحل محله في أخذ هذا اللقب!

أطلق سراح التوأم، واستعادا اعتبارهما وسمعتهما الطيبة. صارا أبطالًا من جديد، لكن بقي في قلبيهما غصة من هذه المُغامرة الغريبة التي خاضاها، وفي أقرب فرصة هاجرا إلى أوربا بلا عودة.

أما روكسي فتحطم قلبها. واصل الوريث الحقيقي التي تسببت في استعباده ثلاثة وعشرين عامًا إعطاءها المعاش الذي كان يعطيه إليها توم المزيف، وهو خمسة وثلاثون دولارًا شهريًّا. لكن المال لم يشفِ جراحها التي لا تلتئم ولا آلامها الغائرة. انطفأ بريق الحياة في عينيها، وانقطعت صوت ضحكاتها عن الدنيا. لم تجد لها مكان أو عزاء في هذا العالم إلا في الكنيسة.

وجد الوريث الحقيقي نفسه ثريًّا فجأة، وحُرًّا. جعله هذا في غاية الحرج! فلم يكن توم الحقيقي يستطيع القراءة ولا الكتابة، يتحدث مثلما يتحدث الزنوج، يمشي ويقف ويتحرك ويومئ مثلهم! حتى ضحكته كانت ضحكة سوقيَّة مبتذلة. أخلاقه أخلاق عبد، ولا يمكن للمال والثروة أن يحسنا من هذه العيوب أو يستراها! بل بالعكس، جعلها المال أكثر بروزًا ووضوحًا، حتى أصبح الشاب مثيرًا للشفقة. لم يستطع تحمل الاختلاط مع الأسياد، ولم يكُن يشعر بالسلام في المنزل إلا عندما يجلس في المطبخ! شعرت الأسرة بالأسف تجاهه، كما شعر هو بالأسف على نفسه؛ لأنه ممنوع من الدخول إلى معرض الزنوج الذي يجمعه برفاقه القدامى! لكن لا يمكننا الاسترسال في متابعة مصيره الغريب؛ ستكون هذه قصة طويلة.

اعترف الوريث الكاذب بكل شيء اعترافًا كاملًا، وحكمت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة. ولكن ظهرت بعض التعقيدات. أملاك بيرسي دريسكول تجمدت فور وفاة صاحبها، وتم تسديد ستين بالمائة من ديون الرجل. لكنَّ الدائنين جاءوا مطالبين ببقية أموالهم الآن! واشتكوا أنه بسبب الخطأ الذي حدث، ولأنهم اعتقدوا أن توم هو وريث عائلة دريسكول، لم يضعوا في الاعتبار وقتذاك أنه يُعتبر جزءًا من الممتلكات التي يمكن بيعها بصفته عبدًا زنجيًّا! وزعموا أن توم ملكهم بالقانون. وطوال ثماني سنوات خسروا خدماته كعبد، اعتبروها خسارة فادحة. وقالوا إنهم بهذه الطريقة، وكلما مر الوقت عليه في سجنه، سيخسرون أكثر وأكثر، وأنهم لو عرفوا حقيقته من البداية؛ لكانوا باعوه وأخذوا ثمنه قبل أن يقتل القاضي دريسكول، ووقتها لم يكن ليقتل أحدًا. وأن المشكلة ليست في جريمة القتل، بقدر ما هي في الجرد الخاطئ للممتلكات الموروثة.

رأى الجميع أن هذا الكلام منطقي، وقالوا إن توم إذا كان من الأسياد وحُرًّا، لكان من الصواب معاقبته ومحاكمته؛ لأن هذا لن يتسبب في خسارة لأي شخص، أما كونه عبدًا، لا يجعل لأحد الحق في حرمان الدائنين مِن الاستفادة بثمنه!

ما إن فهم القاضي أبعاد القضية، حتى أفرج عن توم فورًا، وأخذه الدائنون، وباعوه في بلاد جنوب النهر.

المحتويات

همسة للقارئ

الفصل الأوَّل: صار لقبه المغفل! 11

الفصل الثاني: دريسكول يبيعُ عبيدَهُ 21

الفصل الثَّالث: روكسي تُخادِع بذكاء! 33

الفصل الرَّابع: مراحِل التَحوُّل 43

الفصل الخامس: داوسون لاندينغ تحتفي بالتوأم 57

الفصل السَّادس: بحرٌ مِن المَجد 67

الفصل السَّابع: الحورية المجهولة 75

الفصل الثَّامن: فُرصة أخيرة للسَّيِّد توم 79

الفصل التَّاسع: توم يركَع مُتذللًا! 95

الفصل العاشر: ظُهور الحورية 103

الفصل الحادي عشر: اكتشاف ويلسون المُذهِل 111

الفصل الثَّاني عشر: عار القاضي دريسكول 131

الفصل الثَّالث عشر: توم يُحدِّق في الأطلال 141

الفصل الرَّابع عشر: روكسانا مصممة على الإصلاح 151

الفصل الخامس عشر: وسُرِقَت الغنيمة! 165

الفصل السَّادس عشر: بَيعٌ في بلاد جنوب النهر 179

الفصل السَّابع عشر: نبوءة القاضي الغريبة! 185

الفصل الثَّامن عشر: أوامر روكسانا 189

الفصل التَّاسع عشر: النبوءة تتحقق 205

الفصل العشرون: القاتل يضحك ساخرًا 219

الفصل الحادي والعشرون: حُكم أخير 231

خاتمة 249

ويلسون المُغفّل

الشجاعة لا تعني عدم الشعور بالخوف، بل مواجهته والسيطرة عليه. وإذا كان الجهل بمشاعر الخوف شجاعة؛ سيكون البرغوث هو أشجع المخلوقات! لأنه مستعد للهجوم عليك في أي وقت، مستيقظًا كنت أو نائمًا. لن يضع في حساباته حجمك الضخم مقارنةً بحجمه الصغير، ولن يضع اعتبارًا لمدى قوتك وكونك بالنسبة له كجيوش الأرض مجتمعة ضد رضيع صغير! البرغوث يعيش كل أيامه ولياليه في حُضن الخطر، ومع ذلك لا يشعر بالخوف مثله مثل رجل يمشي آمنًا في شوارع مدينة كانت مهددة بالزلازل قبل عشرة قرون. عندما نتحدث عن رجال لا يعرفون الخوف، يجب أن نضع البرغوث في أول القائمة.

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING

الرقيم الدولي: ISBN 978-1-998800-04-9
978-1-998800-04-9